أحمد فايز

طريق الدعوة في ظلال القرآن

الجزء الثاني

مؤسسة الرسالة

أحمد فايز

طريق الدعوة في ظلال القرآن

الجزء الثاني

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدّمة

إن الإسلام ليس فقط مجموعة إرشادات ومواعظ، ولا مجموعة آداب وأخلاق ، ولا مجموعة شرائع وقوانين ولا مجموعة أوضاع وتقاليد ، إنه يشمل هذا كله ، ولكن هذا كله ليس هو الإسلام ، إنما الإسلام استسلام . الاستسلام لمشيئة الله وقدره ، والاستعداد ابتداء لطاعة أمره ونهيه ، ولاتباع المنهج الذي يقرره دون التلفت إلى أي توجيه آخر وإلى أي اتجاه ، ودون اعتماد كذلك على سواه . وهو الشعور بـأن البشر في هـذه الأرض خاضعون للناموس الإلهي الذي يصرفهم ، ويصرف الارض كما يصرف الكواكب والأفلاك ، ويدبر أمر الوجود كله ما خفي منه وما ظهر ، وما غاب منه وما حضر ، وما تدركه منه العقول ، وما يقصر عنه إدراك البشر . وهو اليقين بأنه ليس لهم من الأمر شيء إلا اتباع ما يأمرهم به الله ، والانتهاء عما ينهاهم عنه ، والأخذ بالأسباب التي يسّرها لهم ، وارتقاب النتائج التي يقدرها الله .

هذه هي القاعدة . ثم تقوم عليها الشرائع والقوانين ، والتقاليد والأوضاع ، والآداب والأخلاق ، بوصفها الترجمة العملية لمقتضيات العقيدة المستكنة في الضمير ، والآثار الواقعية لاستسلام النفس لله ، والسير على منهجه في الحياة .

إن الإسلام عقيدة تنبثق منها شريعة ، يقوم على هذه الشريعة نظام ، وهذه الثلاثة مجتمعة مترابطة متفاعلة هي الإسلام .

إن الإنسان قد خلقه الله بقلب واحد « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » . إنه قلب واحد ، فلا بد له من منهج واحد يسير عليه ، ولا بد له من تصور كلي واحد للحياة وللوجود يستمد منه . ولا بد له من ميزان واحد يزن به القيم ، ويقوم به الأحداث والأشياء ، وإلاّ تمزق ، وتفرق ونافق والتوى ، ولم يستقم على اتجاه .

ولا يملك الإنسان أن يستمد آدابه وأخلاقه من معين ، ويستمد شرائعه وقوانينه من معين آخر ويستمد أوضاعه الاجتماعية أو الاقتصادية من معين ثالث ، ويستمد فنونه وتصوراته من معين رابع . . فهذا الخليط لا يكوّن إنساناً له قلب ، إنما يكون مزقاً وأشلاء ليس لها قوام . وصاحب العقيدة لا يملك أن تكون له عقيدة حقاً ، ثم يتجرد من مقتضياتها وقيمها الخاصة في موقف واحد من مواقف حياته كلها ، صغيراً كان الموقف أم كبيراً . لا يملك أن يقول كلمة ، أو يتحرك حركة ، أو ينوي نية ، أو يتصور تصوراً غير محكوم في هذا كله بعقيدته — إن كانت هذه العقيدة حقيقة واقعة في كيانه — لأن الله لم يجعل له سوى قلب واحد ، ويزن بميزان واحد . لا يملك صاحب العقيدة أن يقول عن فعل فعله : فعلتُ كذا بصفتي الشخصية ، وفعلتُ كذا بصفتي الإسلامية ! كما يقول رجال السياسة أو رجال الشركات ، أو رجال الجمعيات الاجتماعية أو العلمية وما إليها في هذه الأيام ! .

إنه شخص واحد له قلب واحد ، تعمره عقيدة واحدة . وله تصور واحد للحياة ، وميزان واحد للقيم ، وتصوره المستمد من عقيدته متلبس بكل ما يصدر عنه في كل حالة من حالاته على السواء . وبهذا القلب الواحد يعيش فرداً ، ويعيش في الأسرة ، ويعيش في الجماعة ويعيش في الدولة ، ويعيش في العالم ، ويعيش سراً وعلانية ، ويعيش عاملاً وصاحب عمل ، ويعيش حاكماً ومحكوماً ، ويعيش في السراء والضراء فلا تتبدل موازينه ، ولا تتبدل قيمه ، ولا تتبدل تصوراته . . ما جعل الله لرجل من قلبين في

جوفه » . . ومن ثم فهو منهج واحد ، وطريق واحد ، ووحي واحد ، واتجاه واحد ، وهو استسلام لله وحده . فالقلب الواحد لا يعبد إلهين ، ولا يخدم سيدين ولا ينهج نهجين ، ولا يتجه اتجاهين ، وما يفعل شيئاً من هذا إلاّ تمزق وتفرق وتحول إلى أشلاء وركام .

ولقد حرص الإسلام حرصاً شديداً على تجريد عقيدة التوحيد ، وتخليصها من كل ما علق بها من الأساطير والأوشاب والانحرافات التي طرأت على العقائد التي سبقته ، حرص هذا الحرص لأن التوحيد حقيقة أولية كبيرة يقوم عليها هذا الوجود كله ، ويشهد بها هذا الوجود شهادة واضحة أكيدة . ولأن هذا التوحيد في الوقت ذاته قاعدة لا تصلح الحياة البشرية كلها في أصولها وفروعها إلاّ إذا قامت عليه .

والأنداد التي يشدد القرآن في النهي منها لتخلص عقيدة التوحيد نقية واضحة قد لا تكون آلهة تُعبد مع الله على النحو الساذج الذي كان يزاوله المشركون . فقد تكون الانداد في صورة خفية ، قد تكون تعليق الرجاء بغير الله في أي صورة ، وفي الخوف من غير الله في أي صورة ، وفي الاعتقاد بنفع أو ضر في غير الله في أي صورة . عن ابن عباس قال: «الانداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل ، وهو أن يقول : والله وحياتك يا فلان وحياتي . ويقول : لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحة ، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص . وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل : لولا الله وفلان . . هذا كله شرك » .

وفي « الحديث أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما شاء الله وشئت . قال : أجعلتني لله نداً » . . .

إن وحدانية الألوهية يقررها القرآن ويؤكدها بشتى أساليب التوكيد بتوحد

المعبود الذي يتجه إليه الخلق بالعبودية والطاعة ، وتوحد الجهة التي يتلقى منها الخلق قواعد الأخلاق والسلوك ، وتوحد المصدر الذي يتلقى منه الخلق أصول الشرائع والقوانين ، وتوحد المنهج الذي يصرف حياة الخلق في كل طريق « وإلهكم إله واحد لا إله إلاّ هو الرحمن الرحيم » .

إن معنى الدين ومعنى الإسلام هو التحاكم إلى كتاب الله وطاعته واتباعه ، فمن لم يفعل فليس له دين ، وليس مسلماً ، وإن ادعى الإسلام ، وادعى أنه على دين الله . فدين الله يحدده ويقرره ويفسره الله ، وليس خاضعاً في تعريفه وتحديده لأهواء البشر ، كل يعرفه أو يحدده كما يشاء .

إن قضية الألوهية لم تكن محل إنكار جدي من المشركين ، فقد كانوا يعترفون بأن الله — سبحانه — هو الخالق الرزاق المحيي المميت المدبر المتصرف القادر على كل شيء ، **ولكن هذا الاعتراف لم تكن تتبعه مقتضياته** . فلقد كان من مقتضى هذا الاعتراف بألوهية الله على هذا المستوى أن تكون الربوبية له وحده في حياتهم ، والربوبية تتمثل في الدينونة له وحده ، فلا يتقدمون بالشعائر التعبدية إلاّ لـــه ، ولا يحكمون في أمرهم كله غيره وهذا معنى قوله تعالى « ذلكم الله ربكم فاعبدوه » . فالعبادة هي العبودية ، وهي الدينونة ، وهي الاتباع والطاعة ، مع إفراد الله — سبحانه — بهذه الخصائص كلها ، لأنها من مقتضيات الاعتراف بالألوهية .

وفي الجاهلية كلها ينحسر مجال الألوهية ، ويظن الناس أن الاعتراف بالألوهية في ذاته حد الإيمان ، وانه متى اعترف الناس بأن الله إلههم فقد بلغوا الغاية دون أن يرتبوا على الألوهية مقتضاها وهي الربوبية . . أي الدينونة لله وحده ليكون هو ربهم الذي لا رب غيره ، وحاكمهم الذي لا سلطان لأحد إلاّ بسلطانه . كذلك ينحسر معنى العبادة في الجاهلية حتى يقتصر على مجرد تقديم الشعائر ، ويحسب الناس أنهم متى قدموا الشعائر لله وحده ، فقد عبدوا

الله وحده ، بينما كلمة العبادة ابتداء مشتقة من عبد ، و « عبد » تفيد ابتداء « دان وخضع » وما الشعائر إلاّ مظهر واحد من مظاهر الدينونة والخضوع لا يستغرق كل حقيقة الدينونة ولا كل مظاهرها .

إن الذي يُعبد ويخضع له ويطاع ، ويعترف له بالدينونة وحده هو خالق كل شيء ، فلا إله إذن غيره ولا رب إذن سواه : « ذلكم الله ربكم لا إله إلاّ هو ، خالق كل شيء ! فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل » .

إن تفرد الله سبحانه بالخلق — ، يفرده — سبحانه — بالملك ، والمتفرد بالخلق والملك يتفرد كذلك بالرزق ، فهو خالق خلقه ومالكهم .

فهو كذلك يرزقهم من ملكه الذي ليس لأحد شرك فيه . فكل ما يقتاته الخلق ، وكل ما يستمتعون به فإنما هو من هذا الملك الخاص لله ، فإذا تقررت الحقائق . . الخلق والملك والرزق ، تقرر معها — ضرورة وحتماً — أن تكون الربوبية له سبحانه ، فتكون له وحده خصائص الربوبية ، وهي القوامة والتوجيه والسلطان الذي يُخضع له ويطاع ، والنظام الذي يتجمع عليه العباد ، وتكون له وحده العبادة بكل مدلولاتها ، ومنها الطاعة والخضوع والاستسلام .

ولم يكن العرب — في جاهليتهم — ينكرون أن الله خالق هذا الكون ، وخالق الناس ورازقهم كذلك من ملكه الذي ليس وراءه ملك تقتات منه العباد ، وكذلك لم تكن الجاهليات الأخرى تنكر هذه الحقائق — على قلة من الفلاسفة الماديين من الإغريق — .

لذلك لم يكن الإسلام يواجه في الجاهلية العربية إلاّ الانحراف في التوجه بالشعائر التعبدية لآلهـة — مع الله — على سبيل الزلفى والقربى من الله وإلاّ الانحراف في تلقي الشرائع والتقاليد التي تحكم حياة الناس ، أي أنه لم يكن

يواجه الإلحاد في وجود الله – سبحانه – كما يقول اليوم « ناس » ! أو كما يتبجحون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير !

والحق أن هولاء الذين يجادلون في وجود الله اليوم قلة ، وسيظلون قلة . إنما الانحراف الأساسي هو ذاته الذي كان في الجاهلية ، وهو تلقي الشرائع في شؤون الحياة من غير الله ، وهذا هو الشرك التقليدي الأساسي الذي قامت عليه الجاهليات العربية ، وكل الجاهليات أيضاً .

فلا بد لكل من يريد أن يكون مؤمناً حقاً، ولا بد لكل من يريد أن يكون عابداً موحداً لله – سبحانه – أن يتبين حقيقة التوحيد كما أرادها الله – سبحانه وتعالى – وبيّنها في قرآنه الكريم . . لا بد لمن يريد أن يكون مسلماً أن يفهم معنى لا إله إلاّ الله كما أعلنها كل نبي لأمته، وكما حملها محمد صلى الله عليه وسلم إلى العالمين كافة .

لقد سمع العربي رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله وان محمداً رسول الله. فقال له : « هذا أمر تكرهه الملوك » . وقال له رجل آخر من العرب بفطرته وسليقته : « إذن تحاربك عليها العرب والعجم » .

لقد كان هذا العربي وذاك يفهم مدلولات لغته . كان يفهم أن لا إله إلاّ الله هي ثورة على الحاكمين الذين يحكمون عباد الله بغير شرع الله . . سواء كان هؤلاء الحاكمون عرباً أم عجماً . . كان يفهم أولئك الناس أن لا إله إلاّ الله هي ثورة على الهوى ، وهي ثورة على الأوضاع والتقاليد التي تخالف أوامر الله ومنهجه . . كانت لا إله إلاّ الله هي التي تحرك القلب وتقود عبيد الله إلى حاكمية الله . كانت لا إله إلاّ الله هي الراية التي رفعها محمد صلى الله عليه وسلم والنبيون من قبله . . راية حررت الناس أجمعين من

الطغيان والظلم . . حررتهم من الهوى والقلق والحيرة . . حررتهم من قيود الأرض وثقلة الطين . . كانت لا إله إلاّ الله هي رابطة القلوب التي ربط بها الإسلام الناس جميعاً فكانوا أحراراً في ذواتهم . . وأحراراً من كل عبودية إلاّ العبودية لله رب العالمين . لقد كانت لشهادة أن لا إله إلاّ الله جديتها في حسّ أولئك الناس الذين كانوا يفهمون مدلول لغتهم جيداً . . ما كان أحد منهم يفهم شهادة أن لا إله إلاّ الله مع الحكم بغير شرع الله، ومع تعلق القلب بغير الله كما يفهمها اليوم من يدعون أنفسهم مسلمين ذلك الفهم الباهت الهزيل .

إن على الدعاة إلى الله أن يعلنوا شهادة ان لا إله إلاّ الله واضحة المعالم فهي أمانة الله في أعناقهم . . يعلنوها صريحة كما أعلنها نوح والنبيون من بعده . . يعلنوها على حقيقتها لأنها هي قاعدة الإيمان وهي ركن الإسلام . . لقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « خير ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير »[1].

إن لا إله إلاّ الله شهادة حق تزعج وتخيف . ولكن لا مناص لمن أراد أن يكون مسلماً أن يقولها بحقها . . يعلنها كما أراد الله . وكما أعلنها محمد صلى الله عليه وسلم . . وليصبر على أذى الطغاة وتنكيلهم حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

وإذا ما أخذها المسلمون بمدلولها الجدي فإنهم بذلك يدخلون في الإسلام ، وبذلك يكونون مسلمين .. ثم ينطبق عليهم قول الله سبحانه « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً » . . ووعد الله هذا أكيد ، يتفق تماماً مع حقيقة الإيمان وحقيقة الكفر في هذا الكون .

---

(١) أخرجه الترمذي وقال حسن غريب .

غير أنه يجب أن نفرق دائماً بين حقيقة الإيمان ومظهر الإيمان . . إن حقيقة الإيمان قوة حقيقية ثابتة ثبوت النواميس الكونية ، ذات أثر في النفس وفيما يصدر عنها من الحركة والعمل . . وهي حقيقة ضخمة هائلة حين تواجه حقيقة الكفر المنعزلة المبتوتة المحدودة التي تحاول أن تقهرها . . ولكن حين يتحول الإيمان إلى مظهر فإن «حقيقة» الكفر تغلبه ، إذا هي صدقت مع طبيعتها وعملت في مجالها . . لأن حقيقة أي شيء أقوى من مظهر أي شيء . . ولو كانت هي حقيقة الكفر وكان هو مظهر الإيمان .

لذلك لا بد للدعاة إلى الله أن يبينوا حقيقة هذه الكلمة التي هي قاعدة البناء في عقيدة المسلم وضميره ، وهي قاعدة البناء في المجتمع الإسلامي . . وهي قاعدة لبناء خلافة الله في الأرض . .

وإن الطواغيت على مدار الزمان لا يخطئون فهم مدلول حقيقة هذه الكلمة التي يعلنها المؤمنون . . لكنهم يحاولون أن يخفتوا صوتها الصادق ، ويضعفوا صورتها الوضيئة في القلوب حتى يستعبدوا الناس لشرعهم وحاكميتهم .

فلا بد للدعاة إلى هذا الدين أن يرفعوا راية لا إله إلا الله ويسيروا على نهج كتاب الله في بيانها ثم يسترشدوا بالاعلام التي خلفها شهداء الإسلام في سبيلها .

وهذا الكتاب هو الجزء الثاني من طريق الدعوة . . الذي استخرجت فصوله من كتاب في « ظلال القرآن » المستوحى من القرآن الكريم ومن توجيهاته . . وفيه البيان الإلهي عن معاني التوحيد التي تحملها عقيدة لا إله إلا الله . . وهذه المعاني باقية تنتظر نفوساً مؤمنة لتسير بها حيث يشاء الله . . والله ولي التوفيق .

الباب الأول

وحدة الدين

١ - التوحيد المطلق

إن الإقرار بالرسالة هو الذي يجعل هناك ضابطاً لما يريده الله من البشر ، كي يتلقى البشر في كل ما يتعلق بالدينونة لله من مصدر واحد ، هو هذا المصدر ، وكي لا يقوم كل يوم طاغوت مفتر يقول للناس قولاً ، ويشرع للناس شرعاً ، ثم يزعم أنه شرع الله وأمره ! بينما هو يفتريه من عند نفسه !

والذين يكتبون عن الإسلام فيقولون : إنه أول دين جاء بالعقيدة في توحيد الله ، أو جاء بالعقيدة الكاملة في حقيقة الرسالة والرسول ، أو جاء بالعقيدة الكاملة في الآخرة والحساب والجزاء . . وهم يقصدون الثناء على الإسلام ! . . هؤلاء لا يقرؤون القرآن، ولو قرؤوه لسمعوا الله تعالى يقرر أن جميع رسله – صلوات الله عليهم وسلامه – جاؤوا بالتوحيد المطلق الخالص الذي لا ظلّ فيه للشرك في صورة من صوره ، وأنهم جميعاً أخبروا الناس بحقيقة الرسول وبشريته ، وانه لا يملك لهم ولا لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا يعلم غيباً ، ولا يبسط أو يقبض رزقاً . .وأنهم جميعاً أنذروا قومهم بالآخرة وما فيها من حساب وجزاء . . وأن سائر حقائق العقيدة الإسلامية الأساسية جاء بها كل رسول . . وصدّق الكتاب الأخير ما جاءت به الكتب قبله . . إنما تلك الأقوال أثر من آثار الثقافة الأوروبية التي تزعم أن أصول العقيدة بما فيها العقائد السماوية قد تطورت وترقت بتطور الأقوام وترقيها ، وما يمكن أن يدافع عن الإسلام بهدم أصوله التي يقررها القرآن ، فليحذر الكتّاب والقارئون هذا المزلق الخطير .

إن الإسلام هو الرسالة الأخيرة ، وجرى قدر الله أن يجعل منهجه هو المنهاج الباقي إلى آخر الخليقة ، وأن تجري حياة المؤمنين به وفق الناموس الكوني العام ، وأن يكون هذا الدين هو الذي يقود حياة البشرية ويُهيمن على نشاطها في كل ميدان . . وقد جعل الله هذا المنهج في هذه الصورة ، شاملاً كاملاً يلبي كل طاقات البشر واستعداداتهم ، في الوقت الذي يرفع هذه الطاقات وهذه الاستعدادات إلى الأفق اللائق بخليفة الله في الأرض ، وبالكائن الذي كرمه الله على كثير من عباده ونفخ فيه من روحه .

وجعل طبيعة هذا الدين الانطلاق بالحياة إلى الأمام : نمواً وتكاثراً ، ورفعة وتطهراً ، في آن واحد . فلم يُعطل طاقة بانية ، ولم يكبت استعداداً نافعاً ، بل نشّط الطاقات وأيقظ الاستعدادات ، وفي الوقت ذاته حافظ على توازن حركة الاندفاع إلى الأمام مع حركة الارتفاع إلى الأفق الكريم . الذي يُهيىء الأرواح في الدنيا لمستوى نعيم الآخرة ، ويعد المخلوق الفاني في الأرض للحياة الباقية في دار الخلود .

وعندما جرى قدر الله أن يجعل طبيعة هذه العقيدة هكذا جرى كذلك باختيار رسولها – صلى الله عليه وسلم – إنساناً تتمثل فيه هذه العقيدة بكل خصائصها ، وتتجسَّم فيه بكل حقيقتها ، ويكون هو بذاته وبحياته الترجمة الصحيحة الكاملة لطبيعتها واتجاهها . إنساناً قد اكتملت طاقاته الإنسانية كلها ، ضليع التكوين الجسدي . قوي البنية . سليم البناء . صحيح الحواس . يقظ الحسّ ، يتذوق المحسوسات تذوقاً كاملاً سليماً . وهو في ذات الوقت ضخم العاطفة حيّ الطبع ، سليم الحساسية ، يتذوق الجمال ، مُفتّح للتلقي والاستجابة . وهو في الوقت ذاته كبير العقل واسع الفكر ، فسيح الأفق ، قوي الإرادة يملك نفْسَهُ ولا تملكه . . ثم هو بعد ذلك كله . . النبي . . الذي تشرق روحه بالنور الكلي ، والذي تطيق روحه الإسراء والمعراج ، والذي ينادى من السماء ، والذي يرى نور ربه ، والذي تتصل حقيقته بحقيقة

كل شيء في الوجود من وراء الأشكال والظواهر . فيُسلّم عليه الحصى والحجر ، ويَحن له الجذع ، ويرتجف به أحد – الجبل – ! . . . ثم تتوازن في شخصيته هذه الطاقات كلها ، فإذا هو التوازن المقابل لتوازن العقيدة التي اختير لها .

إن الإيمان بكتب الله ورسله بدون تفرقة بين أحد من رسله هو المقتضى الطبيعي الذي ينبثق من الايمان بالله في الصورة التي يرسمها الإسلام ... « والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسُله لا نُفرق بين أحد من رسله » . . فالإيمان بالله يقتضي الاعتقاد بصحة كل ما جاء من عند الله ، وصدْق كل الرسل الذين يبعثهم الله . ووحدة الأصل الذي تقوم عليه رسالاتهم وتتضمنه الكتب التي نزلت عليهم . . ومن ثم لا تقوم التفرقة بين الرسل في ضمير المسلم . فكلهم جاء من عند الله في صورة من صوره المناسبة لحال القوم الذين أرسِلَ إليهم ، حتى انتهى الأمر إلى خاتم النبيين – محمد صلى الله عليه وسلم – فجاء بالصورة الأخيرة للدين الواحد ، لدعوة البشرية كلها إلى يوم القيامة .

وهكذا تتلقى الأمة المسلمة تراث الرسالة كله ، وتقوم على دين الله في الأرض ، وهي الوارثة له كله ، ويشعر المسلمون – من ثم – بضخامة دورهم في هذه الأرض إلى يوم القيامة . فهم الحراس على أعز رصيد عرفته البشرية في تاريخها الطويل . وهم المختارون لحمل راية الله – وراية الله وحدها – في الأرض ، يواجهون بها رايات الجاهلية المختلفة الشارات ، من قومية ووطنية وجنسية وعنصرية وصهيونية وصليبية واستعمارية وإلحادية . . إلى آخر شارات الجاهلية التي يرفعها الجاهليون في الأرض ، على اختلاف الأسماء والمصطلحات واختلاف الزمان والمكان .

إن رصيد الإيمان الذي تقوم الأمة المسلمة حارسة عليه في الأرض ، وارثة

له منذ أقدم الرسالات ، هو أكرم رصيد وأقومه في حياة البشرية . إنه رصيد من الهدى والنور ومن الثقة والطمأنينة ، ومن الرضى والسعادة ، ومن المعرفة واليقين . . وما يخلو قلب بشري من هذا الرصيد حتى يجتاحه القلق والظلام وتغمره الوساوس والشكوك ، ويستبد به الأسى والشقاء . ثم يروح يتخبط في ظلماء طاغية ، لا يعرف أين يضع قدميه في التيه الكئيب !

وصرخات القلوب التي حرمت هذا الأنس . وحرمت هذا النور ، صرخات موجعة في جميع العصور . . هذا إذا كان في القلوب حساسية وحيوية ورغبة في المعرفة ولهفة على اليقين . فأما القلوب البليدة الميتة الحاسية الغليظة ، فقد لا تحس هذه اللهفة ولا يؤرقها الشوق إلى المعرفة . . ومن ثم تمضي في الأرض كالبهيمة تأكل وتستمتع كما تأكل الأنعام . وقد تنطح وترفس كالبهيمة ، أو تفترس كالوحش ، وتزاول الطغيان والجبروت والبغي والبطش وتنشر الفساد في الأرض . . ثم تمضي ملعونة من الله ملعونة من الناس !

والمجتمعات المحرومة من تلك النعمة مجتمعات بائسة — ولو غرقت في الرغد المادي — خاوية ولو تراكم فيها الإنتاج . قلقة . ولو توافرت لها الحريات والأمن والسلام الخارجي ، وأمامنا في أمم الأرض شواهد على هذه الظاهرة لا ينكرها إلاّ مراوغ يتنكر للحسّ والعيان !

٢ — « طبيعة الرسالة وطبيعة الرسل »

يقول الله سبحانه : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلّم الله ، ورفع بعضهم درجات ، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » . .

أول ما يواجهنا في هذا الدرس هو ذلك التعبير الخاص عن الرسل « تلك الرسل » لم يقل هؤلاء الرسل . إنما استهل الحديث عنهم بهذا التعبير الخاص الذي يشتمل على إيحاء قوي واضح . يحسن أن نبينه :

« تلك الرسل » إنهم جماعة خاصة ، ذات طبيعة خاصة . وإن كانوا بشراً من البشر . . فمن هم ؟

ما الرسالة ؟ ما طبيعتها ؟ كيف تتم ؟ لماذا كان هؤلاء وحدهم رسلاً ؟ وبماذا ؟

أسئلة طالما أشفقت أن أبحث لها عن جواب ! إن حسي ليفعم بمشاعر ومعان لا أجد لها كفاء من العبارات ! ولكن لابد من تقريب المشاعر والمعاني بالعبارات !

إن لهذا الوجود الذي نعيش فيه ، والذي نحن قطعة منه ، سُنناً أصيلة تقوم عليها . هذه السنن هي القوانين الكونية التي أودعها الله هذا الكون

ليسير على وفقها ، ويتحرك بموجبها ، ويعمل بمقتضاها . والإنسان يكشف عن أطراف هذه القوانين كلما ارتقى في سُلّم المعرفة . يكشف عنها — أو يكشف له عنها — بمقدار يناسب إدراكه المحدود . المعطى له بالقدر الذي يلزم لنهوضه بمهمة الخلافة في الأرض ، في أمد محدود .

ويعتمد الإنسان في معرفة هذه الأطراف من القوانين الكونية على وسيلتين أساسيتين — بالقياس إليه — هما الملاحظة والتجربة — وهما وسيلتان جزئيتان في طبيعتهما ، وغير نهائيتين ولا مطلقتين في نتائجهما . ولكنهما تقودان أحياناً إلى أطراف من القوانين الكلية في آماد متطاولة من الزمان . ثم يظل هذا الكشف جزئياً غير نهائي ولا مطلق ، لأن سر التناسق بين تلك القوانين كلها ، سر الناموس الذي ينسق بين القوانين جميعها . هذا السر يظل خافياً لا تهتدي إليه الملاحظة الجزئية النسبية مهما طالت الآماد . .

إن الزمن ليس هو العنصر النهائي في هذا المجال . إنما هو الحد المقدور للإنسان ذاته ، بحكم تكوينه . وبحكم دوره في الوجود . وهو دور جزئي ونسبي ، ثم تجيء كذلك نسبية الزمن الممنوح للجنس البشري كله على وجه الأرض وهو بدوره جزئي ومحدود ، ومن ثم تبقى جميع وسائل المعرفة ، وجميع النتائج التي يصل إليها البشر عن طريق هذه الوسائل ، محصورة في تلك الدائرة الجزئية النسبية ، هنا يجيء دور الرسالة . دور الطبيعة الخاصة التي آتاها الله الاستعداد اللدني لتتجاوب في أعماقها بطريقة ما نزال نجهل طبيعتها ، وإن كنا ندرك آثارها مع ذلك الناموس الكلي الذي يقوم عليه الوجود .

هذه الطبيعة الخاصة هي التي تتلقى الوحي . فتطيق تلقيه . لأنها مهيأة لاستقباله . . انها الإشارة الإلهية التي يتلقاها هذا الوجود . لأنها متصلة اتصالاً مباشراً بالناموس الكوني الذي يصرف هذا الوجود .

كيف تتلقى هذه الإشارة ؟ وبأي جهاز تستقبلها ؟ . . نحن في حاجة – لكي نجيب – أن تكون لنا نحن هذه الطبيعة التي يهبها الله للمختارين من عباده ! و « الله أعلم حيث يجعل رسالته » . . وهي أمر أعظم من كل ما يخطر على البال من عظائم الأسرار في هذا الوجود . .

وكل الرسل قد أدركوا حقيقة « التوحيد » وكلهم بُعثوا بها ، ذلك أن إيقاع الناموس الواحد في كيانهم كله ، هداهم إلى مصدره الواحد الذي لا يتعدد . لا يتعدد وإلاّ لتعددت النواميس وتعدد إيقاعها الذي يتلقونه . وكان هذا الإدراك في فجر البشرية قبل أن تنمو المعرفة الخارجية ، المبنية على الملاحظة والتجربة ، وقبل أن تتكشف بعض القوانين الكونية التي تشير إلى تلك الوحدة .

وكلهم دعا إلى عبادة الله الواحد . دعا إلى هذه الحقيقة التي تلقاها وأُمِر أن يبلغها . . وكان إدراكهم لها هو المنطق الفطري الناشيء من إيقاع الناموس الواحد في الفطرة الواصلة . كما أن نهوضهم لتبليغها هو النتيجة الطبيعية لإيمانهم المطلق بكونها الحقيقة . وبكونها صادرة إليهم من الله الواحد ، الذي – وفق الإيقاع القوي الصادق الملزم الذي تلقته فطرتهم – لا يتعدد !

وهذا الإلزام المُلح الذي تستشعره فطرة الرسل يبدو أحياناً في كلمات الرسل التي يحكيها عنهم هذا القرآن أو التي يصفهم بها في بعض الأحيان . نجده مثلاً في حكاية قول نوح عليه السلام لقومه : « قال : يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بينة من ربي ، وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم ، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟ ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلاّ على الله . وما أنا بطارد الذين آمنوا . انهم ملاقو ربهم . ولكني أراكم قوماً تجهلون . ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ؟ » . .

ونجده في حكاية قول صالح عليه السلام : « قال يا قوم أرأيتم إن كنتُ

على بينة من ربي وآتاني منه رحمة ، فمن ينصرني من الله إن عصيته ؟ فما تزيدونني غير تخسير » . .

ونجده في سيرة إبراهيم عليه السلام : « وحاجّهُ قومه . قال : أتحاجّونيّ في الله وقد هدان ؟ ولا أخاف ما تشركون به إلاّ أن يشاء ربي شيئاً . وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم يُنزل به عليكم سلطاناً . فأيّ الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون » . .

ونجده في قصة شعيب عليه السلام : « قال : يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بينة من ربي ، ورزقني منه رزقاً حسناً ؟ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقي إلاّ بالله . عليه توكلت وإليه أنيب » . .

ونجده في قول يعقوب عليه السلام لبنيه : « إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون » . . وهكذا . . وهكذا نجد في أقوال الرسل وأوصافهم أثر ذلك الإيقاع العميق المُلح على فطرتهم ، والذي تشي كلماتهم بما يجدونه منه في أعماق الضمير !

ويوماً بعد يوم تكشفت للمعرفة الإنسانية الخارجية ظواهر تشير من بعيد إلى قانون الوحدة في هذا الوجود . واطلع العلماء من البشر على ظاهرة وحدة التكوين ووحدة الحركة في هذا الكون العريض . وتكشف — في حدود ما يملك الإنسان أن يعلم — أن الذرة أساس البناء الكوني كله ، وان الذرة طاقة . . فالتقت المادة بالقوة في هذا الكون ممثلة في الذرة . وانتفت الثنائية التي تراءت طويلاً . وإذا المادة — وهي مجموعة من الذرات — هي طاقة حين تتحطم هذه الذرات ، فتتحول إلى طاقة من الطاقات ! . . وتكشّف كذلك

– في حدود ما يملك الإنسان أن يعلم – أن الذرة في حركة مستمرة من داخلها . وانها مؤلفة من إلكترونات – أو كهارب – تدور في فلك حول النواة أو النويات وهي قلب الذرة وان هذه الحركة مستمرة ومطردة في كل ذرة وان كل ذرة – كما قال فريد الدين العطار – شمس تدور حولها كواكب كشمسنا هذه التي كواكبها ما تني تدور حولها باستمرار !

وحدة التكوين ووحدة الحركة في هذا الكون هما الظاهرتان اللتان اهتدى إليهما الإنسان . وهما إشارتان من بعيد إلى قانون الوحدة الشامل الكبير وقد بلغت إليهما المعرفة البشرية بمقدار ما تطيق الملاحظة والتجربة البشرية أن تبلغ . . أما الطبائع الخاصة الموهوبة ، فقد أدركت القانون الشامل الكبير كله في لمحة ، لأنها تتلقى إيقاعه المباشر وتطيق وحدها تلقيه .

إنهم لم يجمعوا الشواهد والظواهر على تلك الوحدة عن طريق التجارب العلمية ، ولكن لأنهم وُهِبُوا جهاز استقبال كاملاً مباشراً ، استقبلوا إيقاع الناموس الواحد استقبالاً داخلياً مباشراً ، فأدركوا إدراكاً مباشراً أن الإيقاع الواحد لا بد منبعث عن ناموس واحد ، صادر من مصدر واحد .

وكان هذا الجهاز اللدني في تلك الطبائع الخاصة الموهوبة أدق وأشمل وأكمل ، لأنه أدرك في لمسة واحدة ما وراء وحدة الإيقاع من وحدة المصدر ، ووحدة الإرادة والفاعلية في هذا الوجود . فقرر – في إيمان – وحدة الذات الإلهية المصرفة لهذا الوجود .

وما أسوق هذا الكلام لأن العلم الحديث يرى أنه قد أدرك ظاهرة أو ظاهرتين من ظواهر الوحدة الكونية . فالعلم يثبت أو ينفي في ميدانه . وكل ما يصل إليه من « الحقائق » نسبي جزئي مقيد ؛ فهو لا يملك أن يصل أبداً إلى حقيقة واحدة نهائية مطلقة . فضلاً عن أن نظريات العلم قد يكذب بعضها

بعضاً . ويعدل بعضها بعضاً . وما ذكرت شيئاً عن وحدة التكوين ووحدة الحركة لأقرن إليها صدق الاستقبال لوحدة الناموس في حسّ الرسل . . كلا . . إنما قصدت إلى أمر آخر ، قصدت إلى تحديد مصدر التلقي المتعمد لتكوين التصور الصادق الكامل الشامل لحقيقة الوجود .

إن الكشف العلمي ربما يكون قد اهتدى إلى بعض الظواهر الكونية المتعلقة بحقيقة الوحدة الكبرى . . هذه الوحدة التي لمست حسّ الرسل من قبل في محيطها الواسع الشامل المباشر . والتي أدركتها الفطرة اللدنية . إدراكاً شاملاً مباشراً وهذه الفطرة صادقة بذاتها — سواء اهتدت نظريات العلم الحديثة إلى بعض الظواهر أو لم تهتد — فنظريات العلم موضع بحث ومراجعة من العلم ذاته ، وهي ليست ثابتة أولاً . ثم انها ليست نهائية ولا مطلقة أخيراً . فلا تصلح إذن أن تقاس بها صحة الرسالة . المقياس لا بد أن يكون ثابتاً وأن يكون مطلقاً . **ومن هنا تكون الرسالة هي المقياس الثابت المطلق الوحيد .** وينشأ عن هذه الحقيقة حقيقة أخرى ذات أهمية قصوى . .

إن هذه الطبائع الخاصة الموصولة بناموس الوجود صلة مباشرة . هي التي تملك أن ترسم للبشرية اتجاهها الشامل . اتجاهها الذي يتسق مع فطرة الكون وقوانينه الثابتة المسطورة . هي التي تتلقى مباشرة وحي الله . **فلا تخطىء ولا تضل ، لا تكذب ، ولا تكتم ، ولا تحجبها عوامل الزمان والمكان عن الحقيقة** ، لأنها تتلقى هذه الحقيقة عن الله ، الذي لا زمان عنده ولا مكان .

ولقد شاءت الإرادة العليا أن تبعث بالرسل بين الحين والحين ، لتصل البشرية بالحقيقة المطلقة ، التي ما كانت ملاحظتهم وتجربتهم لتبلغ إلى طرف منها إلاّ بعد مئات القرون ، وما كانت لتبلغ إليها كلها أبداً على مدار القرون . وقيمة هذا الاتصال هي استقامة خطاهم مع خطى الكون ، واستقامة حركاتهم مع حركة الكون ، واستقامة فطرتهم مع فطرة الكون .

ومن ثم كان هناك مصدر واحد يتلقى منه البشر التصور الصادق الكامل الشامل لحقيقة الوجود كله ولحقيقة الوجود الإنساني . ولغاية الوجود كله وغاية الوجود الإنساني. ومن هذا التصور يمكن أن ينبثق المنهج الوحيد الصحيح القويم ، الذي يتطابق مع حقيقة تصميم الكون وحقيقة حركته . وحقيقة اتجاهه . ويدخل به الناس في السلم كافة . السلم مع هذا الكون . السلم مع فطرتهم وهي من فطرة هذا الكون . والسلم مع بعضهم البعض في سعيهم ونشاطهم ونموهم ورقيهم المهيأ لهم في هذه الحياة الدنيا .

مصدر واحد هو مصدر الرسالات ، وما عداه ضلال وباطل ، لأنه لا يتلقى عن ذلك المصدر الوحيد الواصل الموصول . إن وسائل المعرفة الأخرى المتاحة للإنسان ، معطاة له بقدر . ليكشف بها بعض ظواهر الكون وبعض قوانينه وبعض طاقاته . بالقدر اللازم له في النهوض بعبء الخلافة في الأرض ، وتنمية الحياة وتطويرها . وقد يصل في هذا المجال إلى آماد بعيدة جداً . ولكن هذه الآماد لا تبلغ به أبداً إلى محيط الحقيقة المطلقة التي هو في حاجة إليها ليكيف حياته — لا وفق الأحوال والظروف الطارئة المتجددة فحسب ولكن وفق القوانين الثابتة المطردة التي قام عليها الوجود ، ووفق الغاية الكبرى للوجود الإنساني كله .

هذه الغاية التي يراها خالق الإنسان المتعالي عن ملابسات الزمان والمكان . ولا يراها الإنسان المحدود المتأثر بملابسات الزمان والمكان .

إن الذي يضع خطة الرحلة للطريق كله . هو الذي يدرك الطريق كله . والإنسان محجوب عن رؤية هذا الطريق. بل هو محجوب عن رؤية بعض هذا الطريق . بل هو محجوب عن اللحظة التالية . ودونه ودونها ستر مسبل لا يباح لبشر أن يطلع وراءه ! فأنى للإنسان أن يضع الخطة لقطع الطريق المجهول ؟ !

انه إما الخبط والضلال والشرود . وإما العودة إلى المنهج المستمد من

خالق الوجود . منهج الرسالات ومنهج الرسل . ومنهج الفطرة الموصولة بالوجود وخالق الوجود .

ولقد مضت الرسالات واحدة إثر واحدة ، تأخذ بيد البشرية وتمضي بها صعداً في الطريق على هدى وعلى نور ، والبشرية تشرد من هنا وتشرد من هناك ، وتحيد عن النهج وتغفل عن حداء الرائد ، وتنحرف فترة ريثما يبعث إليها رائد جديد . وفي كل مرة تتكشف لها الحقيقة في صور مترقية ، تتناسب وتجاربها المتجددة حتى إذا كانت الرسالة الأخيرة كان عهد الرشد العقلي قد أشرق . فجاءت الرسالة الأخيرة تخاطب العقل البشري بكليات الحقيقة كلها ، لتتابع البشرية خطواتها في ظل تلك الخطوة النهائية . وكانت خطوط الحقيقة الكبرى من الوضوح بحيث لا تحتاج بعد إلى رسالة جديدة ، وبحسبها المفسرون المجددون على مدار القرون .

وبعد فاما أن تسير البشرية داخل هذا النطاق الشامل الذي يسعها دائماً ويسع نشاطها المتجدد المترقي ، ويصلها بالحقيقة المطلقة التي لا تصل إليها عن أي طريق آخر . واما أن تشرد وتضل وتذهب بدداً في التيه ! بعيداً عن معالم الطريق !

مقامات الرسل :

يقول الله سبحانه : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض . منهم من كَلّم الله . ورفع بعضهم درجات . وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » .

هذه الآية تلخص قصة الرسل والرسالات — كما أنها أفردت جماعة الرسل وميزتها من بين الناس — فهي تقرر أن الله فَضّل بعض الرسل على بعض ، وتذكر بعض أمارات التفضيل ومظاهره . والتفضيل هنا قد يتعلق

بالمحيط المقدر للرسول ، والذي تشمله دعوته ونشاطه . كأن يكون رسول قبيلة ، أو رسول أمة ، أو رسول جيل ، أو رسول الأمم كافة في جميع الأجيال . . كذلك يتعلق بالمزايا التي يوهبها لشخصه أو لأمته . كما يتعلق بطبيعة الرسالة ذاتها ومدى شمولها لجوانب الحياة الإنسانية والكونية . .

وقد ذكر النصّ هنا مثالين في موسى وعيسى – عليهما السلام – وأشار إشارة عامة إلى من سواهما : « منهم من كَلّم الله – ورفع بعضهم درجات – وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » .

وحين يذكر تكليم الله لأحد من الرسل ينصرف الذهن إلى موسى – عليه السلام – ومن ثم لم يذكره باسمه . وذكر عيسى بن مريم – عليه السلام – وهكذا يرد اسمه منسوباً إلى أمه في أغلب المواضع القرآنية ، والحكمة في هذا واضحة . فقد نزل القرآن وهناك حشد من الأساطير الشائعة حول عيسى – عليه السلام – وبنوته لله – سبحانه وتعالى – أو عن ازدواج طبيعته من اللاهوت والناسوت . أو عن تفرده بطبيعة إلهية ذابت فيها الطبيعة الناسوتية كالقطرة في الكأس ؟ إلى آخر هذه التصورات الأسطورية التي غرقت الكنائس والمجامع في الجدل حولها ، وجرت حولها الدماء أنهاراً في الدولة الرومانية ! ومن ثم كان هذا التوكيد الدائم على بشرية عيسى – عليه السلام – وذكره في معظم المواضع منسوباً إلى أمه مريم . . أما روح القدس فالقرآن يعني به جبريل – عليه السلام – فهو حامل الوحي إلى الرسل .

وهذا أعظم تأييد وأكبره . وهو الذي ينقل الإشارة الإلهية إلى الرسل بانتدابهم لهذا الدور العظيم ، وهو الذي يثبتهم على المضي في الطريق الشاق الطويل ؛ وهو الذي يتنزّل عليهم بالسكينة والتثبيت والنصر في مواقع الهول والشدة في ثنايا الطريق.. وهذا كلهمن التأييد .. أما البينات التي آتاها الله عيسى – عليه السلام – فتشمل الإنجيل الذي نزله عليه ، كما تشمل الخوارق التي

أجراها على يديه ، والتي ورد ذكرها مفصلة في مواضعها المناسبة من القرآن [1] تصديقاً لرسالته في مواجهة بني إسرائيل المعاندين ! ولم يذكر النص هنا محمداً — صلى الله عليه وسلم — لأن الخطاب موجه إليه كما جاء في الآية السابقة في السياق « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وانك لمن المرسلين . . تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض . . » فالسياق سياق اخبار له عن غيره من الرسل .

وحين ننظر إلى مقامات الرسل — صلوات الله وسلامه عليهم — من أية ناحية نجد محمداً — صلى الله عليه وسلم — في القمة العليا.وسواء نظرنا إلى الأمر من ناحية شمول الرسالة وكليتها ، أو من ناحية محيطها وامتدادها ، فإن النتيجة لا تتغير .

إن الإسلام هو أكمل تصور لحقيقة الوحدة — وهي أضخم الحقائق على الإطلاق . . وحدة الخالق الذي ليس كمثله شيء . . ووحدة الإرادة التي يصدر عنها الوجود كله بكلمة « كن » . . ووحدة الوجود الصادر عن تلك الإرادة . ووحدة الناموس الذي يحكم هذا الوجود . .ووحدة الحياة من الخلية الساذجة إلى الإنسان الناطق . . ووحدة البشرية من آدم — عليه السلام — إلى آخر أبنائه في الأرض . . ووحدة الدين الصادر من الله الواحد إلى البشرية الواحدة . . ووحدة جماعة الرسل المبلغة لهذه الدعوة . . ووحدة الأمة المؤمنة التي لبّت هذه الدعوة . . ووحدة النشاط البشري المتجه إلى الله وإعطائه كله اسم « العبادة » . . ووحدة الدنيا والآخرة ، داري العمل والجزاء ووحدة المنهج الذي شرعه الله للناس فلا يقبل منهم سواه . . ووحدة المصدر الذي يتلقون عنه تصوراتهم كلها ومنهجهم في الحياة . .

---

(١) (ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم اني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ان في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) .

محمد — صلى الله عليه وسلم — هو الذي أطاقت روحه التجاوب المطلق مع حقيقة الوحدة الكبرى ، كما أطاق عقله تصور هذه الوحدة وتمثلها . كما أطاق كيانه تمثيل هذه الوحدة في حياته الواقعة المعروضة للناس . كذلك هو الرسول الذي أرسل إلى البشر كافة ، من يوم مبعثه إلى أن يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها . والذي اعتمدت رسالته على الإدراك الإنساني الواعي دون ضغط حتى من معجزة مادية قاهرة ،ليعلن بذلك عهد الرشد الإنساني .

ومن ثم كان هو خاتم الرسل . وكانت رسالته خاتمة الرسالات . ومن ثم انقطع الوحي بعده ! وارتسمت للبشرية في رسالته تلك الوحدة الكبرى ، وأعلن المنهج الواسع الشامل الذي يسع نشاط البشرية المقبل في إطاره ، ولم تعد إلا التفصيلات والتفسيرات التي يستقل بها العقل البشري — في حدود المنهج الرباني — ولا تستدعي رسالة إلهية جديدة .

وقد علم الله — سبحانه — وهو الذي خلَق البشر ، وهو الذي يعلم ما هم ومن هم ، ويعلم ما كان من أمرهم وما هو كائن . . قد علم الله — سبحانه — أن هذه الرسالة الأخيرة ،وما ينبثق عنها من منهج للحياة شامل ، هي خير ما يكفل للحياة النمو والتجدد والانطلاق . فأيما إنسان ، زعم لنفسه أنه أعلم من الله بمصلحة عباده ، أو زعم أن هذا المنهج الرباني لم يعد يصلح للحياة المتجددة النامية في الأرض ، أو زعم أنه يملك ابتداع منهج أمثل من المنهج الذي أراده الله . . أيما إنسان زعم واحدة من هذه الدعاوى أو زعمها جميعاً فقد كفر كفراً صريحاً لا مراء فيه ؛ وأراد لنفسه وللبشرية شر ما يريده إنسان بنفسه وبالبشرية ، واختار لنفسه موقف العداء الصريح لله ، والعداء الصريح للبشرية التي رحمها الله بهذه الرسالة وأراد لها الخير بالمنهج الرباني المنبثق منها ليحكم الحياة البشرية .

٣ - النظرية الاسلامية في خط سير الأديان

يقول الله سبحانه : « فَبَعَثَ الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » . ولا بد أن نقف عند قوله تعالى « بالحق » فهو القول الفصل بأن الحق هو مـــا جاء به الكتاب ، وأن هـــذا الحق قد أنزل ليكون هو الحكم العدل ، والقول الفصل فيما عداه من أقوال الناس وتصوراتهم ومناهجهم وقيمهم وموازينهم ، لا حق غيره ، ولا حكم معه . ولا قول بعده . وبغير هذا الحق الواحد الذي لا يتعدد، وبغير تحكيمه في كل ما يختلف فيه الناس ، وبغير الانتهاء إلى حكمه بلا مماحكة ولا اعتراض . . بغير هذا كله لا يستقيم أمر هذه الحياة ، ولا ينتهي الناس من الخلاف والفرقة ، ولا يقوم على الأرض السلام ، ولا يدخل الناس في السلم بحال .

ولهذه الحقيقة قيمتها الكبرى في تحديد الجهة التي يتلقى منها الناس تصوراتهم وشرائعهم والتي ينتهون إليها في كل ما يشجر بينهم من خلاف في شتى صور الخلاف . . إنها جهة واحدة لا تتعدد هي التي أنزلت هذا الكتاب بالحق ، وهو مصدر واحد لا يتعدد ، هو هذا الكتاب الذي أنزله الله بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . وهو كتاب واحد في حقيقته ، جاء به الرسل جميعاً ، فهو كتاب واحد في أصله ، وهي ملة واحدة في مجموعها ، وهو تصور واحد في قاعدته : إله واحد ، وربّ واحد ، ومعبود واحد ، ومشرّع

واحد لبني الإنسان ثم تختلف التفصيلات بعد ذلك وفق حاجات الأمم والأجيال ووفق أطوار الحياة والارتباطات ، حتى تكون الصورة الأخيرة التي جاء بها الإسلام ، وأطلق الحياة تنمو في محيطها الواسع الشامل بلا عوائق بقيادة الله ومنهجه وشريعته الحيّة المتجددة في حدود ذلك المحيط الشامل الكبير . .

وهذا الذي يقرره القرآن في أمر الكتاب هو النظرية الإسلامية في خط سير الأديان والعقائد .. كل نبي جاء بهذا الدين الواحد في أصله الذي يقوم على القاعدة الأصيلة : قاعدة التوحيد المطلق . . ثم يقع الانحراف عقب كل رسالة ، وتتراكم الخرافات والأساطير ، حتى يبعد الناس نهائياً عن ذلك الأصل الكبير . وهنا تجيء رسالة جديدة ، تجدد العقيدة الأصيلة ، وتنفي ما علق بها من الانحرافات ، وتراعي أحوال الأمة وأطوارها في التفصيلات . . وهذه النظرية أوْلى بالاتباع من نظريات الباحثين في تطور العقائد من غير المسلمين ، والتي كثيراً ما يتأثر بها باحثون مسلمون ، وهم لا يشعرون ، فيقيمون بحوثهم على أساس التطور في أصل العقيدة وقاعدة التصور ، كما يقول المتشدقون وأمثالهم من الباحثين الغربيين الجاهليين !

وهذا الثبات في أصل التصور الإيماني هو الذي يتفق مع وظيفة الكتاب الذي أنزله الله بالحق ، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، في كل زمان ، ومع كل رسول ، منذ أقدم الأزمان .

ولم يكن بد أن يكون هناك ميزان ثابت يفيء إليه الناس ، وأن يكون هناك قول فصل ينتهون إليه . ولم يكن بد كذلك أن يكون هذا الميزان من صنع مصدر آخر غير المصدر الإنساني ،وأن يكون هذا القول حاكماً عدلاً لا يتأثر بالهوى الإنساني ولا يتأثر بالقصور الإنساني ، ولا يتأثر بالجهل الإنساني .

وإقامة ذلك الميزان الثابت تقتضي علماً غير محدود . علم ما كان وما هو كائن وما سيكون . علمه كله لا مقيداً بقيود الزمان التي تفصل الوجود

الواحد إلى ماضٍ وحاضر ومستقبل ، وإلى مستيقن ومظنون ومجهول ، وإلى حاضر مشهود ومغيب مخبوء . . ولا مقيداً بقيود المكان التي تفصل الوجود الواحد إلى قريب وبعيد ، ومنظور ومحجوب ومحسوس وغير محسوس . . في حاجة إلى إله يعلم ما خلق ، ويعلم من خلَق . . ويعلم ما يصلح حال الجميع .

وإقامة ذلك الميزان في حاجة كذلك إلى استعلاء على الحاجة واستعلاء على النقص ، واستعلاء على الفناء واستعلاء على الفوت ، واستعلاء على الطمع ، واستعلاء على الرغبة والرهبة . . واستعلاء على الكون كله بما فيه ومن فيه . . في حاجة إلى إله ، لا ارب له ، ولا هوى ، ولا لذة ، ولا ضعف في ذاته ــ سبحانه ــ ولا قصور . أما العقل البشري فبحسبه أن يواجه الأحوال المتطورة والظروف المتغيرة ، والحاجات المتجددة ثم يوائم بينها وبين الإنسان في لحظة عابرة وظرف موقوت . على أن يكون هناك الميزان الثابت الذي يفيء إليه ، فيدرك خطأه وصوابه ، وغيّه ورشاده ، وحقه وباطله ، من ذلك الميزان الثابت . . وبهذا وحده تستقيم الحياة ، ويطمئن الناس إلى أن الذي يسوسهم في النهاية إله !

إن الكتاب لم ينزل بالحق ليمحو الفوارق والاستعدادات والمواهب والطرائق والوسائل ، إنما جاء ليحتكم الناس إليه . . إليه وحده . . حين يختلفون . ومن شأن هذه الحقيقة أن تنشىء حقيقة أخرى تقوم على أساسها نظرة الإسلام التاريخية :

إن الإسلام يضع « الكتاب » الذي أنزله الله « بالحق » ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . . يضع هذا الكتاب قاعدة للحياة البشرية . ثم تمضي الحياة . فإما اتفقت مع هذه القاعدة ، وظلّت قائمة عليها ، فهذا هو الحق . وإما خرجت عنها وقامت على قواعد أخرى ، فهذا هو الباطل . . هذا هو الباطل ولو ارتضاه الناس جميعاً في فترة من فترات التاريخ . فالناس ليسوا هم الحَكَم

في الحق والباطل . وليس الذي يقرره الناس هو الحق ، وليس الذي يقرره الناس هو الدين . . إن نظرة الإسلام تقوم ابتداء على أساس أن فعل الناس لشيء ، وقولهم لشيء وإقامة حياتهم على شيء . . لا تحيل هذا الشيء حقاً إذا كان مخالفاً للكتاب ، ولا تجعله أصلاً من أصول الدين ، ولا تجعله التفسير الواقعي لهذا الدين ، ولا تبرره لأن أجيالاً متعاقبة قامت عليه . .

وهذه الحقيقة ذات أهمية كبرى في عزل أصول الدين عما يدخله عليها الناس . . وفي التاريخ الإسلامي مثلاً وقع انحراف ، وظل ينمو وينمو . . فلا يقال : إن هذا الانحراف متى وقع وقامت عليه حياة الناس فهو إذن الصورة الواقعية للإسلام . كلا . . إن الإسلام يظل بريئاً من هذا الواقع التاريخي . . ويظل هذا الذي وقع خطأ وانحرافاً لا يصلح حجة ولا سابقة ، ومن واجب من يريد استئناف حياة إسلامية أن يلغيه ويبطله ، وأن يعود إلى الكتاب الذي أنزله الله بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه .

ولقد جاء الكتاب . . ومع ذلك كان الهوى يغلب الناس من هنا ومن هناك . وكانت المطامع والرغائب والمخاوف والضلالات تبعد الناس عن قبول حكم الكتاب ، والرجوع إلى الحق الذي يردهم إليه .

٤ - « وحدة الرسل »

قال الله تعالى : « وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزّرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرنّ عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » . .

والإيمان برسل الله . كلهم دون تفرقة بينهم . فكلهم جاء من عند الله ؛ وكلهم جاء بدين الله ، وعدم الإيمان بواحد منهم كفر بهم جميعاً ، وكفر بالله الذي بعث بهم جميعاً . .

وليس هو مجرد الإيمان السلبي ، إنما هو العمل الإيجابي في نصرة هؤلاء الرسل وشدّ أزرهم فيما ندبهم الله له ، وفيما وقفوا حياتهم كلها لأدائه . . فالإيمان بدين الله من مقتضاه أن ينهض المؤمن لينصر ما آمن به ، وليقيمه في الأرض ، وليحققه في حياة الناس . فدين الله ليس مجرد تصور اعتقادي ، ولا مجرد شعائر تعبدية ، إنما هو منهج واقعي للحياة . ونظام محدد يصرف شؤون هذه الحياة . والمنهج والنظام في حاجة إلى نصرة ، وتعزيز ، وإلى جهد جهاد لتحقيقه ولحمايته بعد تحقيقه . . وإلاّ فما وفّى المؤمن بالميثاق . .

والإيمان برسل الله كلهم هو شرط الإيمان ، وعدم الإيمان بواحد من رسل الله هو كفر بهم جميعاً ؛ يقول الله سبحانه — « إن الذين يكفرون

بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله . ويقولون : نؤمن ببعض ونكفر ببعض . ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً . والذين آمنوا بالله ورسله ، ولم يفرقوا بين أحد منهم . أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً » . .

لقد كان اليهود يدّعون الإيمان بأنبيائهم ، وينكرون رسالة عيسى ورسالة محمد ، كما كان النصارى يقفون بإيمانهم عند عيسى – فضلاً عن تأليهه – وينكرون رسالة محمد كذلك .

وكان القرآن ينكر على هؤلاء وهؤلاء ، ويقرر التصور الإسلامي الشامل الكامل عن الإيمان بالله ورسوله بدون تفريق بين الله ورسوله وبدون التفريق كذلك بين الرسل جميعاً . وبهذا الشمول كان الإسلام هو « الدين » الذي لا يقبل الله من الناس غيره ، لأنه هو الذي يتفق مع وحدانية الله . ومقتضيات هذه الوحدانية .

إن التوحيد المطلق لله – سبحانه – يقتضي توحيد دينه الذي أرسل به الرسل للبشر ، وتوحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة للناس . . وكل كفر بوحدة الرسل أو وحدة الرسالة هو كفر بوحدانية الله في الحقيقة ، وسوء تصور لمقتضيات هذه الوحدانية . فدين الله للبشر ومنهجه للناس هو هو لا يتغير في أساسه كما أنه لا يتغير في مصدره .

لذلك عبّر السياق هنا عمن يريدون التفرقة بين الله ورسله (بأن يؤمنوا بالله ويكفروا بالرسل) ، وعمن يريدون التفرقة بين الرسل (بأن يؤمنوا ببعضهم ويكفروا ببعضهم) عبّر عن هؤلاء وهؤلاء بأنهم « الذين يكفرون بالله ورسله » وعدّ تفرقتهم بين الله ورسوله ، وتفرقتهم بين بعض رسله وبعض ، كفراً بالله وبرسله .

إن الإيمان وحدة لا تتجزأ . . الإيمان بالله إيمان بوحدانيته ـ سبحانه ـ ووحدانيته تقتضي وحدة الدين الذي ارتضاه للناس لتقوم حياتهم كلها ـ كوحدة ـ على أساسه .

وتقتضي وحدة الرسل الذين جاؤوا بهذا الدين من عنده ـ لا من عند أنفسهم ولا في معزل عن إرادته ووحيه ـ ووحدة الموقف تجاههم جميعاً . . ولا سبيل إلى تفكيك هذه الوحدة إلاّ بالكفر المطلق : وإن حسب أهله أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ! وكان جزاؤهم عند الله أن أعدّ لهم العذاب المهين . . أجمعين . . « أولئك هم الكافرون حقاً، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً » . . أما المسلمون فهم الذين يشتمل تصورهم الاعتقادي على الإيمان بالله ورسله جميعاً ، بلا تفرقة ، فكل الرسل عندهم موضع اعتقاد واحترام ، وكل الديانات السماوية عندهم حق ـ ما لم يقع فيها التحريف فلا تكون عندئذ من دين الله وان بقي جانب لم يُحرف . إذ أن الدين وحدة وهم يتصورون الأمر كما هو في حقيقته ـ إلهاً واحداً ، ارتضى للناس ديناً واحداً ووضع لحياتهم منهجاً واحداً وأرسل رسله إلى الناس بهذا الدين الواحد وهذا المنهج الواحد . وموكب الإيمان في حسهم موصول يعقده نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم من الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً ـ ونسبهم هم إلى هذا الموكب الموصول عريق وهم حملة هذه الأمانة الكبرى ، وهم ورثة هذا الخير الموصول على طول الطريق المبارك لا تفرقة ولا عزلة ولا انفصام . . وإليهم وحدهم انتهى ميراث الدين الحق وليس وراء ما عندهم إلاّ الباطل والضلال .

وهذا هو الإسلام الذي لا يقبل الله غيره من أحد . وهؤلاء هم المسلمون الذين يستحقون الأجر من الله على ما عملوا ، ويستحقون منه المغفرة والرحمة فيما قصّروا فيه : « أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً » .

والإسلام إنما يتشدد هذا التشدد في توحيد العقيدة في الله ورسوله ، لأن هذا التوحيد هو الأساس اللائق بتصور المؤمن له — سبحانه — كما أنه هو الأساس اللائق بوجود مُنظَّم ، غير متروك للتعدد . والتصادم . ولأنه هو العقيدة اللائقة بإنسان يرى وحدة الناموس في هذا الوجود أينما امتدّ بصره . ولأنه هو التصور الكفيل بضمّ المؤمنين جميعاً في موكب واحد ، يقف أمامه صفوف الكفر . وفي حزب واحد يقف أمام أحزاب الشيطان . . ولكن هذا الصف الواحد ليس هو صفّ أصحاب الاعتقادات المحرّفة — ولو كان كان لها أصل سماوي — إنما هو صف أصحاب الإيمان الصحيح والعقيدة التي لم يدخلها انحراف . .

ومن ثم كان الإسلام هو الدين . وكان المسلمون خير أمة أُخرجت للناس .. المسلمون المعتقدون عقيدة صحيحة ، العاملون بهذه العقيدة . لا كل من ولد في بيت مسلم، ولا كل من لاكَ لسانه كلمة الإسلام !

وفي ظل هذا البيان يبدو الذين يفرقون بين الله ورسوله ، ويفرقون بين بعض الرسل وبعض ، منقطعين عن موكب الإيمان ، مفرقين للوحدة التي جمعها الله ، منكرين للوحدانية التي يقوم عليها الإيمان بالله .

فالرسل هم موكب واحد يتراءى على طريق التاريخ البشري الموصول ، ورسالة واحدة بهدي واحد للإنذار والتبشير . موكب واحد يضم هذه الصفوة المختارة من البشر : نوح . وإبراهيم، وإسماعيل ، وإسحق ، ويعقوب ، والاسباط ، وعيسى ، وأيوب ، ويونس ، وهارون ، وسليمان ، وداود ، وموسى . . وغيرهم ممن قصَّهم الله على نبيه — صلى الله عليه وسلم — في القرآن ، وممن لم يقصصهم عليه . . موكب من شتى الأقوام والأجناس ، وشتى البقاع والأراضي ، في شتى الآونة والأزمان ، لا يفرقهم نسب ولا جنس ، ولا أرض ولا وطن . ولا زمن ولا بيئة : « إنا أوحينا إليك كما

أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً . ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك ، وكلّم الله موسى تكليماً . . رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . وكان الله عزيزاً حكيماً » .

كلهم آتٍ من ذلك المصدر الكريم . وكلهم يحمل ذلك النور الهادي . وكلهم يؤدي الإنذار والتبشير . وكلهم يحاول أن يأخذ بزمام القافلة البشرية إلى ذلك النور . . سواء منهم من جاء لعشيرة . ومن جاء لقوم . ومن جاء لمدينة . ومن جاء لقطر . . ثم من جاء للناس أجمعين : محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خاتم النبيين .

كلهم تلقى الوحي من الله . فما جاء بشيء من عنده . . أولئك الرسل — من قصّ الله على رسوله منهم ومن لم يقصص — اقتضت عدالة الله ورحمته أن يبعث بهم إلى عباده يبشرونهم بما أعده الله للمؤمنين الطائعين من نعيم ورضوان ، وينذرونهم ما أعده الله للكافرين العصاة من جحيم وغضب . . كل ذلك : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » . .

ولله الحجة البالغة في الأنفس والآفاق ، وقد أعطى الله البشر من العقل ما يتدبرون به دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق . ولكنه — سبحانه — رحمة منه بعباده ، وتقديراً لغلبة الشهوات على تلك الأداة العظيمة التي أعطاها لهم — أداة العقل — اقتضت رحمته وحكمته أن يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ، يُذكرونهم ويُبصرونهم ، ويحاولون استنقاذ فطرتهم وتحرير عقولهم من ركام الشهوات التي تحجب عنها ، أو تحجبها عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق .

٥ - « الرسل مصدر الهدى »

يقول الله سبحانه : « ووهبنا له إسحق ويعقوب — كلاً هدينا — ونوحاً هدينا من قبل — ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون .. وكذلك نجزي المحسنين . . وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين . وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضّلنا على العالمين . . ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم . . ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده . ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلْنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده . قل لا أسألكم عليه أجراً . إن هو إلاّ ذكرى للعالمين » .

وفي الآيات ذكر لسبعة عشر نبياً رسولاً — غير نوح وإبراهيم — وإشارة إلى آخرين « من آبائهم وذرياتهم واخوانهم » . . وذكر هذا الرهط على هذا النحو ، واستعراض هذا الموكب في هذه الصورة كله تمهيد للتقريرات التي تليه « ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لَحبِطَ عنهم ما كانوا يعملون » .

وهذا تقرير لينابيع الهدى في هذه الأرض . فهدى الله للبشر يتمثل فيما جاءت به الرسل . وينحصر المستيقن منه ، والذي يجب اتباعه ، في هذا المصدر الواحد ، الذي يقرر الله — سبحانه — أنه هو هدى الله ، وأنه هو الذي يهدي

إليه من يختار من عباده . . ولو أن هؤلاء العباد المهديين حادوا عن توحيد الله ، وتوحيد المصدر الذي يستمدون منه هداهم ،وأشركوا بالله في الاعتقاد أو العبادة أو التلقي ، فإن مصيرهم أن يحبط عنهم عملهم : أي أن يذهب ضياعاً ، ويهلك كما تهلك الدابة التي ترعى نبتاً مسموماً فتنتفخ ثم تموت . . وهذا هو الأصل اللغوي للحبوط !

« أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة . فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين » .

وهذا هو التقرير الثاني . . فقرر في الأول مصدر الهدى ، وقصره على هدى الله الذي جاءت به الرسل . وقرر في الثاني أن الرسل الذين ذكرهم والذين أشار إليهم ، هم الذين آتاهم الكتاب والحكمة والسلطان والنبوة — « والحكم » يجيء بمعنى الحكمة ، كما يجيء بمعنى السلطان كذلك — وكلا المعنيين محتمل في الآية . فهؤلاء الرسل أنزل الله على بعضهم الكتاب كالتوراة مع موسى والزبور مع داود . والإنجيل مع عيسى . وبعضهم آتاه الله الحكم كداود وسليمان . وكلهم أوتي السلطان على معنى أن ما معه من الدين هو حكم الله ، وأن الدين الذي جاؤوا به يحيل سلطان الله على النفوس وعلى الأمور .

فما أرسل الله الرسل إلا ليطاعوا ، وما أنزل الكتاب إلا ليحكم بين الناس بالقسط كما جاء في الآيات الأخرى . وكلهم أوتي الحكمة ، وأوتي النبوة ، وأولئك الذين وكّلهم الله بدينه ، يحملونه إلى الناس ويقومون عليه ويؤمنون به ويحفظونه . وإذا كفر بالكتاب والحكم والنبوة مشركو العرب هؤلاء فإن دين الله غني عنهم ، وهؤلاء الرهط الكرام والمؤمنون بهم هم حَسْبُ هذا الدين ! .

إنها حقيقة قديمة امتدت شجرتها ، وموكب موصول تماسكت حلقاته ،

ودعوة واحدة حملها رسول بعد رسول ، وآمن بها ويؤمن من يقسم الله له الهداية بما يعلمه من استحقاقه للهداية ! وهو تقرير يسكب الطمأنينة في قلب المؤمن ، وفي قلوب العصبة المسلمة أياً كان عددها . إن هذه العصبة ليست وحدها . ليست مقطوعة من شجرة . انها فرع منبثق من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وحلقة في موكب جليل موصول ، موصولة أسبابه بالله وهداه . . .

إن المؤمن الفرد في أي أرض وفي أي جيل قوي قوي ، وكبير كبير . انه من تلك الشجرة المتينة السامقة الضاربة الجذور في أعماق الفطرة البشرية ، وفي أعماق التاريخ الإنساني ، وعضو من ذلك الموكب الكريم الموصول بالله وهداه منذ أقدم العصور . « أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده . قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلاّ ذكرى للعالمين » .

وهو التقربر الثالث . فهؤلاء الرهط الكرام الذين يقودون موكب الإيمان هم الذين هداهم الله ، وهُداهم الذي جاءهم من الله فيه القدوة لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومن آمن به . فهذا الهدى وحده هو الذي يسير عليه ، وهذا الهدى وحده هو الذي يحتكم إليه ، وهذا الهدى وحده هو الذي يدعو إليه ويبشر به . . قائلاً لمن يدعوهم « لا أسألكم عليه أجراً » . « إن هو إلاّ ذكرى للعالمين » ..للعالمين لا يختص به قوم ولا جنس ولا قريب ولا بعيد . . إنه هدى الله لتذكير البشر كافة ، ومن ثم فلا أجر عليه يتقاضاه وإنما أجره على الله .

ثم يمضي السياق يندد بمنكري النبوة والرسالات ، ويصمهم بأنهم لا يقدرون الله حقّ قدره ، ولا يعرفون حكمة الله ورحمته وعدله . ويقرر أن الرسالة الأخيرة إنما تجري على سنة الرسالات قبلها ، وان الكتاب الأخير مُصدق لما بين يديه من الكتب ، مما يتفق مع ظل الموكب الذي سبق عرضه

ويتناسق : « وما قدروا الله حقّ قدره . إذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء . قل : من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس – تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً – وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ؟ قل : الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون . وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ، ولتنذر أم القرى ومن حولها ، والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون » .

ولقد كان المشركون في معرض العناد واللجاج يقولون : إن الله لم يرسل رسولاً من البشر ، ولم ينزل كتاباً يوحي به إلى بشر ، بينما كان إلى جوارهم في الجزيرة أهل الكتاب من اليهود ولم يكونوا ينكرون عليهم أنهم أهل كتاب ، ولا أن الله أنزل التوراة على موسى –عليه السلام– إنما هم كانوا يقولون ذلك القول في زحمة العناد واللجاج ، ليكذبوا رسالة محمد – صلى الله عليه وسلم – لذلك يواجههم القرآن الكريم بالتنديد بقولهم : ما أنزل الله على بشر من شيء ، كما يواجههم بالكتاب الذي جاء به موسى من قبل : « وما قدروا الله حقّ قدره . إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » .

وهذا القول الذي كان يقوله مشركو مكة في جاهليتهم ، يقوله أمثالهم في كل زمان ، ومنهم الذين يقولونه الآن ، ممن يزعمون أن الأديان من صنع البشر ، وأنها تطورت وترقت بتطور البشر وترقيهم . لا يفرقون في هذا بين ديانات هي من تصورات البشر أنفسهم كالوثنيات كلها قديماً وحديثاً ، ترتقي وتنحط بارتقاء أصحابها وانحطاطهم ، ولكنها تظل خارج دين الله كله . وبين ديانات جاء بها الرسل من عند الله ، وهي ثابتة على أصولها الأولى ، جاء بها كل رسول فتقبلتها فئة ، وعتت عنها فئة ، ثم وقع الانحراف عنها والتحريف فيها فعاد الناس إلى جاهليتهم في انتظار رسول جديد بذات الدين الواحد الموصول .

وهذا القول يقوله – قديماً أو حديثاً – من لا يقدر الله حق قدره ،

ومن لا يعرف كرم الله ورحمته وعدله : إنهم يقولون : إن الله لا يرسل من البشر رسولاً ولو شاء لأنزل ملائكة ! كما كان العرب يقولون . أو يقولون : إن خالق هذا الكون الهائل لا يمكن أن يعنى بالانسان « الضئيل » في هذه الذرة الفلكية التي اسمها الأرض ! بحيث يرسل له الرسل ، وينزل على الرسل الكتاب لهداية هذا المخلوق الصغير في هذا الكوكب الصغير وذلك كما يقول بعض فلاسفة القديم والحديث ، أو يقولون : إنه ليس هناك من إله ولا من وحي ولا من رسل . . إنما هي أوهام الناس أو خداع بعضهم لبعض باسم الدين ! كما يقول الماديون الملحدون ! !

وكله جهل بقدر الله — سبحانه — فالله الكريم العظيم العادل الرحيم ، العليم الحكيم — لا يدع هذا الكائن الإنساني وحده ، وهو خلَقه ، وهو يعلم سره وجهره ، وطاقاته وقواه ، ونقصه وضعفه ، وحاجته إلى الموازين القسط التي يرجع إليها بتصوراته وأفكاره وأقواله وأعماله ، وأوضاعه ونظامه ليرى إن كانت صواباً وصلاحاً ، أو كانت خطأً وفساداً . ويعلم — سبحانه — أن العقل البشري الذي أعطاه له ، يتعرض لضغط كثير من شهواته ونزواته ومطامعه ورغباته . فضلاً على أنه موكل بطاقات الأرض التي له عليها سلطان بسبب تسخيرها له من الله ، وليس موكلاً بتصور الوجود تصوراً مطلقاً ، ولا بصياغة الأسس الثابتة للحياة ، فهذا مجال العقيدة التي تأتي له من الله فتنشىء له تصوراً سليماً للوجود والحياة . . ومن ثم لا يكله الله إلى هذا العقل وحده ، ولا يكله كذلك إلى ما أودع فطرته من معرفة لدنية بربها الحق . . فهذه الفطرة قد تفسد كذلك بسبب ما يقع عليها من ضغوط داخلية وخارجية بسبب الاغواء والاستهواء الذي يقوم به شياطين الجن والانس بكل ما يملكون من أجهزة التوجيه والتأثير . . إنما يكل الله الناس إلى وحيه ورسله وهداه وكتبه ليرد فطرتهم إلى استقامتها وصفائها ، وليرد عقولهم إلى صحتها وسلامتها ، وليجلو عنهم غاشية التضليل من داخل

أنفسهم ومن خارجها . . وهذا هو الذي يليق بكرم الله وفضله ورحمته وعدله ، وحكمته وعلمه . فما كان ليخلق البشر ثم يتركهم سُدى . . ثم يحاسبهم يـ م القيامة ولم يبعث فيهم رسولاً . . « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً » .

٦ – وظيفة الرسول ﷺ :

إن هم إلاّ مبلغون ومبشرون ومنذرون ثم يكون بعد ذلك من أمر الناس ما يكون وفق ما يتخذونه لأنفسهم من موا قف يترتب عليها الجزاء الأخير . . « وما نرسل المرسلين إلاّ مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كذبوا باياتنا يمسّهم العذاب بما كانوا يفسقون »

لقد كان هذا الدين يـُعد البشرية للرشد العقلي ، ويؤهلها لاستخدام هذه الأداة العظيمة التي وهبها الله للإنسان، استخدامه كاملاً في إدراك الحق الذي تنبث آياته في صفحات الوجود وفي أطوار الحياة وفي أسرار الخلق . والذي جاء القرآن لكشفه وتجليته لإدراك البشرية إليه .

وكان هذا كله يقتضي الانتقال بالبشرية من عهد الخوارق الحسية التي تلوي الأعناق وتجبر المنكرين على الإذعان ، أمام القهر بالخارقة المادية البادية للعيـــان ! إلى توجيه الإدراك البشري للملاحظـــة بدائع الصنع الإلهي في الوجود كله . وهي في ذاتها خوارق معجزة ولكنها خوارق دائمة يقوم عليها كيان الوجود ويتألف منها قوامه . وإلى مخاطبة هذا الإدراك بكتاب من عند الله باهر معجز في تعبيره ، ومعجز في منهجه . ومعجز في الكيان الاجتماعي العضوي الحركي الذي يرمي إلى إنشائه على غير مثال . والذي لم يلحق به من بعده أي مثال ! وقد اقتضى هذا الأمر تربية طويلة وتوجيهاً طويلاً حتى يألف الإدراك البشري هذا اللون من النقلة . وهذا المدى من الرقي حتى يتجه

الإنسان إلى قراءة سفر الوجود بإدراكه البشري في ظل التوجيه الرباني والضبط القرآني والتربية النبوية . قراءة هذا السفر قراءة غيبية واقعية إيجابية في آن واحد . بعيداً عن منهج التصورات الذهنية التجريدية التي كانت سائدة في قسم من الفلسفة الإغريقية واللاهوت المسيحي ، وعن منهج التصورات الحسية المادية التي كانت سائدة في قسم من تلك الفلسفة وفي بعض الفلسفة الهندية والمصرية والبوذية والمجوسية ، كذلك مع الخروج من الحسية الساذجة التي كانت سائدة في العقائد الجاهلية العربية .

وجانب من تلك التربية وهذا التوجيه يتمثل في بيان وظيفة الرسول وحقيقة دوره في الرسالة على النحو الذي تعرضه هاتان الآيتان كما ستعرضه الموجة التالية . .

فالرسول بشر يرسله الله ليبشّر ويُنذر . وهنا تنتهي وظيفته وتبدأ استجابة البشر ويمضي قدر الله ومشيئته من خلال هذه الاستجابة . وينتهي الأمر بالجزاء الإلهي وفق هذه الاستجابة . فمن آمن وعمل صالحاً يتمثل فيه الإيمان فلا خوف عليه ممّا سيأتي ، ولا هو يحزن على ما أسلف ، .فهناك المغفرة على ما أسلف . والثواب على ما أصلح . ومن كذّب بآيات الله التي جاءه بها الرسول ، والتي لفته إليها في صفحات هذا الوجود يمسّهم العذاب بسبب كفرهم ، الذي يعبر عنه هنا بقوله : « بما كانوا يفسقون » حيث يُعبر القرآن غالباً عن الشرك والكفر بالظلم والفسق في معظم المواضع .

تصور واضح بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض . وبيان محكم عن الرسول ووظيفته ، وحدود عمله في هذا الدين . تصور يفرد الله — سبحانه — بالألوهية وخصائصها . ويرد إلى مشيئة الله وقدره الأمر كله . ويجعل للإنسان من خلال ذلك حرية اتجاهه وتبعة هذا الاتجاه . ويبين الله مصائر العصاة بياناً حاسماً ، وينفي كل الأساطير والتصورات الغامضة عن طبيعة الرسول وعمله

مما كان سائداً في الجاهليات . . وبذلك ينقل البشرية إلى عهد الرشد العقلي دون أن يضرب بها في تيه الفلسفات الذهنية والجدل اللاهوتي ، الذي استنفذ طاقة الإدراك البشري أجيالاً بعد أجيال .

إن النفس البشرية – ولو كانت نفس رسول – تتمنّى وترغب أن تستعلي الدعوة وان يذعن لها المكابرون سريعاً . فتتطلع إلى ظهور الآية الخارقة التي تقهر كل مكابرة . . « وما كان لرسول أن يأتي بآية إلاّ بإذن الله » . . ولكن الله يريد أن يلوذ عباده المختارون بالصبر المطلق ويروضوا أنفسهم عليه ، فيبين لهم أن ليس لهم من الأمر شيء ، وأن وظيفتهم تنتهي عند حد البلاغ ، وأن مجيء الآية هو الذي يتولاه حينما يريد . لتطمئن قلوبهم وتهدأ وتستقر ، ويرضوا بكل ما يتم على أيديهم ، ويدعوا الأمر كله بعد ذلك لله .

ويريد كذلك أن يدرك الناس طبيعة الألوهية وطبيعة النبوة ، ويعرفوا أن الرسل بشر منهم اختارهم الله وحدّد لهم وظيفتهم . وما هم بقادرين ولا محاولين أن يتجاوزوا حدود هذه الوظيفة .

الباب الثاني

منهج التوحيد

١ - «أمر خطير»

يقول الله سبحانه : « وما أكثر الناس ولو حرصتَ بمؤمنين » ويقول عزّ وجل « وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون » . .

وحتى الذين يؤمنون، كثير منهم يتدسس الشرك — في صورة من صوره — إلى قلوبهم . فالإيمان الخالص يحتاج إلى يقظة دائمة تنقي القلب أولاً بأول ، من كل خالجة شيطانية، وكل اعتبار من اعتبارات هذه الأرض في كل حركة وكل تصرف ، لتكون كلها لله ، خالصة له دون سواه »[1] .

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» رواه مسلم .

وعنه رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي بهفعرفه نعمته فعرفها ، قال: فما عملت فيها ؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال قارىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأتي به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار » رواه مسلم .

والإيمان الخالص يحتاج إلى حسم كامل في قضية السلطان على القلب ، وعلى التصرف والسلوك ، فلا تبقى في القلب دينونة إلاّ لله سبحانه ، ولا تبقى في الحياة دينونة إلاّ للمولى الذي لا رادّ لما يريد .

والله سبحانه يقول : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون » . . مشركون قيمة من قيم هذه الأرض في تقريرهم للأحداث والأشياء والأشخاص. مشركون سبباً من الأسباب مع قدرة الله في النفع أو الضر سواء . . مشركون في الدينونة لقوة غير قوة الله من حاكم أو موجه لا يستمد من شرع الله دون سواه . . مشركون في رجاء يتعلق بغير الله من عباده على الإطلاق . . مشركون في تضحية يشوبها التطلع إلى تقدير الناس . . مشركون في جهاد لتحقيق نفع أو دفع ضر ولكن لغير الله . . مشركون في عبادة يلحظ فيها وجه مع الله . . لذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل » . . وفي الأحاديث نماذج من هذا الشرك الخفي :

روى الترمذي ــ وحسّنه ــ من رواية عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله غليه وسلم قال : « من حلف بغير الله فقد أشرك » .

وروى أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرقى والتمائم شرك » .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من علّق تميمة فقد أشرك » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه بإسناده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه » .

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد بن أبي فضالة قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي منادٍ : من كان أشرك في عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن محمد بن لبيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : « الرياء . يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جاء الناس بأعمالهم . اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء » ؟ . . فهذا هو الشرك الخفي الذي يحتاج إلى اليقظة الدائمة للتحرز منه ليخلص الإيمان .

وهناك الشرك الواضح الظاهر ، وهو الدينونة لغير الله في شأن من شؤون الحياة . الدينونة في شرع يتحاكم إليه – وهو محض في الشرك لا يجادل فيه . . والدينونة في تقليد من التقاليد كاتخاذ أعياد ومواسم يشرعها الناس ولم يشرعها الله . والدينونة في زي من الأزياء يخالف ما أمر الله به من الستر ، ويكشف أو يجرد العورات التي نصت شريعة الله أن تستر .

والأمر في هذه الشؤون يتجاوز منطقة الاثم والذنب بالمخالفة حين يكون طاعة وخضوعاً ودينونة لعرف اجتماعي سائد من صنع العبيد ، وتركاً للأمر الصادر من ربّ العبيد . . إنه عندئذ لا يكون ذنباً ولكن يكون شركاً [1]

---

(١) ولخطورة أمر الشرك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتعوذ منه فيقول : « اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً أعلمه وأستغفرك لما لا أعلمه » والشرك ظلم لا يقع في دائرة المغفرة التي وسعت كل ذنب يقول سبحانه : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » . ←

لأنه يدل على الدينونة لغير الله فيما يخالف أمر الله ، وهو من هذه الناحية أمر خطير . .

إن المسلم يرفض – بحكم إيمانه وعلمه بأنما أنزل على محمد هو الحق – كل منهج للحياة غير منهج الله ، وكل مذهب اجتماعي أو اقتصادي ، وكل وضع كذلك سياسي ، غير المنهج الوحيد، والمذهب الوحيد ، والشرع الوحيد الذي سنّه الله وارتضاه للصالحين من عباده . .

ومجرد الاعتراف بشرعية منهج أو وضع أو حكم من صنع غير الله هو بذاته خروج من دائرة الإسلام لله ، فالإسلام لله هو توحيد الدينونة له دون سواه .

← وفي الحديث الآخر : « لا يقولن أحدكم ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن ليقل ما شاء الله ثم شاء فلان » .

وعن ابن عباس قال : قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : « ما شاء الله وشئت. فقال : « أجعلتني لله نداً ؟ قل : ما شاء الله وحده » . « رواه ابن مردويه وأخرجه النسائي وابن ماجه».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اجتنبوا السبع الموبقات » قالوا : وما هن يا رسول الله؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » (متفق عليه) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اليسير من الرياء شرك» رواه الحاكم وابن ماجه والبيهقي ، وقال الحاكم صحيح ولا علة له .

عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال : بينما أنا عند رسول الله صلى الله عله وسلم، رأيت بوجهه أمراً ساءني فقلت بأبي وأمي يا رسول الله ، ما الذي أرى بوجهك . قال : أمراً أتخوفه على أمتي : الشرك وشهوة خفية . قلت : وتشرك أمتك من بعدك ؟ قال: يا شداد إنهم لا يعبدون شمساً ، ولا وثناً ولا حجراً ، ولكن يراؤون الناس بأعمالهم. قلت يا رسول الله : الرياء شرك هو ؟ قال : نعم . قلت فما الشهوة الخفية ؟ قال: يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهوات الدنيا فيفطر » .

« رواه أحمد والحاكم .وقال الحاكم صحيح الاسناد واللفظ له»

قال الإمام أحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة : حدثنا قدامة ، حدثنا وكيع ، حدثنا أبو جعفر الرازي عن ربيع بن أنس عن أبي العالية : كما لا ينفع مع الشرك عمل ، فنزلت « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، ولا تبطلوا أعمالكم ، فخافوا أن يُبطل الذنب العمل » .

وروي من طريق عبد الله بن المبارك عن ابن عمر رضي الله عنهما . قال : « كنا معشر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلاّ مقبول ، حتى نزلت « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم » . فقلنا : ما هذا الذي يُبطل أعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الواجبات والفواحش حتى نزل قوله تعالى « إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك . فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش ونرجو لمن لم يصبها » .

٢ - « مصدر التلقي »

« يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ؟ ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم » .

ما كان شيء يفزع المؤمن – حينذاك – ما كان يفزعه أن يرى نفسه منتكساً إلى الكفر بعد الإيمان ، وراجعاً إلى النار بعد نجاته منها إلى الجنة ، وهذا شأن المسلم الحق في كل زمان . ومن ثم يكون هذا التحذير بهذه الصورة سوطاً يلهب الضمير ، ويوقظه بشدة لصوت النذير . يا له من منكر أن يكفر الذين آمنوا بعد إيمانهم ، وآيات الله تتلى عليهم ، ودواعي الإيمان حاضرة ، والدعوة إلى الإيمان قائمة ، ومفرق الطريق بين الكفر والإيمان مسلط عليه هذا النور .

أجل . . إنها لكبيرة أن يكفر المؤمن في ظل هذه الظروف المعينة على الإيمان ، وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استوفى أجله ، واختار الرفيق الأعلى ، فإن آيات الله باقية ، وهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم باق . ونحن اليوم مخاطبون بهذا القرآن كما خوطب به الأولون ، وطريق العصمة بين ، ولواء العصمة مرفوع « ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم » . أجل . . إنه الاعتصام بالله يعصم ، والله سبحانه باق ، وهو – سبحانه – الحي القيوم . ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم – يتشدد مع أصحابه – رضوان الله عليهم – في أمر التلقي في شأن العقيدة والمنهج ،

بقدر ما كان يفسح لهم في الرأي والتجربة في شؤون الحياة العملية التي لا علاقة لها بالتصور الاعتقادي ولا بالنظام الاجتماعي ، ولا بالارتباطات الخاصة بتنظيم حياة الإنسان . وفرق بين هذا وذلك بيّن . والإسلام الذي جاء ليقود الحياة بمنهج الله ، هو الإسلام الذي وجّه العقل للمعرفة والانتفاع بكل إبداع مادي في نطاق منهجه للحياة .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا سفيان ، عن جابر ، عن الشعبي ، عن عبد الله بن ثابت ، قال : جاء عمر إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : يا رسول الله إني أمرت بأخ يهودي من بني قريظة فكَتب لي جوامع من التوراة ، ألا أعرضها عليك ؟ قال : فتغير وجه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال عبدالله بن ثابت: قلت له: ألا ترى ما وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً . قال : فسري عن النبي – صلى الله عليه وسلم – وقال : « والذي نفسي بيده . لو أصبح موسى – عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم ، إنكم حظي من الأمم ، وأنا حظكم من النبيين » .

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا حماد عن الشعبي عن جابر قال: قال: رسول الله – صلى الله عليه وسلم – « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، وإنكم إمّا أن تصدقوا بباطل ، وإما أن تكذبوا بحق ، وإنه والله لو كان موسى حيّاً بين أظهركم ما حلّ له إلاّ أن يتبعني » وفي بعض الأحاديث . . « لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلاّ اتباعي » .

هؤلاء هم أهل الكتاب، وهذا هو هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في التلقي عنهم في أي أمر يختص بالعقيدة والتصور، أو بالشريعة والمنهج، ولا ضير – وفق روح الإسلام وتوجيهه – من الانتفاع بجهود البشر كلهم في غير هذا من العلوم البحتة ، علماً وتطبيقاً ، مع ربطها بالمنهج الإيماني : من ناحية الشعور

بها ، وكونها من تسخير الله للإنسان ، ومن ناحية توجيهها والانتفاع بها في خير البشرية ، وتوفير الأمن لها والرخاء ، وشكر الله على نعمة المعرفة ونعمة تسخير القوى والطاقات الكونية ، شكره بالعبادة ، وشكره بتوجيه هذه المعرفة وهذا التسخير لخير البشرية . فأما التلقي عنهم في التصور الإيماني ، وفي تفسير الوجود ، وغاية الوجود الإنساني ، وفي منهج الحياة وأنظمتها وشرائعها ، وفي منهج الأخلاق والسلوك أيضاً . أما التلقي في شيء من هذا كله ، فهو الذي تغيّر وجه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لأيسر شيء منه ، وهو الذي حذّر الله الأمة المسلمة عاقبته وهي الكفر الصراح .

هذا هو توجيه الله سبحانه ، وهذا هو هدي رسوله — صلى الله عليه وسلم — فأما نحن الذين نزعم أننا مسلمون ، فأرانا نتلقى في صميم فهمنا لقرآننا وحديث نبينا محمد — صلى الله عليه وسلم — عن المستشرقين ، وتلامذة المستشرقين ! أرانا نتلقى فلسفتنا وتصوراتنا للوجود والحياة من هؤلاء وهؤلاء ، ومن الفلاسفة والمفكرين : الإغريق والرومان والأوربيين والأمريكان ! .

وأرانا نتلقى نظام حياتنا وشرائعنا وقوانيننا من تلك المصادر المدخولة ، أرانا نتلقى قواعد سلوكنا وآدابنا وأخلاقنا من ذلك المستنقع الآسن ، الذي انتهت إليه الحضارة المادية المجردة من روح الدين .. أي دين .. ثم نزعم — والله — أننا مسلمون ! وهو زعم إثمه أثقل من إثم الكفر الصريح . فنحن نشهد على الإسلام بالفشل والمسخ ، حيث لا يشهد عليه هذه الشهادة الآثمة من لا يزعمون — مثلنا — أنهم مسلمون !

إن الإسلام منهج ، وهو منهج ذو خصائص متميزة من ناحية التصور الاعتقادي ، ومن ناحية الشريعة المنظمة لارتباطات الحياة كلها ، ومن ناحية القواعد الأخلاقية التي تقوم عليها هذه الارتباطات ، ولا تفارقها ، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ، وهو منهج جاء لقيادة البشرية كلها ،

فلا بد أن تكون هناك جماعة من الناس تحمل هذا المنهج لتقود به البشرية. ومما يتناقض مع طبيعة القيادة أن تتلقى هذه الجماعة التوجيهات من غير منهجها الذاتي .

ولخير هذه البشرية جاء هذا المنهج يوم جاء ، ولخير هذه البشرية يدعو الدعاة لتحكيم هذا المنهج اليوم وغداً ، بل الأمر اليوم ألزم ، والبشرية بمجموعها تعاني من النظم والمناهج التي انتهت إليها ما تعاني . وليس هناك منقذ إلاّ المنهج الإلهي ، الذي يجب أن يحتفظ بكل خصائصه كي يؤدي دوره للبشرية وينقذها مرة أخرى .

لقد أحرزت البشرية انتصارات شتى في جهودها لتسخير القوى الكونية ، وحققت في عالم الصناعة والطب ما يشبه الخوارق بالنسبة للماضي وما تزال في طريقها إلى انتصارات جديدة . ولكن ما أثر هذا كله في حياتها ؟ ما أثره في حياتها النفسية ؟ هل وجدت السعادة ؟ هل وجدت الطمأنينة ؟ هل وجدت السلام ؟ كلا ! ، لقد وجدت الشقاء والقلق والخوف ، والأمراض العصبية والنفسية ، والشذوذ والجريمة على أوسع نطاق ! . إنها لم تتقدم كذلك في تصور غاية الوجود الإنساني وأهداف الحياة الإنسانية . وحين تقاس غاية الوجود الإنساني وأهداف الحياة الإنسانية في ذهن الرجل المتحضر المعاصر ، إلى التصور الإسلامي في هذا الجانب ، تبدو هذه الحضارة في غاية القزامة ، بل تبدو لعنة تحط من تصور الإنسان لنفسه ، ومقامه في هذا الوجود ، وتسفل به ، وتصغر من اهتمامه وأشواقه ! والخواء يأكل قلب البشرية المكدود ، والحيرة تهد روحها المتعبة . إنها لا تجد الله ، لقد أبعدتها عنه ملابسات نكدة ، والعلم الذي كان من شأنه – لو سار تحت منهج الله – أن يجعل من كل انتصار للبشرية في ميدانه خطوة تقربها من الله ، هو ذاته الذي تبعد به البشرية أشواط بسبب انطماس روحها ونكستها ، إنها لا تجد النور الذي يكشف لها غاية

وجودها الحقيقية ، فتنطلق إليها مستعينة بهذا العلم الذي منحه الله لها ووهبها الاستعداد له . ولا تجد المنهج الذي ينسق بين حركتها وحركة الكون ، وفطرتها وفطرة الكون ، وقانونها وناموس الكون ، ولا تجد النظام الذي ينسق بين طاقاتها وقواها ، وآخرتها ودنياها ، وأفرادها وجماعاتها ، وواجباتها وحقوقها تنسيقاً طبيعياً شاملاً مريحاً .

وهذه البشرية هي التي يعمل أناس منها على حرمانها من منهج الله الهادي ، وهم الذين يسمّون التطلع إلى هذا المنهج « رجعية » ، ويحسبونه مجرد حنين إلى فترة ذاهبة من فترات التاريخ . وهم بجهالتهم هذه أو بسوء نيتهم يحرمون البشرية التطلع إلى المنهج الوحيد الذي يمكن أن يقود خطاها إلى السلام والطمأنينة كما يقود خطاها إلى النمو والرقي .

ونحن الذين نؤمن بهذا المنهج نعرف إلى ماذا ندعو ، إننا نرى واقع البشرية النكر ، ونشم رائحة المستنقع الآسن الذي تتمرغ فيه ، ونرى . . نرى هنالك على الأفق الصاعد راية النجاح تلوح للمكدودين في هجير الصحراء المحرق ، والمرتقى الوضيء النظيف يلوح للغارقين في المستنقع ، ونرى أن قيادة البشرية إن لم ترد إلى هذا المنهج فهي في طريقها إلى الارتكاس الشائن لكل تاريخ الإنسان ، ولكل معنى من معاني الإنسان !

وأولى الخطوات في هذا الطريق أن يتميز هذا المنهج ويتفرد ، ولا يتلقى أصحابه التوجيه من الجاهلية الطامة من حولهم ، كيما يظل المنهج نظيفاً سليماً ، إلى أن يأذن الله بقيادته للبشرية مرة أخرى . والله أرحم بعباده أن يدعهم لأعداء البشر الداعين إلى الجاهلية من هنا وهناك ! وهذا ما أراد الله سبحانه أن يلقّنه للجماعة المسلمة الأولى في كتابه الكريم ، وما حرص رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يعلمها إياه في تعليمه القويم .

إن قضية الألوهية لم تكن محل إنكار جدّي من المشركين ، فقد كانوا

يعترفون بأن الله — سبحانه — هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر المتصرف القادر على كل شيء ، ولكن هذا الاعتراف لم تكن تتبعه مقتضياته . فلقد كان من مقتضى هذا الاعتراف بألوهية الله على هذا المستوى أن تكون الربوبية له وحده في حياتهم . فالعبادة هي العبودية وهي الدينونة ، وهي الاتباع والطاعة مع إفراد الله — سبحانه — بهذه الخصائص كلها ، لأنها من مقتضيات الاعتراف بالألوهية « ذلكم الله ربكم فاعبدوه » . .

وفي الجاهليات كلها ينحسر مجال الألوهية ، ويظن الناس أن الاعتراف بالألوهية في ذاته هو الإيمان ، وأنه متى اعترف الناس بأن الله إلههم فقد بلغوا الغاية ، دون أن يرتبوا على الألوهية مقتضاها وهي الربوبية . . أي الدينونة لله وحده ليكون هو ربهم ! الذي لا ربّ غيره ، وحاكمهم الذي لا سلطان لأحد إلاّ بسلطانه .

كذلك ينحسر معنى العبادة في الجاهلية ، حتى يقتصر على مجرد تقديم الشعائر ، ويحسب الناس أنهم متى قدموا الشعائر لله وحده ، فقد عبدوا الله وحده . . بينما كلمة العبادة ابتداء مشتقة من عَبَدَ ، و « عَبَدَ » تفيد ابتداء « دان وخضع » . وما الشعائر إلاّ مظهر واحد من مظاهر الدينونة والخضوع لا يستغرق كل حقيقة الدينونة ولا كل مظاهرها .

فالدين الذي أنزله الله هو الإسلام . والإسلام : التحاكم إلى كتاب الله ، وإطاعته واتباعه . فمن لم يفعل فليس له دين وليس مسلماً وان ادعى الإسلام ، وادعى أنه على دين الله . فدين الله يحدده ويقرره ويفسره الله ، وليس خاضعاً في تعريفه وتحديده لأهواء البشر ، كل يحدّده أو يعرّفه كما يشاء .

٣ - « معنى الايمان بالله »

إن الإيمان بالله معناه إفراده – سبحانه – بالألوهية والربوبية والعبادة ، ومن ثم افراده بالسيادة على ضمير الإنسان وسلوكه في كل أمر من أمور الحياة .

ليس هناك شركاء – إذن – في الألوهيةّ أو الربوبية . فلا شريك له في الخلق ، ولا شريك له في تصريف الأمور ، ولا يتدخل في تصريفه للكون والحياة أحد ، ولا يرزق الناس معه أحد ، ولا يضر أو ينفع غيره أحد ، ولا يتم شيء في هذا الوجود صغيراً كان أو كبيراً إلاّ ما يأذن به ويرضاه .

وليس هناك شركاء في العبادة يتجه إليهم الناس ، لا عبادة الشعائر ، ولا عبادة الخضوع والدينونة . فلا عبادة إلاّ لله ، ولا طاعة إلاّ لله ولمن يعمل بأمره وشرعه فيتلقى سلطانه من هذا المصدر الذي لا سلطان إلاّ منه . فالسيادة على ضمائر الناس وعلى سلوكهم لله وحده بحكم هذا الإيمان ، ومن ثم فالتشريع وقواعد الخلق ، ونظم الاجتماع والاقتصاد لا تتلقى إلاّ من صاحب السيادة الواحد الأحد . . من الله . . فهذا هو معنى الإيمان بالله . ومن ثم ينطلق الإنسان حراً إزاء كل من عدا الله ، طليقاً من كل قيد إلاّ من الحدود التي شرعها الله ، عزيزاً على كل أحد إلاّ بسلطان من الله .

ليس الإيمان بالله هو كل اعتقاد في الله . . إنما هو صورة واحدة من

صور الاعتقاد فيه ـ سبحانه ـ صورة التوحيد المطلق الناصع القاطع : توحيد الألوهية التي يتوجه إليها البشر ، كما تتوجه إليها سائر الخلائق في الكون بالعبودية، وتوحيد القوامة على البشر وعلى الكون كله .

فلا يقوم شيء إلاّ بالله تعالى ، ولا يقوم على الخلائق إلاّ الله تعالى ، ومن ثم يكون الدين والإيمان الذي يقبله الله من عباده هو الإسلام . وهو في هذه الحالة : الاستسلام المطلق للقوامة الإلهية والتلقي من هذا المصدر وحده في كل شأن من شؤون الحياة ، والتحاكم إلى كتاب الله المنزل من هذا المصدر .

إن الإيمان بالله هو نقطة التحول في حياة البشرية من العبودية لشتى القوى ، وشتى الأشياء ، وشتى الاعتبارات إلى عبودية واحدة لله تتحرر بها النفس من كل عبودية وترتفع بها إلى مقام المساواة مع سائر النفوس في الصف الواحد أمام المعبود الواحد ، ثم ترتفع بها فوق كل شيء وكل اعتبار ، وهي نقطة التحول كذلك من الفوضى إلى النظام ، ومن التيه إلى القصد ، ومن التفكك إلى وحدة الاتجاه . فهذه البشرية دون إيمان بالله الواحد لا تعرف لها قصداً مستقيماً ، ولا غاية مطردة ، ولا تعرف لها نقطة ارتكاز تتجمع حولها في جد وفي مساواة ، كما يتجمع الوجود كله ، واضح النسب والارتباطات والأهداف والعلاقات . .

إنها الوحدانية الحاسمة التي لا مجال فيها لأي انحراف أو لبس مما طرأ على الديانات السابقة بعد الرسل . هذه الوحدانية الحاسمة الناصعة « الله لا إله إلاّ هو » . . هي القاعدة التي يقوم عليها التصور الإسلامي ، والتي ينبثق منها منهج الإسلام للحياة كلها . فعن هذا التصور ينشأ الاتجاه إلى الله ، ولا يلتزم الإنسان بطاعة إلاّ طاعة الله، وما يأمره به من الطاعات ، وعن هذا التصور تنشأ قاعدة : الحاكمية لله وحده ، فيكون الله وحده هو المشرع للعباد ، ويجيء تشريع البشر مستمداً من شريعة الله . وعن هذا التصور تنشأ قاعدة

استمداد القيم كلها من الله ، فلا اعتبار لقيمة من قيم الحياة كلها إذا لم تقبل في ميزان الله ، ولا شرعية لوضع أو تقليد أو تنظيم يخالف عن منهج الله ». وهكذا إلى آخر ما ينبثق عن معنى الوحدانية من مشاعر في الضمير أو مناهج لحياة الناس في الأرض على السواء.

وهذا التوحيد الخالص الناصع « الله لا إله إلاّ هو الحي القيوم » . . هذا التوحيد هو مفرق الطريق بين عقيدة المسلم وسائر العقائد ، سواء منها عقائد الملحدين والمشركين ، وعقائد أهل الكتاب المنحرفين : يهوداً أو نصارى على اختلاف مللهم ونحلهم جميعاً . كما أنه هو مفرق الطريق بين حياة المسلم وحياة سائر أهل العقائد في الأرض . . فالعقيدة هنا تحدد منهج الحياة ونظامها تحديداً كاملاً دقيقاً .

إن الوحدانية هي مفرق الطريق في التصور والاعتقاد . . كذلك كانت مفرق الطريق في الحياة والسلوك . . إن الذي يمتلىء شعوره بوجود الله الواحد الذي لا إله إلا هو الحي الواحد الذي لا حيّ غيره القيوم الواحد الذي به تقوم كل حياة أخرى وكل وجود ، كما أنه هو الذي يقوم على كل حي وكل موجود . . إن الذي يمتلىء شعوره بوجود الله الواحد الذي هذه صفته لا بد أن يختلف منهج حياته ونظامها من الأساس عن الذي تغيم في حسه تلك التصورات التائهة المهوسة ، فلا يجد في ضميره أثراً لحقيقة الألوهية الفاعلة المتصرفة في حياته .

إنه مع التوحيد الواضح الخالص لا مكان لعبودية إلاّ لله ، ولا مكان للاستمداد والتلقي إلاّ من الله ، لا في شريعة أو نظام ، ولا في أدب أو خلق ، ولا في الاقتصاد أو الاجتماع . ولا مكان كذلك للتوجه لغير الله في شأن من شؤون الحياة ، وما بعد الحياة .

أما في تلك التصورات الزائفة المنحرفة المهزوزة الغامضة فلا متجه ولا

قرار ، ولا حدود لحرام أو حلال ولا لخطأ أو صواب : في شرع أو نظام ، في أدب أو خلق وفي معاملة أو سلوك . . فكلها . . كلها إنما تتحدد وتتضح عندما تتحدد الجهة التي منها التلقي ، وإليها التوجه ، ولها الطاعة والعبودية والاستسلام . ومن ثم كانت المواجهة بذلك الحسم في مفرق الطريق . . « الله لا إله إلاّ هو الحي القيوم » . . ومن ثم كان التميز والتفرد لطبيعة الحياة الإسلامية – لا لطبيعة الاعتقاد وحده – . فالحياة الإسلامية بكل مقوماتها إنما تنبثق انبثاقاً من حقيقة التصور الإسلامي عن التوحيد الخالص الحازم ، التوحيد الذي لا يستقيم عقيدة في الضمير ما لم تتبعه آثاره العملية في الحياة من تلقي الشريعة والتوحيد من الله في كل شأن من شؤون الحياة والتوجه كذلك إلى الله في كل نشاط وكل اتجاه .

إننا نجد في القرآن أن الله – سبحانه – لا يعلم المسلمين العبادات والشعائر فحسب ، ولا يعلمهم الآداب والأخلاق فحسب – كما يتصور الناس الدين ذلك التصور المسكين – إنما هو يأخذ حياتهم كلها جملة ، ويعرض كل ما تتعرض له حياة الناس من ملابسات واقعية ، ولا يقبل من الفرد المسلم ، ولا من المجتمع المسلم أقل من أن تكون حياته بجملتها من صنع هذا المنهج ، وفق تصرفه وتوجيهه ، وعلى وجه التحديد لا يقبل من الفرد المسلم ، ولا من المجتمع المسلم أن يجعل لحياته مناهج متعددة المصادر : منهجاً للحياة الشخصية وللشعائر والعبادات والأخلاق والآداب مستمداً من كتاب الله ، ومنهجاً للمعاملات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدولية مستمداً من كتاب أحد آخر ، أو من أي تفكير بشري على الإطلاق !

إن مهمة التفكير البشري أن يستنبط من كتاب الله ومنهجه أحكاماً تفصيلية تطبيقية لأحداث الحياة المتجددة وأقضيتها المتطورة ، ولا شيء وراء ذلك ، وإلاّ فلا إيمان أصلاً ولا إسلام . ولا إيمان ابتداء ولا إسلام ، لأن

الذين يفعلون ذلك لم يدخلوا بعد في الإيمان ، ولم يعترفوا بعد بأركان الإسلام وفي أولها شهادة أن لا إله إلاّ الله التي ينشأ منها أن لا حاكم إلاّ الله ، ولا مشرع إلاّ الله. إن الكفر بآيات الله ــ سواء بإنكارها أصلاً أو عدم الاحتكام إليها وتنفيذها في واقع الحياة ــ هذه هي التي تنزل سخط الله وغضبه . .

هذه هي التي عليها اليوم البقايا الشاردة في الأرض من ذراري المسلمين الذين يسمون أنفسهم ــ بغير حق ــ مسلمين ! . هذه هي المؤهلات التي يتقدمون بها إلى ربهم اليوم ، فينالون عليها غضب الله من الهزيمة والمذلة والمسكنة . فإذا قال أحدهم : لماذا نغلب في الأرض ونحن مسلمون ؟ فلينظر قبل أن يقولها : ما هو الإسلام ، ومن هم المسلمون ؟ ! ثم يقول !

ونحن نكرر هذا المعنى ونؤكده ، لأن طول عزلة الإسلام عن أن يحكم الحياة ــ كما هو شأنه وحقيقته ــ قد جعل معنى العبارة تتقلص ظلالها عن مدى الحقيقة التي تعنيها في القرآن الكريم وفي هذا الدين . ولقد جعلت كلمة « الحلال » وكلمة « الحرام » يتقلص ظلها في حس الناس حتى عاد لا يتجاوز ذبيحة تذبح ، أو طعاماً يؤكل ، أو شراباً يشرب ، ليروا : حلال هي أم حرام ! فأما الأمور العامة والشؤون الكبيرة فهم يستفتون في شأنها النظريات والدساتير والقوانين التي استبدلت بشريعة الله !

فالنظام الاجتماعي بجملته ، والنظام السياسي بجملته ، والنظام الدولي بجملته ، وكافة اختصاصات الله في الأرض وفي حياة الناس لم تعد مما يستفتى عنه في الإسلام .

والإسلام منهج للحياة كلها ، من اتبعه فهو مؤمن وفي دين الله ، ومن اتبع غيره ولو في حكم واحد فقد رفض الإيمان واعتدى على ألوهية الله ،

وخروج من دين الله، مهما أعلن أنه يحترم العقيدة وأنه مسلم . فاتباعه شريعة غير شريعة الله يكذب زعمه ويدمغه بالخروج من دين الله . وهذه هي القضية الكلية التي تعنيها نصوص قرآنية كثيرة ، وتجعلها قضية الإيمان بالله ، أو الاعتداء على الله » . .

فهذا هو مدى القرآن في جدية معنى الألوهية ومعنى الإيمان .

٤ - « شهادة الله »

« شهد الله أنه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم » .

هذه هي الحقيقة الأولى التي يقوم عليها التصور الاعتقادي في الإسلام ، حقيقة التوحيد : توحيد الألوهية وتوحيد القوامة — القوامة بالقسط .. إن هذه الحقيقة تستهدف إقرار حقيقة العقيدة الإسلامية من جهة ، وجلاء الشبهات التي أثرت في العقيدة . .

إن شهادة الله — سبحانه — أنه لا إله إلاّ هو . . هي حسب كل من يؤمن بالله . .

إن المشركين أنفسهم كانوا يؤمنون بالله ، ولكن الضلال كان يجيئهم من ناحية الشركاء والأنداد . إن شهادة الله — سبحانه — بأنه لا إله إلاّ هو مسوقة ليساق بعدها ما هو من مستلزماتها ، وهو أنه لا يقبل إذن من العباد إلاّ العبودية الخالصة له ، الممثلة في الإسلام بمعنى الاستسلام —لا اعتقاداً وشعوراً فحسب — ولكن كذلك عملاً وطاعة واتباعاً للمنهج العملي الواقعي المتمثل في أحكام القرآن . . ومن هذه الناحية نجد كثيرين في كل زمان يقولون : إنهم يؤمنون بالله ، ولكنهم يشركون معه غيره في الألوهية ، حين يتحاكمون إلى شريعة من صنع غيره ، وحين يطيعون من لا يتبع رسوله وكتابه ، وحين

يتلقون التصورات والقيم والموازين والأخلاق والآداب من غيره — فهذه كلها تناقض القول بأنهم يؤمنون بالله . . ولا تستقيم مع شهادة الله — سبحانه — بأنه لا إله إلاّ هو .

إن شهادة الله — سبحانه — وشهادة الملائكة وأولي العلم بوحدانية الله يصحبها شهادتهم بأنه تعالى قائم بالقسط بوصفها حالة ملازمة للألوهية ، فهي حالة ملازمة للألوهية . . فهي قوامة بالقسط ، وتدبير الله لهذا الكون ولحياة الناس متلبس دائماً بالقسط — وهو العدل — فلا يتحقق العدل المطلق في حياة الناس إلا به،ولا تستقيم أمورهم استقامة أمور الكون ، التي يؤدي كل كائن معها دوره في تناسق مطلق مع دورة الكون ودورة الإنسان إلا معه.

وهو الظلم إذن ، والتصادم والتشتت والضياع ، وها نحن أولاء نرى على مدار التاريخ أن الفترات التي حكم فيها كتاب الله هي وحدها التي ذاق فيها الناس طعم القسط ، واستقامت حياتهم — دورة الفلك — بقدر ما تطيق طبيعة البشر المتميزة بالجنوح إلى الطاعة والجنوح إلى المعصية ، والتأرجح بين هذا وذاك ، والقرب من الطاعة . كلما قام منهج البشر ، لازمه جهل البشر وقصور البشر ، كما لازمه الظلم والتناقض في صورة من الصور . ظلم الفرد للجماعة ، أو ظلم الجماعة للفرد ، أو ظلم طبقة لطبقة ، أو ظلم أمّة لأمّة ، أو ظلم جيل لجيل .

وعدل الله هو المبرأ من الميل لأي من هؤلاء ، وهو إله جميع العباد ، وهو الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . إن وحدة الألوهية مصحوبة بصفة العزة وصفة الحكمة « لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم » . . إن القدرة والحكمة لازمتان كلتاهما للقوامة بالقسط . فالقسط يقوم على وضع الأمور في مواضعها مع القدرة على إنفاذها . وصفات الله — سبحانه — تصور وتوصي بالفاعلية الإيجابية . . فلا سلبية في التصور الإسلامي لله ،

وهو أكمل تصور وأصدقه . وقيمة هذه الفاعلية الإيجابية أنها تعلق القلب بالله وإرادته وفعله ، فتصبح العقيدة مؤثراً حياً دافعاً لا مجرد تصور فكري بارد . ويرتب على هذه الحقيقة نتيجتها الطبيعية ألوهية واحدة . . ألوهية واحدة . . وإذن فجهة واحدة هي صاحبة الحق في تعبيد الناس لها ، وفي تطويعهم لأمرها ، وفي إنفاذ شريعتها فيهم وحكمها ، وفي وضع القيم والموازين لهم وأمرهم باتباعها ، وفي إقامة حياتهم كلهم وفق التعليمات التي ترضاها . . ألوهية واحدة . . وإذن فعقيدة واحدة هي التي يرضاها الله من عباده ، عقيدة التوحيد الخالص الناصع . . ومقتضيات التوحيد هذه . . « إن الدين عند الله الإسلام » . . الإسلام الذي ليس هو مجرد دعوى ، وليس مجرد راية وليس مجرد كلمة تقال باللسان ، ولا حتى تصوراً يشتمل عليـــه القلب في سكون ، ولا شعائر فردية يؤديها الأفراد في الصلاة والحج والصيام . . لا . . فهذا ليس بالإسلام الذي لا يرضى الله من الناس ديناً سواه ، إنما الإسلام استسلام ، الإسلام الطاعة والاتباع ، الإسلام تحكيم الله في أمور العباد ، والإسلام توحيد الألوهية والقوامة . إن مجرد الاعتراف بشرعية منهج أو حكم من صنع غير الله هو بذاته خروج من دائرة الإسلام . إن هذا الاعتراف فوق أنه يخالف بالضرورة مفهوم الإسلام الأساسي ، فهو في الوقت ذاته يسلم الخلافة في هذه الأرض للعمي الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض . . فهذا الفساد في الأرض مرتبط كل الارتباط بقيادة العمي ! ولقد شقيت البشرية في تاريخها كله ، وهي تتخبط في شتى المناهج وشتى الأوضاع وشتى الشرائع بقيادة أولئك العمي ، الذين يلبسون أردية الفلاسفة والمفكرين والمشرّعين والسياسيين على مدار القرون .

والبشرية لم تسعد قط ،ولم ترتفع إنسانيتها قط ،ولم تكن في مستوى الخلافة

عن الله في الأرض قط ، إلاّ في ظلال المنهج الرباني في الفترات التي فاءت فيها إلى ذلك المنهج القويم .

إن الله – سبحانه وتعالى – يقرر بشهادته أن الذين لا يستجيبون له ولمنهجه إنما هم عُمي . . « أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى » . إن الإنسان ليجد مصداق قول الله هذا في كل من يلقاه من الناس معرضاً عن هذا الحق الذي تضمنه دين الله،فإن هي إلاّ جبلات مطموسة،وإن هي إلاّ كينونات معطلة في أهم جوانبها . وإذا كان الذين لا يؤمنون بهذا الحق ُعمياً بشهادة الله – سبحانه – فإنه لا ينبغي لمسلم يزعم أنه يؤمن بالله وبرسول الله ويؤمن بأن هذا القرآن وحي من عند الله . . لا ينبغي لمسلم يزعم هذا الزعم أن يتلقى في شأن من شؤون الحياة عن أعمى ، وخاصة إذا كان هذا الشأن متعلقاً بالنظام الذي يحكم حياة الإنسان ، أو بالقيم والموازين التي تقوم عليها حياته ، أو بالعادات والسلوك والتقاليد والآداب التي تسود مجتمعه . وهذا هو موقفنا من نتاج الفكر – غير الإسلامي – بجملته ، فيما عدا العلوم المادية البحتة وتطبيقاتها العملية مما قصده رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله (أنتم أعلم بشؤون دنياكم) . فإنه ما ينبغي قط لمسلم يعرف هدى الله ، ويعرف هذا الحق الذي جاء به رسول الله ، أن يقعد مقعد التلميذ من أي إنسان لم يستجب لهذا الهدي ولم يعلم أنه الحق . . فهو أعمى بشهادة الله – سبحانه – ولن يرد شهادة الله مسلم . . ثم يزعم بعد أنه مسلم . إنه لا بد لنا أن نأخذ هذا الدين مأخذ الجد ، وأن نأخذ تقريراته هذه مأخذ الجزم . . وكل تمييع في مثل هذه القضية هو تمييع في العقيدة ذاتها . إن لم يكن هو ردّ شهادة الله – سبحانه – فهو الكفر البواح في هذه الصورة ، وأعجب العجب أن ناساً من الناس يزعمون أنهم مسلمون ثم يأخذون في منهج الحياة البشرية عن فلان وفلان من الذين يقول عنهم – سبحانه – إنهم عمي ، ثم يظلون يزعمون بعد ذلك أنهم مسلمون .

إن هذا الدين جد لا يحتمل الهزل ، وجزم لا يحتمل التمييع ، وحق في كل نص فيه ، وفي كل كلمة . فمن لم يجد في نفسه هذا الجد وهذا الجزم وهذه الثقة ، فما أغنى هذا الدين عنه والله غني عن العالمين .

إن حياة الناس في الأرض لا تصلح إلاّ بظل القيادة المبصرة التي تسير على هدى الله وحده ، والتي تصوغ الحياة كلها وفق منهجه وهديه ، إنها لا تصلح بالقيادات الضالة العمياء التي لا تعلم أن ما أنزل على محمد — صلى الله عليه وسلم — هو الحق وحده ، والتي تتبع من ثم مناهج أخرى غير منهج الله الذي ارتضاه للصالحين من عباده . إنها لا تصلح بالاقطاع والرأسمالية، كما أنها لا تصلح بالشيوعية والاشتراكية العلمية ، إنها كلها من مناهج العمي الذين لا يعلمون أن ما أنزل على محمد — صلى الله عليه وسلم — هو وحده الحق الذي لا يجوز العدول عنه ولا التعديل فيه . إنها لا تصلح بالثيوقراطية ، كما أنها لا تصلح بالديكتاتورية أو الديموقراطية ! فكلها سواء في كونها من مناهج العمي ، الذين يقيمون من أنفسهم أرباباً من دون الله ، تضع هي مناهج الحكم ومناهج الحياة ، وتشرع للناس ما لم يأذن به الله ، وتعبدهم لما تشرع ، فتجعل دينونتهم لغير الله .

وآية هذا الذي نقوله — استمداداً من النص القرآني — هو هذا الفساد الطامي الذي يعم الأرض اليوم . وهو هذه الشقوة النكدة التي تعانيها البشرية في مشارق الأرض ومغاربها ، سواء في ذلك أوضاع الاقطاع والرأسمالية ، وأوضاع الشيوعية والاشتراكية العلمية ،وسواء في ذلك أشكال الديكتاتورية في الحكم أو الديمقوقراطية، إنها كلها سواء فيما تلقاه البشرية من خلالها من فساد ومن تحلل ومن شقاء ومن قلق.. لأنها كلها من صنع العمي الذي لا يعلمون أن ما أُنزل على محمد من ربه هو الحق وحده ولا تلتزم من ثم بعهد الله وشرعهِ ، ولا تستقيم في حياتها على منهجه وهديه . والمسلم يرفض — بحكم إيمانه بالله وبأن ما أُنزل على محمد هو الحق — كل منهج للحياة غير منهج الله وكل

مذهب اجتماعي أو اقتصادي ، وكل وضع كذلك سياسي غير المنهج الوحيد والمذهب الوحيد والشرع الوحيد الذي سنّه الله وارتضاه للصالحين من عباده . ومجرد الاعتراف بشرعية منهج أو وضع أو حكم من صنع غير الله هو بذاته خروج من دائرة الإسلام لله . فالإسلام لله هو توحيد الدينونة له دونَ سواه . إن هذا الاعتراف فوق أنه يخالف بالضرورة مفهوم الإسلام الأساسي ، فهو في الوقت ذاته يُسلم الخلافة في هذه الأرض للعمي . . فهذا الفساد في الأرض مرتبط كل الارتباط بقيادة العمي . . شقيت البشرية في تاريخها كله وهي تتخبط بين شتى المناهج وشتى الأوضاع والشرائع بقيادة أولئك العمي الذين يلبسون أردية الفلاسفة والمفكرين والمشرعين السياسيين على مدار القرون فلم تسعد البشرية قط ولم ترتفع إنسانيتها قط ، ولم تكن في مستوى الخلافة عن الله في الأرض قط إلاّ في ظلال المنهج الرباني في الفترات التي فاءت بها إلى ذلك المنهج القويم .

٥ - « التوحيد فطرة في الكيان البشري »

إن الله – سبحانه وتعالى – يعرض قضية التوحيد من زاوية جديدة ، وزاوية عميقة.. يعرضها من زاوية الفطرة التي فطر عليها البشر وأخذ بها عليهم الميثاق في ذات أنفسهم ، وذات تكوينهم ، وهم بعد في عالم الذر ! . .

إن الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة في الكيان البشري ، فطرة أودعها الخالق في هذه الكينونة ، وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة. أما الرسالات فتذكير وتحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم الأولى ، فيحتاجون إلى التذكير والتحذير . .

إن التوحيد ميثاق – حتى لو لم يبعث إليها بالرسل يذكرونهم ويحذرونهم ولكن رحمته اقتضت ألاّ يكلهم إلى فطرتهم هذه فقد تنحرف ، وألاّ يكلهم كذلك إلى عقولهم التي أعطاها لهم فقد تضل ، وأن يبعث إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين لئلاّ يكون للناس على الله حجة بعد الرسل !

« وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتّهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى. شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنا عن هذا غافلين » . . (الأعراف ١٧) .

إنها قضية الفطرة والعقيدة يعرضها الله – سبحانه – في صورة مشهد ،

وإنه مشهد فريد . . مشهد الذرية المكنونة في عالم الغيب السحيق ، المستكنة في ظهور بني آدم قبل أن تظهر إلى العالم المشهود ، تؤخذ في قبضة الخالق المربي ، فيسألها . . « ألست بربكم » . . فتعترف له — سبحانه — بالربوبية وتقر له — سبحانه — بالعبودية ، وتشهد له — سبحانه — بالوحدانية ، وهي منثورة كالذر ، مجموعة في قبضة الخالق العظيم !

إنه مشهد كوني رائع باهر ، لا تعرف اللغة له نظيراً في تصوراتها المأثورة! وإنه لمشهد عجيب فريد حين يتملاه الخيال البشري جهد طاقته ! وحينما يتصور تلك الخلايا التي لا تحصى ، وهي تجمع وتقبض ، وهي تُخاطب خطاب العقلاء — بما ركب فيها من الخصائص المستكنة التي أودعها إياها الخالق المبدع — وهي تستجيب استجابة العقلاء ، فتعترف وتقر وتشهد ! ويؤخذ عليها الميثاق في الأصلاب !

إن الكيان البشري ليرتعش من أعماقه وهو يتملى هذا المشهد الرائع الباهر الفريد ، وهو يتمثل الذر السابح ، وفي كل خلية حياة ، وفي كل خلية استعداد كامن ، وفي كل خلية كائن إنساني مكتمل الصفات ، ينتظر الاذن له بالنماء والظهور في الصورة المكنونة له في ضمير الوجود المجهول . ويقطع على نفسه العهد والميثاق ، قبل أن يبرز إلى حيز الوجود المعلوم [1] .

---

(١) لقد عرض القرآن الكريم هذا المشهد الرائع الباهر العجيب الفريد لتلك الحقبة الهائلة العميقة المستكنة في أعماق الفطرة الإنسانية، وفي أعماق الوجود. عرض القرآن الكريم هذا المشهد قبل أربعة عشر قرناً من الزمان ، حيث لم يكن إنسان يعلم عن طبيعة النشأة الإنسانية وحقائقها إلا الأوهام ، ثم يهتدي البشر بعد هذه القرون إلى طرف من هذه الحقائق ، وتلك الطبيعة ، فإذا « العلم» يقرر أن الناسلات هي خلايا الوراثة التي تحفظ سجل« الإنسان » وتكمن فيها خصائص الأفراد وهم بعد خلايا في الأصلاب . إن هذه الناسلات التي تحفظ سجل ثلاثة آلاف مليون من البشر ، وتكمن فيها خصائصهم كلها ، لا يزيد حجمها على سنتيمتر مكعب واحد ، أو ما يساوي ملء قمع من أقماع الخياطة !.

كلمة لو قيلت للناس يومذاك لاتهموا قائلها بالجنون والخبال ! . وصدق الله العظيم « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » . . .

أخرج ابن جرير وغيره – بإسناده – عن ابن عباس قال « مسح ربك ظهر آدم ، فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، فأخذ مواثيقهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى » . وروي مرفوعاً وموقوفاً على ابن عباس ، وقال ابن كثير : إن الموقوف أكثر وأثبت .

فأما كيف كان المشهد ؟ وكيف أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ؟ وكيف خاطبهم : « ألست بربكم » ؟ وكيف أجابوا « بلى شهدنا » ؟ فالجواب عليه أن كيفيات فعل الله – سبحانه – غيب كذاته ، ولا يملك الإدراك البشري أن يدرك كيفية أفعال الله ما دام أنه لا يملك أن يدرك ذات الله ، إذ أن تصور الكيفية فرع من تصور الماهية ، وكل فعل ينسب لله – سبحانه – مثل الذي يحكيه قوله هذا ، كقوله تعالى . . « ثم استوى إلى السماء وهي دخان . . » . . « ثم استوى على العرش » . . « يمحو الله ما شاء ويثبت » . . « السموات مطويات بيمينه » . . إلى آخر ما تحكيه النصوص الصحيحة عن فعل الله سبحانه ، لا مناص من التسليم بوقوعه ، دون محاولة إدراك كيفيته ، إذ أن تصور الكيفية فرع عن تصور الماهية كما قلنا . والله ليس كمثله شيء فلا سبيل إلى إدراك ذاته ، ولا إلى إدراك كيفيات أفعاله إذ أنه لا سبيل إلى تشبيه فعله بفعل أي شيء ، ما دام أنه ليس كمثله شيء . . وكل محاولة لتصور كيفيات أفعاله على مثال كيفيات أفعال خلقه هي محاولة مضللة ، لاختلاف ماهيته – سبحانه – عن ماهيات خلقه ، وما يترتب على هذا من اختلاف كيفيات أفعاله عن كيفيات أفعال خلقه . . وكذلك جهل وضل كل من حاولوا – من الفلاسفة والمتكلمين – وصف كيفيات أفعال الله ، وخلطوا خلطاً شديداً .

على أن هناك تفسيراً لهذا النص بأن هذا العهد الذي أخذه الله على ذرية بني آدم هو عهد الفطرة – فقد أنشأهم مفطورين على الاعتراف له بالربوبية

وحده ، أودع هذا فطرتهم فهي تنشأ عليه ، حتى تنحرف بفعل فاعل يغير سواءها ، ويميل بها عن فطرتها .

قال ابن كثير في التفسير : قال قائلون من السلف والخلف : ان المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد . إن الميثاق معقود بين الفطرة وخالقها ميثاق مودع في كيانها ، مودع في كل خلية حية منذ نشأتها . وهو ميثاق أقدم من الرسل والرسالات ، وفيه تشهد كل خلية بربوبية الله الواحد ، ذي المشيئة الواحدة ، المنشئة للناموس الواحد الذي يحكمها ويصرفها ، فلا سبيل إلى الاحتجاج بعد ميثاق الفطرة وشهادتها — سواء أكان بلسان الحال هذا أم بلسان المقال كما في بعض الآثار — لا سبيل إلى أن يقول أحد : انه غفل عن كتاب الله الهادي إلى التوحيد ، وعن رسالات الله التي دعت إلى هذا التوحيد ، أو يقول : إنني خرجت إلى هذا الوجود فوجدت آبائي قد أشركوا فلم يكن أمامي سبيل لمعرفة التوحيد (١) ، إنما ضل آبائي فضللت فهم المسؤولون وحدهم ، ولست بالمسؤول . ومن رحمة الله تعالى أن فصّل الآيات وأرسل الرسل ليرجع الناس إلى عقيدة التوحيد .. «وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون» . . يرجعون إلى فطرتهم (٢) ، وإلى ما أودعه الله في كينونتهم من قوى البصيرة والإدراك ، فالرجعة إلى هذه المكنونات بانتفاض حقيقة التوحيد ، ثم رحمها فأرسل إليها الرسل بالآيات للتذكير والتحذير .

---

(١) في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

(٢) في صحيح مسلم عن عياض قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول الله اني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم» .

قال الإمام أحمد : عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به . قال : فيقول : نعم . فيقول : قد أردت أهون من ذلك . قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي » . وأخرجاه في الصحيحين .

إنه عهد الفطرة المركوز في طبيعة كل حي . . أن يعرف خالقه ، وأن يتجه إليه بالعبادة ، وما تزال في الفطرة هذه الجوعة للاعتقاد بالله ولكنها تضل وتنحرف ، فتتخذ من دون الله أنداداً وشركاء . . وهو عهد الاستخلاف في الأرض الذي أخذه الله على آدم . . « فأقم وجهك للدين حنيفاً . فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

إن هذا الدين هو العاصم من الأهواء المتفرقة التي لا تستند على حق ، ولا تستمد من علم ، إنما تتبع الشهوات والنزوات بغير ضابط ولا دليل . . والله يربط بين فطرة النفس البشرية وطبيعة هذا الدين ، وكلاهما من صنع الله ، وكلاهما موافق لناموس الوجود ، وكلاهما متناسق مع الآخر في طبيعته واتجاهه . والله الذي خلق القلب البشري هو الذي أنزل إليه هذا الدين ليحكمه ويصرفه ، ويطب له من المرض ،ويقومهمن الانحراف. وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير . والفطرة ثابتة والدين ثابت . . « لا تبديل لخلق الله » . . فإذا انحرفت النفوس عن الفطرة لم يردها إليها إلا هذا الدين المتناسق مع الفطرة ، فطرة البشر وفطرة الوجود .

الباب الثالث

معنى التوحيد

١ - « لا خالق إلا الله »

إن الخلق هو المعجزة التي لا يدري سرها أحد ، فضلاً عن أن يملك صنعها أحد « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت، ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون » . .

إنها معجزة الحياة نشأة وحركة . . وفي كل لحظة تنفلق الحبة الساكنة عن نبتة نامية ، وتنفلق النواة الهامدة عن شجرة صاعدة . والحياة الكامنة في الحبة والنواة ، النامية في النبتة والشجرة ، سر مكنون لا يعلم حقيقته إلا ّ الله ، ولا يعلم مصدره إلا ّ الله . . وتقف البشرية بكل ما رأت من ظواهر الحياة وأشكالها ، وبعد كل ما درست من خصائصها وأطوارها . . تقف أمام السر المغيب كما وقف الإنسان الأول ، تدرك الوظيفة والمظهر ، وتجهل المصدر والجوهر ، والحياة ماضية في طريقها ، والمعجزة تقع في كل لحظة ! !

ومنذ البدء أخرج الله الحي من الميت ، فقد كان هذا الكون — أو على الأقل كانت هذه الأرض — ولم يكن هناك حياة . . ثم كانت الحياة . . أخرجها الله من الموت . . كيف ؟ لا ندري ! . وهي منذ ذلك الحين تخرج من الميت ، فتتحول الذرات الميتة في كل لحظة — عن طريق الأحياء — إلى مواد عضوية حية تدخل في كيان الأجسام الحية ، وتتحول — وأصلها ذرات ميتة — إلى خلايا حية . . والعكس كذلك . . ففي كل لحظة تتحول خلايا حية إلى ذرات ميتة ، إلى أن يتحول الكائن الحي كله ذات يوم إلى ذرات

ميتة ! « يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي » .. ولا يقدر إلاّ الله أن يصنع ذلك . . لا يقدر إلاّ الله أن ينشىء الحياة منذ البدء من الموت . . ولا يقدر إلاّ الله أن يجهز الكائن الحي بالقدرة على إحالة الذرات الميتة إلى خلايا حية ، ولا يقدر إلاّ الله على تحويل الخلايا الحية مرة أخرى إلى ذوات ميتة . . في دورة لم يعلم أحد يقيناً بعد متى بدأت ولا كيف تتم . . ان هي إلاّ فروض ونظريات واحتمالات . .

لقد عجزت كل محاولة لتفسير ظاهرة الحياة ، على غير أساس أنها من خلق الله . . « ذلكم الله ربكم » . . مبدع هذه المعجزة المتكررة المغيبة السر . . هو الله . . وهو ربكم الذي يستحق أن تدينوا له وحده . بالعبودية والخضوع والاتباع .

إن معجزة انبثاق الحياة من الموت يجيء ذكرها كثيراً في القرآن الكريم – كما يجيء ذكر خلق الكون ابتداء – في معرض التوجيه إلى حقيقة الألوهية وآثارها الدالة على وحدة الخالق ، لينتهي منها إلى ضرورة وحدة المعبود ، الذي يدين له العباد بالاعتقاد في ألوهيته وحده ، والطاعة لربوبيته وحده ، والتقدم إليه بالشعائر التعبدية ، والتلقي منه وحده في منهج الحياة كله ، والدينونة لشريعته كذلك وحدها .

فإذا كان الله – سبحانه – هو الذي خلقهم فكيف يكونون شركاء له في الألوهية والربوبية ، فالمخلوق لا يكون أبداً شريكاً للخالق ، وحقيقة الخالق غير حقيقة المخلوق . . « وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم » . . إن الذي يُعبد ويخضع له ويطاع ، ويعترف له بالدينونة وحده هو خالق كل شيء فلا إله إذن غيره، ولا رب إذن سواه .. « ذلكم الله ربكم خالق كل شيء فاعبده وهو على كل شيء وكيل » .

إن تفرد الله – سبحانه – بالخلق يفرده – سبحانه – بالملك، والمتفرد بالخلق

والملك يتفرد كذلك بالرزق، فهو خالق خلقه ومالكهم، فهو كذلك يرزقهم من ملكه الذي ليس لأحد شرك فيه. فكل ما يقتاته الخلق، وكل ما يستمتعون به فإنما هو من هذا الملك الخاص لله .. فإذا تقررت هذه الحقائق .. الخلق والملك والرزق.. تفرد معها— ضرورة وحتماً — أن تكون الربوبية له سبحانه، فتكون له وحده خصائص الربوبية — وهي القوامة والتوجيه والسلطان الذي يُخضع له ويطاع. والنظام الذي يتجمع عليه العباد، وتكون له وحده العبادة بكل مدلولاتها، ومنها الطاعة والخضوع والاستسلام . .

ولم يكن العرب —في جاهليتهم— ينكرون أن الله هو خالق هذا الكون، وخالق الناس ورازقهم كذلك من ملكه، الذي ليس وراءه ملك تقتات منه العباد . . وكذلك لم تكن الجاهليات الأخرى تنكر هذه الحقائق — على قلة من الفلاسفة الماديين من الإغريق — لذلك لم يكن الإسلام يواجه في الجاهلية العربية إلاّ الانحراف في التوجه بالشعائر التعبدية لآلهة — مع الله على سبيل الزلفى والقربى من الله — وإلاّ الانحراف في تلقي الشرائع والتقاليد التي تحكم حياة الناس . . أي أنه لم يكن يواجه الإلحاد في وجود الله — سبحانه — كما يقول اليوم «ناس»! أو كما يتبجحون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير!

والحق أن هؤلاء الذين يجادلون في وجود الله اليوم قلة، وسيظلون قلة. إنما الانحراف الأساسي هو ذاته الذي كان في الجاهلية وهو تلقي الشرائع في شؤون الحياة من غير الله . . وهذا هو الشرك التقليدي الأساسي الذي قامت عليه الجاهليات العربية، وكل الجاهليات أيضاً. إنها الحقيقة التي ينطق بها كل شيء . . «الله خالق كل شيء. وهو على كل شيء وكيل، له مقاليد السموات والأرض» . . فما يملك أحد أن يدعي أنه خلق شيئاً، وما يملك عقل أن يزعم أن هذا الوجود وجد من غير مبدع، وكل ما فيه ينطق بالقصد والتدبير، وليس أمر من أموره متروكاً لُقىً أو للمصادفة.

وبدء الخلق حقيقة واقعة لا يملك أحد إنكارها ، ولا يمكن لأحد تعليلها بغير وجود الله ووحدانيته . . « أم من يبدؤ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » . . نعم لا يمكن لأحد أن يعلل وجود الحياة بغير وجود الله ووحدانيته . وجوده لأن وجود هذا الكون ملجىء للاقرار بوجوده . وقد باءت بالفشل المنطقي كل محاولة لتعليل وجود هذا الكون على هذا النحو الذي يظهر فيه التدبير والقصد بغير الإقرار بوجود الله ووحدانيته لأن آثار صنعته ملجئة للاقرار بوحدانيته ، فعليها آثار التقدير الواحد والتدبير الواحد . وفيها من التناسق المطلق ما يجزم بالإرادة الواحدة المنشئة للناموس الواحد .

إن الإقرار ببدء الخلق على هذا النحو الذي يظهر فيه التقدير والتدبير ، والقصد والتنسيق ملجىء كذلك للتصديق بإعادة الخلق ، ليلقوا جزاءهم الحق على أعمالهم في دار الفناء ، التي لا يتم فيها الجزاء الحق على الأعمال ، وإن كان يتم فيها أحياناً بعض الجزاء ، فلا بد إذن من التصديق بحياة أخرى .

ولقد كان مشركو العرب مضطربي العقيدة ، لا ينكرون الله ، ولا ينكرون أنه مالك السموات والأرض ، مدبر السموات والأرض المسيطر على السموات والأرض . . . ولكنهم مع ذلك يشركون معه آلهة مدعاة ، يقولون : إنهم يعبدونها لتقربهم من الله . « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله . قل : أفلا تذكرون . قل من رب السموات ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله . قل : أفلا تتقون . قل : من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله . قل : فأنى تسحرون » . .

لقد كان للعرب عقيدة ــ نظن أنها بقايا من الحنيفية الأولى ملة إبراهيم عليه السلام ولكنها بهتت وانحرفت ــ وقد بقي منها ما لا تملك الفطرة إنكاره

من وجود لخالق لهذا الكون ، وأنه هو الله ، فما يمكن في منطق الفطرة وبداهتها أن يكون هذا الكون قد نشأ هكذا من غير خالق . . . « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن خلقهن العزيز العليم » . . فما يمكن أن يخلق هذا الكون إلاّ الله . ولكنهم كانوا يقفون بهذه الحقيقة التي تنطق بها بداهة الفطرة عند شكلها الظاهر ، ولا يعترفون بما وراءها من مقتضيات طبيعية لها .

فالله قد خلق كل شيء . . « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » . . « واتخذوا من دونه آلهة لا يَخلقون شيئاً، وهم يُخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا » . وهكذا يجرد القرآن آلهتهم المدعاة من كل خصائص الألوهية ، فهم « لا يخلقون شيئاً » والله خلق كل شيء . وهم « يُخلقون » . . ولا يملكون لأنفسهم فضلاً عن أن يملكوا لعبادهم ضراً ولا نفعاً . والذي لا يملك لنفسه النفع قد يسهل عليه الضر ، ولكن حتى هذا لا يملكونه . . « ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا » . . فلا إماتة حي ولا إنشاء حياة، ولا إعادتها داخل في مقدورهم فما لهم بعد ذلك من خصائص الألوهية ؟ . ألا انه الانحراف المطلق . وهل أقبح من ادعاء إنسان على الله وهو خالقه وخالق كل شيء ، ومدبر أمره ومقدر كل شيء . . هل أقبح من إدعاء إنسان أن لله شريكاً ؟ وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الذنب أكبر ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » أخرجه البخاري ومسلم .

وأي ضلال وأي ظلم أن يُعبد غير الله وهو الذي خلق . . « هذا خَلْق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون في ضلال مبين » . « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » . . فلمْ يكونوا يتلجلجون في الجواب لو سئلوا من خلق السموات والأرض وجوابهم . . « الله » .

وإنه لعجب يستحق التعجيب أن يرى الناس يد الله في كل شيء ، ويعلموا

أنه الخالق لكل شيء معرفة حتمية مفروضة على العقل فرضاً بحكم وجود الأشياء ، واستحالة ادعاء أحد أنها من خلقه ، وعدم استقامة القول بأنها وجدت من غير موجد . « ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلاّ هو فأنّى تؤفكون » . عجيب يستحق التعجيب أن يكون هذا كله ، ثم يصرف الناسَ عن الإيمان والإقرار .

إن الله هو الخالق المهيمن المصرف المدبر . . « إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .

هو ربكم الذي يستحق أن يكون رباً لكم ، يربيكم بمنهجه ، ويجمعكم بنظامه ، ويشرع لكم بإذنه ويقضي بينكم بحكمه . . إنه هو صاحب الخَلْق والأمر . . وكما أنه لا خالق معه ، فكذلك لا آمر معه . ومع أن برهان الخلق والقدرة هذا كان يوجه إلى أصحاب تلك الجاهلية الساذجة ، فهو ما يزال هو هو الذي يحاج به أصحاب الجاهليات الحاضرة ! إنهم يقيمون لهم أصناماً أخرى يعبدونها ويتبعون ما تأمر به ، ويجعلون لها شركاً في أنفسهم وأبنائهم وأموالهم ، فمن منها يخلق من السموات والأرض شيئاً ؟ » أيشركون ما لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون » . . ومن منها يملك لهم أو لنفسه نصراً ؟ إن الذي يخلق هو الذي يستحق أن يُعبد . والآلهة كلها على أنواعها لا تخلق شيئاً ، بل هي تُخلق فكيف يشركون بها ؟ وكيف يجعلون لها شركاً مع الله في نفوسهم وفي أولادهم ؟

إن ربكم الله هو الذي يستحق الربوبية والعبادة . . هذا هو الخالق . . « إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام » . . هو الذي خلق السموات والأرض . . ذلكم الله الخالق المدبر الحاكم الخليق بالربوبية ، فهو الذي يستحق الدينونة له دون سواه .

فالاعتراف بأن الله هو الخالق الرازق يستتبعه حتماً أن يكون الله هو الرب المعبود ، وأن يكون هو الذي يحكم في أمر الناس كله . . فهي الوحدانية في الخلق ، وهي الوحدانية في القهر – أقصى درجات السلطان – « أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون » . فهل هناك إلاّ جواب واحد : لا . وكلا : أفيجوز أن يسوي إنسان في حسه وتقديره . . بين من يخلق ذلك الخلق كله ، ومن لا يخلق كبيراً ولا صغيراً . إن الآلهة المدعاة ، لا تخلق شيئاً ، بل هي مخلوقة ، ولا تعلم شيئاً . فالله « خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ، خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين » . . إن كل شيء قائم على الحق يتلبس به ومفضى له وصائر في النهاية إليه . فتعالى عن شركهم ، وتعالى عما يشركون به من خَلْق الله الذي خلق السموات والأرض ، وخلق من فيهما وما فيهما ، فليس أحد ، وليس شيء شريكاً له ، وهو الواحد الخالق بلا شريك .

والله سبحانه يضرب مثلاً لمعنى الخلق ، وعظمة هذا السر العظيم الذي لا يقدر عليه سواه – سبحانه .– :

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب » .

إن هذا المثل يضع قاعدة ويقرر حقيقة : « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له » .

كل من تدعون من دون الله من آلهة مدعاة ، من أصنام وأوثان ، ومن أشخاص وقيم وأوضاع ، تستنصرون بها من دون الله ، وتستعينون بقوتها ، وتطلبون منها النصر والجاه . . كلهم لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له » ،

والذباب صغير حقير ، ولكن هؤلاء الذين يدعونهم آلهة لا يقدرون — ولو اجتمعوا وتساندوا — على خلق هذا الذباب الصغير الحقير . وخلق الذباب مستحيل كخلق الجمل والفيل ، لأن الذباب يحتوي على ذلك السر المعجز : سر الحياة ، فيستوي في استحالة خلقه مع الجمل والفيل ، ولكن القرآن يختار الذباب الحقير الصغير لأن العجز عن خلقه يلقي في النفس ظل الضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل ! دون أن يخل هذا بالحقيقة في التعبير .. ثم يخطو خطوة أوسع في إبراز الضعف المزري : « وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه » — والآلهة المدعاة لا تملك استنقاذ شيء من الذباب حين يسلبها إياه ، سواء كانت أصناماً أو أوثاناً أو أشخاصاً !

وكم من عزيز يسلبه الذباب من الناس فلا يملكون رده ، وقد اختير الذباب بالذات وهو ضعيف حقير ، وهو في الوقت ذاته يحمل أخطر الأمراض ويسلب أغلى النفائس ، وقد يسلب الحياة والأرواح .. إنه يحمل ميكروب السل والتيفود والرمد ، ويسلب ما لا سبيل إلى استنقاذه وهو الضعيف الحقير .

إن القرآن الكريم يقرر قضايا الشعور الاعتقادي الصحيح ومن أكبر قضايا الشعور الاعتقادي في الإسلام الحقيقة الاعتقادية التي تنشأ في النفس من تقرير حقيقة الوحدانية ، حقيقة أن ألوهية الخالق تتبعها عبودية الخلائق .. إن هناك فقط ألوهية وعبودية ، ألوهية واحدة ، وعبودية تشمل كل شيء وكل أحد في هذا الوجود .

لقد عني الإسلام عناية بالغة بتقرير حقيقة وحدانية الله سبحانه ، لا تتلبس بشبهة شرك أو مشابهة في صورة من الصور ، وعني بتقرير أن الله — سبحانه — ليس كمثله شيء ، فلا يشترك معه شيء في ماهية ولا صفة ولا خاصية ، كما عني بتقرير حقيقة الصلة بين الله — سبحانه — وكل شيء (بما في ذلك كل حي) وهي أنها صلة ألوهية وعبودية ، ألوهية الله ، وعبودية

كل شيء لله . . والمتتبع للقرآن كله يجد العناية فيه بالغة بتقرير هذه الحقائق — أو هذه الحقيقة الواحـ[illegible] لا تدع في النفس ظلاً من شك أو شبهة أو غموض .

ولقد عني الإسلام كذلك بأن يقرر هذه الحقيقة التي جاء بها الرسل أجمعون فقررها في سيرة كل رسول ، وفي دعوة كل رسول وجعلها محور الرسالة من عهد نوح عليه السلام إلى عهد محمد خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، تتكرر الدعوة بها على لسان كل رسول « يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » :

ألوهية وعبودية ، ولا شيء غير هذه الحقيقة ، ولا قاعدة إلاّ هذه القاعدة ، ولا صلة إلاّ صلة الألوهية بالعبودية ، وصلة العبودية بالألوهية ولا تستقيم تصورات الناس ، ولا تستقر مشاعرهم إلاّ حين يستيقنون حقيقة الصلة بينهم وبين ربهم ، هو إله لهم ، وهم عبيده ، هو خالق وهم مخاليق ، هو مالك وهم مماليك . وهم كلهم سواء في هذه الصلة ، لا ميزة لأحد ، ولا امتزاج بأحد ، ومن ثم لا قربى لأحد إلاّ بشيء يملكه كل أحد ، ويوجه إرادته إليه فيبلغه : التقوى والعمل الصالح . وهذا في مستطاع كل أحد أن يحاوله . ولا تستقر حياتهم وارتباطهم ووظائفهم في الحياة إلاّ حين تستقر في أخلادهم تلك الحقيقة : أنهم عبيد لرب واحد ، ومن ثم فموقفهم كلهم تجاه صاحب السلطان واحد ، فأما القربى إليه ففي متناول الجميع . عندئذ تكون المساواة بين بني الإنسان ، لأنهم متساوون في موقفهم من صاحب السلطان ، وعندئذ تسقط كل دعوى زائفة في الوساطة بين الله والناس ، وتسقط معها جميع الحقوق المدعاة لفرد أو مجموعة . وبغير هذا لا تكون المساواة أصيلة الجذور في حياة بني الإنسان ومجتمعهم ونظامهم ووضعهم في هذا النظام .

فالمسألة ـ على هذا ـ ليست مسألة عقيدة وجدانية يستقر فيها القلب على هذا الأساس الركيز فحسب ، وإنما هي كذلك مسألة نظام حياة وارتباطات مجتمع وعلاقات أمم وأجيال من بني الإنسان .

إنه ميلاد جديد للإنسان على يد الإسلام ، ميلاد للإنسان المتحرر من العبردية للعباد بالعبودية لرب العباد ، ومن ثم لم تقم في تاريخ الإسلام « كنيسة » تستذل الرقاب ، رقاب الناس . بوصفها ممثلة لابن الله ، أم للأقنوم المتمم للأقانيم المستمدة لسلطانها من سلطان الابن أو سلطان الأقنوم ، ولم تقم كذلك في تاريخ الإسلام سلطة مقدسة لحكم « بالحق الإلهي » زاعمة أن حقها في الحكم والتشريع مستمد من قرابتها أو تفويضها من الله ، وعن ظل « الحق المقدس » للكنيسة والباباوات في جانب ، وللأباطرة الذين زعموا لأنفسهم حقاً مقدساً كحق الكنيسة في جانب . ظل هذا الحق أو ذاك قائماً في أوربا باسم (الابن) أو مركب الأقانيم ، حتى جاء الصليبيون إلى أرض الإسلام مغيرين ، فلما ارتدوا أخذوا معهم من أرض الإسلام بذرة الثورة على « الحق المقدس » ، وكانت فيما بعد ثورات « مارتن لوثر » و « كالفن » و « زنجلي » المسماة بحركة الإصلاح على أساس من تأثير الإسلام ووضوح التصور الإسلامي ونفي القداسة عن بني الإنسان ونفي التفويض في السلطان ، لأنه ليس هناك إلاّ ألوهية وعبودية في عقيدة الإسلام . إن من يعرف حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية وأنهما ماهيتان مختلفتان ، هو من يعرف أن العبد من خلق الله ، فلا يكون خلق الله كالله .

إن الله سبحانه ـ خالق الخلق ـ لا يريد من عباده أن يقروا له بالعبودية وأن يعبدوه وحده لأنه بحاجة إلى عبوديتهم وعبادتهم ولأنها تزيد من ملكه تعالى أو تنقص من شيء[1] ، ولكنه يريد لهم أن يعرفوا حقيقة الألوهية

---

(١) عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم – فيما يروي عن الله تبارك وتعالى أنه قال : (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادي ←

وحقيقة العبودية ، لتصح تصوراتهم ومشاعرهم كما تصح حالاتهم وأوضاعهم فما يمكن أن تستقر التصورات والمشاعر ، ولا أن تستقر الحياة والأوضاع على أساس سليم قويم إلاّ بهذه المعرفة وما يتبعها من إقرار ، وما يتبع الإقرار من آثار . يريد الله سبحانه أن تستقر هذه الحقيقة بجوانبها التي بينها في نفوس الناس وفي حياتهم ليخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، من عبادة الخلائق إلى عبادة الخالق ، ليعرفوا من صاحب السلطان في هذا الكون و هذه الأرض فلا يخضعوا إلاّ له ، وإلا لمنهجه وشريعته للحياة ، وإلا لمن يحكم حياتهم بمنهجه وشرعه دون سواه . يريد أن يعرفوا أن العبيد كلهم عبيد ، ليرفعوا جباههم أمام كل من عداه ، حين تعنو له الوجوه والجباه ، يريد أن يستشعروا العزة أمام المتجبرين والطغاة ، حين يخرّون له راكعين ساجدين يذكرون الله ، ولا يذكرون أحداً إلاّ الله ، يريد أن يعرفوا أن القربى إليه لا تجيء عن صهر ولا نسب ، ولكن تجيء عن تقوى وعمل صالح ، فيعمرون الأرض ، ويعملون الصالحات قربى إلى الله . يريد أن تكون لهم معرفة بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، فتكون لهم غيرة على سلطان الله في الأرض أن يدّعيه المدعون باسم الله ، أو بغير اسم الله ، فيردّون الأمر كله لله ، ومن ثم تصلح حياتهم وترقى وتكرم على هذا الأساس .

← كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر . يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » . « رواه مسلم » .

إن تقرير هذه الحقيقة الكبيرة ، وتعليق أنظار البشر بالله وحده ، وتعليق قلوبهم برضاه ، وأعمالهم بتقواه ، ونظام حياتهم بإذنه وشرعه ومنهجه دون سواه . إن هذا كله رصيد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة يضاف إلى حساب البشرية في حياتها الأرضية ، وزاد من الحرية والخير والكرامة والاستقامة تستمتع به في الأرض ، في هذه الحياة ، فأما ما يجزي الله به المؤمنين المقربين بالعبودية العاملين للصالحات ، في الآخرة ، فهو كرم منه وفضل في حقيقة الأمر ، وفيض من عطاء الله .

وفي هذا الضوء يجب أن ننظر إلى قضية الإيمان بالله بالصورة الناصعة التي جاء بها الإسلام ، وقرر أنها قاعدة الرسالة كلها ودعوة الرسل جميعاً ، قبل أن يحرفها الأتباع وتشوهها الأجيال . يجب أن ننظر إليها بوصفها ميلاداً جديداً للإنسان تتوافر معه الكرامة والحرية والعدل والصلاح ، والخروج من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده في الشعائر وفي نظام الحياة سواء .

والذين يستنكفون من العبودية لله ، يذلون لعبوديات في هذه الأرض لا تنتهي ، يذلون لعبودية الهوى والشهوة ، أو عبودية الوهم والخرافة ، ويذلون لعبودية البشر من أمثالهم ، ويحنون لهم الجباه ، ويحكمون في حياتهم وأنظمتهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم عبيداً مثلهم من البشر ، هم وهم سواء أمام الله ، ولكنهم يتخذونهم آلهة لهم من دون الله . هذا في الدنيا ، وأما في الآخرة . . « فيعذبهم ربهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

إن القرآن يستند في تقرير أن الحكم بما أنزل الله هو « الإسلام » وان ما شرعه الله للناس من حلال أو حرام هو « الدين » إلى أن الله هو « الإله الواحد » لا شريك له في ألوهيته ، وإلى أن الله هو الخالق الواحد لا شريك له في خلقه ، وإلى أن الله هو المالك الواحد لا شريك له في ملكه ، ومن ثم

يبدو حتمياً ومنطقياً ألاّ يقضى شيء إلاّ بشرعه وإذنه . فالخالق لكل شيء ، المالك لكل شيء ، هو صاحب الحق وصاحب السلطان في تقرير المنهج الذي يرتضيه لملكه ولخلقه ، وهو الذي يُطاع شرعه وينفذ حكمه . وإلاّ فهو الخروج والمعصية والكفر . . إنه هو الذي يقرر الاعتقاد الصحيح للقلب ، كما يقرر النظام الصحيح للحياة سواء بسواء ، والمؤمنون به هم الذين يؤمنون بالعقيدة التي يقررها ، ويتبعون النظام الذي يرتضيه . هذه كتلك سواء بسواء . وهم يعبدونه بإقامة الشعائر ، ويعبدونه باتباع الشرائع ، بلا تفرقة بين الشعيرة والشريعة ، فكلتاهما من عند الله ، الذي لا سلطان لأحد في ملكه وعباده معه ، بما أنه هو الإله الواحد ، المالك الواحد . العليم بما في السموات والأرض جميعاً ، ومن ثم فإن الحكم بشريعة الله هو دين كل نبي ، لأنه هو دين الله ولا دين سواه .

إن الله — سبحانه — هو وحده الإله ، وهو وحده الخالق ، وهو وحده المالك ، فهو وحده الذي يشرع ، وهو وحده الذي يحلل ويحرم وهو وحده الذي يطاع فيما يشرع ، وفيما يحرم أو يحلل ، كما أنه هو الذي يُعبد ، وهو وحده الذي يُتوجه إليه بالشعائر ، وقد أخذ الله الميثاق على عباده بهذا كله ، فهو يطالب الذين آمنوا أن يفوا بميثاقهم وتعاقدهم معه ، ويحذرهم عواقب نقض الميثاق وخلف العقود ، كما وقع من بني إسرائيل قبلهم : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » . . « يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ، ولا الهدي ولا القلائد ، ولا آمّين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً . . . » . . « واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به ، إذ قلتم سمعنا وأطعنا ، واتقوا الله ، إن الله عليم بذات الصدور » .

وإن تفرد الله — سبحانه — بالخلق يفرده سبحانه بالملك « ذلكم ربكم لا إله إلاّ هو ، خالق كل شيء ، فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل » . والمتفرد

بالخلق والملك يتفرد كذلك بالرزق ، فهو خالق خلقه ومالكهم، فهو كذلك يرزقهم من ملكه الذي لا شريك له فيه .

فكل ما يقتاته الخلق ، وكل ما يستمتعون به فإنما هو من هذا الملك الخالص لله ، فإذا تقررت هذه الحقائق : الخلق والملك والرزق تقرر معها ضرورة وحتماً أن تكون الربوبية له — سبحانه — فتكون له وحده خصائص الربوبية وهي القوامة والتوجيه والسلطان الذي يُخضع له ويطاع ، والنظام الذي يتجمع عليه العباد وتكون له وحده العبادة بكل مدلولاتها ومنها الطاعة والخضوع والاستسلام .

إن الله الذي خلق هذا الكون المشهود في ضخامته وفخامته ، والذي استعلى على هذا الكون يدبّره بأمره ويصرّفه بقدره . . « إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش » .

إن الله — سبحانه — الخالق المهيمن المصرف المدبر ، هو الرب الذي يستحق أن يكون رباً ، يربي بمنهجه ، ويجمع بنظامه ، ويشرع بإذنه ، ويقضي بين الناس بحكمه . إنه هو صاحب الخلق والأمر ، وكما أنه لا خالق معه ، فكذلك لا آمر معه .

إن العقل البشري — لو خلي بينه وبين هذا الواقع — لا يقره ولا يرضاه ولكنها الشهوات والأهواء، والتضليل والخداع هي التي تجعل البشرية بعدأربعة عشر قرناً من نزول هذا القرآن ترتد إلى هذه الجاهلية في — صورتها الجديدة— فتشرك ما لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ، ولا يملكون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ! . .

٢ _ « لا مالك الا الله »

إن الله — سبحانه — هو الذي تفرد بالخلق ، ومن ثم تفرد بالملك . . « له ما في السموات وما في الأرض » . فهي الملكية الشاملة كما أنها الملكية المطلقة . . الملكية التي لا يرد عليها قيد ولا شرط ، ولا فوت ولا شركة ، وهي مفهوم من مفاهيم الألوهية الواحدة . فالله الواحد هو الحي الواحد ، القيوم الواحد ، المالك الواحد ، وهي نفي للشركة في صورتها التي ترد على أذهان الناس ومداركهم كما أنها ذات أثر في إنشاء معنى الملكية وحقيقتها في دنيا الناس فإذا تمحضت الملكية الحقيقية لله ، لم يكن للناس ملكية ابتداء لشيء ، إنما كان لهم استخلاف من المالك الواحد الأصلي الذي يملك كل شيء ، ومن ثم يجب أن يخضعوا في خلافتهم لشروط المالك المستخلف في هذه الملكية ، وشروط المالك المستخلف قد بيّنها في شريعته ، فليس لهم أن يخرجوا عنها ، وإلاّ بطلت ملكيتهم الناشئة عن عهد الاستخلاف ، ووقعت تصرفاتهم باطلة ، ووجب رد هذه التصرفات من المؤمنين بالله في الأرض .

وهكذا نجد أثر التصور الإسلامي في التشريع الإسلامي ، وفي واقع الحياة العملية التي تقوم عليه ، وحين يقول الله في القرآن الكريم . . « له ما في السموات وما في الأرض » . . فإنه لا يقرر مجرد حقيقة تصورية اعتقادية ، إنما يضع قاعدة من قواعد الدستور للحياة البشرية ، ونوع الارتباطات التي تقوم فيها كذلك . « وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الذل وكبّره تكبيراً » .

على أن مجرد استقرار هذه الحقيقة في الضمير ، مجرد شعور الإنسان بحقيقة المالك – سبحانه – لما في السموات وما في الأرض ، مجرد تصور الإنسان لخلو يده هو من ملكية أي شيء مما يقال : إنه يملكه ، ورد هذه الملكية لصاحبها الذي له ما في السموات وما في الأرض ، مجرد إحساسه بأن ما في يده عارية لأمد محدود ، ثم يستردها صاحبها الذي أعارها له في الأجل المرسوم – مجرد استحضار هذه الحقائق والمشاعر كفيل وحده بأن يطامن من حدة الشر والطمع ، وحدّة الشح والحرص ، وحدة التكالب المسعور ، وكفيل كذلك بأن يسكب في النفس القناعة والرضى بما يحصل من الرزق ، والسماحة والجود بالموجود ، وأن يفيض على القلب بالطمأنينة والقرار ، في الوجدان والحرمان سواء ، فلا تذهب النفس حسرات على فائت أو ضائع ، ولا يتحرق القلب سعاراً على المرموق المطلوب !

إنها الحقيقة الناشئة من حقيقة الألوهية الواحدة، إله واحد، فهو المالك الواحد – « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء » .. هو مالك الملك ، بلا شريك ، ثم هو من جانبه يملّك من يشاء من ملكه . يملكه إياه تمليك العارية يستردها صاحبها ممن يشاء عندما يشاء . فليس لأحد ملكية أصلية يتصرف بها على هواه ، إنما هي ملكية معارة له خاضعة لشروط المملك الأصلي وتعليماته ، فإذا تصرف المستعير فيها تصرفاً مخالفاً لشروط المالك ، وقع هذا التصرف باطلاً ، وتحتّم على المؤمنين ردّه في الدنيا ، أما في الآخرة فهو محاسب على باطله ومخالفته لشرط المملك صاحب الملك الأصيل . وكذلك هو يعز من يشاء ويذل من يشاء بلا معقب على حكمه ، وبلا مجبر عليه ، وبلا راد لقضائه ، فهو صاحب الأمر كله بما أنه – سبحانه – هو الله ، وما يجوز أن يتولى هذا الاختصاص أحد من دون الله .

وكثيراً ما يصاحب إفراد الله – سبحانه – بالألوهية ، إفراده سبحانه بالملك والهيمنة والسلطان والقهر . « ولله ما في السموات وما في الأرض ، وكان الله بكل شيء محيطاً » . .

فالتوحيد الإسلامي ليس مجرد توحيد ذات الله ، وإنما هو توحيد إيجابي ، توحيد الفاعلية والتأثير في الكون ، وتوحيد السلطان والهيمنة أيضاً ، ومتى شعرت النفس أن لله ما في السموات وما في الأرض ، وأنه بكل شيء محيط ، لا يندّ شيء عن علمه ولا عن سلطانه ، كان هذا باعثها القوي إلى إفراد الله سبحانه بالألوهية والعبادة ، وإلى محاولة إرضائه باتباع منهجه وطاعة أمره ، وكل شيء ملكه ، وكل شيء في قبضته ، وهو بكل شيء محيط .

إن الله هو المالك الذي له ملك السموات والأرض وما فيهن . « ولله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير » . والمالك هو الذي يحكم . إنها قضية واحدة ، قضية الألوهية ، قضية التوحيد ، وقضية الحكم بما أنزل الله ، لتتوحد الألوهية ، ويتحقق التوحيد .

والأموال والأنفس والسموات والأرض والحياة والموت والولاية والنصرة كلها بيد الله دون سواه .

« إن الله له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » . . إنها الصلة بالله وفي الصلة بالله وحده كفاية وغناء .

ولله السيطرة المطلقة على السموات والأرض « الذي له ملك السموات والأرض » . إنها سيطرة الملكية والاستعلاء، سيطرة التصريف والتدبير ، وسيطرة التبديل والتغيير ، فسبحان الله صاحب الملك « فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » ولفظة ملكوت بصياغتها هذه تضخم وتعظم حقيقة هذه العلاقة ، علاقة الملكية المطلقة لكل شيء في الوجود ، والسيطرة القابضة على كل شيء من هذا المملوك . . « ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلاّ هو فأنى تصرفون » . « له ما في السموات وما في الأرض وهو العلي العظيم » . إن الله يقرر أنه المالك الوحيد لما في السموات وما في الأرض

وأنه وحده العلي العظيم ، وكثيراً ما يُخدع البشر فيحسبون أنهم يملكون شيئاً ؛ لمجرد أنهم يجدون أشياء في أيديهم ، مسخرة لهم ، ينتفعون بها ويستخدمونها فيما يشاؤون . ولكن هذا ليس مُلكاً حقيقياً ، إنما المُلك الحقيقي لله الذي يوجد ويعدم ، ويحيي ويميت ، ويملك أن يعطي البشر ما يشاء ، ويحرمهم ما يشاء ، وأن يذهب بما في أيديهم من شيء ، وأن يضع في أيديهم بدلاً مما أذهب .

وليس هو الملك لله فحسب ، ولكنه ملك العلو والعظمة على وجه التفرد كذلك ، العلو الذي كل شيء بالقياس إليه سفول . والعظمة التي كل شيء بالقياس إليها ضآلة ، ومتى استقرت هذه الحقيقة استقراراً صادقاً في الضمائر ، عرف الناس إلى أين يتجهون فيما يطلبون لأنفسهم من خير ومن رزق ومن كسب ، فكل ما في السموات وما في الأرض لله ، والمالك هو الذي بيده العطاء ، فله الملك — سبحانه — « هو الله الذي لا إله إلاّ هو الملك » .

إنها القاعدة التي تقوم عليها سائر الصفات ، فيستقر في الضمير أن لا مُلك إلاّ لله الذي لا إله إلاّ هو ، وإذا توحدت الملكية لم يبق للمملوكين إلاّ سيد واحد يتجهون إليه ولا يخدمون غيره . فالرجل لا يخدم سيدين في وقت واحد « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » . فالله — سبحانه — المالك للوجود والكون والمهيمن عليه ، القابض على ناصيته ، المتصرف فيه . « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير » . وهي حقيقة حين تستقر في الضمير تحدد له الوجهة والمصير ، وتخليه من التوجه أو الاعتماد أو الطلب من غير المالك المهيمن المتصرف في هذا الملك بلا شريك ، كما يخليه من العبودية والعبادة لغير المالك الواحد ، والسيد الفريد ، « وهو على كل شيء قدير » ، فلا يعجزه شيء ، ولا يفوته شيء ، ولا يحول دون إرادته شيء ، ولا يحد مشيئته شيء ، يخلق ما يشاء ، ويفعل ما يريد ، وهو قادر على ما يريده ، غالب على أمره ، لا تتعلق بإرادته حدود ولا قيود ، وهي حقيقة حين تستقر في

الضمير تطلق تصوره لمشيئته الله وفعله من كل قيد يرد عليه من مألوف الحس أو مألوف العقل ، أو مألوف الخيال !

فقدرة الله وراء كل ما يخطر للبشر على أي حال ، والقيود التي ترد على تصور البشر بحكم تكوينهم المحدود تجعلهم أسرى لما يألفون في تقدير ما يتوقعون من تغيير وتبديل فيما وراء اللحظة الحاضرة والواقع المحدود . فهذه الحقيقة تطلق حسهم من هذا الاسار ، فيتوقعون من قدرة الله كل شيء بلا حدود ، ويكلون لقدرة الله كل شيء بلا قيود ، وينطلقون من أسر اللحظة الحاضرة والواقع المحدود .

٣ - « لا رازق إلا الله »

لقد أوجب الله — سبحانه — مختاراً أن يرزق كل حيّ خَلَقَه . « وما من دابة في الأرض إلاّ على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين » . هذه الدواب — وكل ما تحرك على الأرض فهو دابة من إنسان وحيوان وزاحفة وهامة — ما من هذه الدواب التي تملأ وجه البسيطة ، وتكمن في باطنها ، وتخفي في دروبها ومساربها . ما من دابة من هذه الدواب التي تملأ وجه البسيطة التي لا يحيط بها حصر ولا يكاد يلم بها إحصاء ، إلاّ وعند الله علمها ، وعليه رزقها ، وهو يعلم أين تستقر وتكمن ، ومن أين تجيء وتذهب . . . وكل من أفرادها مقيد في هذا العلم الدقيق . . ويزيد على مجرد العلم ، تقدير الرزق لكل فرد من أفراد هذا الحشد الذي يعجز عن تصوره الخيال . وهذه درجة أخرى الخيال البشري عنها أعجز إلاّ بالهام من الله .

وقد أوجب الله — سبحانه — على نفسه مختاراً أن يرزق هذا الحشد الهائل الذي يدب على هذه الأرض ، فأودع هذه الأرض القدرة على تلبية حاجات هذه المخلوقات جميعاً ، وأودع هذه المخلوقات القدرة على الحصول على رزقها من هذا المودع في الأرض في صورة من صوره ، ساذجاً خامة ، أو منتجاً بالزرع ، أو مصنوعاً ، أو مركّباً . . إلى آخر الصور المتجددة لإنتاج الرزق وإعداده . وهذه الصورة اللائقة بحكمة الله ورحمته في خلق الكون على هذه الصورة التي خلقه بها ، وخلق هذه المخلوقات بالاستعدادات

والقدرات التي أوتيتها ، وبخاصة الإنسان الذي استخلف في الأرض ، وأوتي القدرة على التحليل ، والتركيب ، وعلى الإنتاج والإنماء ، وعلى تعديل وجه الأرض ، وعلى تطوير أوضاع الحياة ، بينما هو يسعى لتحصيل الرزق ، الذي لا يخلقه هو خلقاً وإنما ينشئه مما هو مذخور في هذا الكون من قوى وطاقات أودعها الله ، بمساعدة النواميس الإلهية الكونية التي تجعل هذا الكون يعطي مدخراته وأقواته لكافة الأحياء ، وليس المقصود أن هناك رزقاً فردياً مقدراً لا يأتي بالسعي . . . « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » .

نعم ، ليس المقصود أن هناك رزقاً فردياً مقدراً لا يأتي بالسعي ، ولا يتأخر بالقعود ، ولا يضيع بالسلبية والكسل كما يعتقد بعض الناس ! وإلاّ فأين الأسباب التي أمر الله بالأخذ بها ، وجعلها جزءاً من نواميسه ؟ وأين حكمة الله في إعطاء المخلوقات هذه المقدرات والطاقات ؟ وكيف تترقى الحياة في مدارج الكمال المقدر لها في علم الله ، وقد استخلف عليها الإنسان ليؤدي دوره في هذا المجال ؟

إن لكل مخلوق رزقاً ، هذا حق . وهذا الرزق مذخور في هذا الكون ، مقدر من الله في سننه التي ترتب النتاج على الجهد . فلا يقعدن أحد عن السعي ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة . ولكن السماء والأرض تزخران بالأرزاق الكافية لجميع المخلوقات ، حين تطلبها هذه المخلوقات حسب سنّة الله التي لا تحابي أحداً ، ولا تتخلف أو تحيد . إنما هو كسب طيب وكسب خبيث ، وكلاهما يحصل من عمل وجهد ، إلاّ أنه يختلف في النوع والوصف ، وتختلف عاقبة المتاع بهذا وذاك . . إن الله هو العالم المحيط علمه بكل خلقه ، وهو الرازق الذي لا يترك أحداً من رزقه ، وهذه المعرفة ضرورية لعقد الصلة بين البشر وخالقهم ، ولتعبيد البشر للخالق الرازق العالم المحيط .

والله — سبحانه — هو الذي يقدر الرزق فيوسع أو يضيق ، فالأمر كله

إليه « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدّر وفرحوا بالحياة الدنيا ، وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع » .

والأرزاق – ككل شيء – مقدرة في علم الله ، تابعة لأمره ومشيئته ، يصرفها حيث يشاء وكما يريد ، في الوقت الذي يريده حسب سنّته التي ارتضاها وأجراها في الناس والأرزاق . . « وإن من شيء إلاّ عندنا خزائنه ، وما ننزله إلاّ بقدر معلوم » .

فما من مخلوق يقدر على شيء أو يملك شيئاً ، إنما خزائن كل شيء – مصادره وموارده – عند الله في علاه ، ينزله على الخلق في عوالمهم بقدر معلوم ، فليس من شيء ينزل جزافاً .

والرزق من السماء والأرض متصل بالبدء والإعادة سواء ، ورزق العباد من الأرض يتمثل في صور شتى أظهرها النبات والحيوان والماء والهواء ، للطعام والشراب والاستنشاق ، ومنها كنوز الأرض من معادن وفلزات ، وكنوز البحر من طعام وزينة ، ومنها القوى العجيبة من مغناطيسية وكهرباء ، وقوى أخرى لا يعلمها بعد إلاّ الله ، ويكشف عن شيء منها لعباده آناً بعد آن .

وأما رزقهم من السماء فلهم منه في الحياة الدنيا : الضوء والحرارة والمطر وسائر ما يُيسره الله من القوى والطاقات ، ويهجس في النفس خاطر القلق على الرزق بسبب معاناة الجاهلية ، وأسباب الرزق معلومة . فالقرآن لا يدع هذا الخاطر دون لمسة تقر لها القلوب ، لمسة توقظ قلوبهم إلى الواقع المشهود في حياتهم . . « وكأين من دابة لا تحمل رزقها ، الله يرزقها وإياكم » . . فكم من دابة لا تحصل رزقها ولا تجمعه ولا تحمله ولا تهتم به ، ولا تعرف كيف توفّره لنفسها ، ولا كيف تحتفظ به معها ، ومع هذا فإن الله يرزقها

ولا يدعها تموت جوعاً . وكذلك يرزق الناس ، ولو خُيل إليهم أنهم يخلقون رزقهم وينشئونه.إنما يهبهم الله وسيلة الرزق وأسبابه.وهذه الهبة في ذاتها رزق من الله ، لا سبيل لهم إليه إلاّ بتوفيق الله . فلا مجال للقلق على الرزق عند معاناة الجاهلية ، فهم عباد الله يرزقهم الله حيث كانوا . ألا إنه لا يدرك هواجس القلوب هكذا إلاّ خالق القلوب ، ولا يداوي القلوب هكذا إلاّ الذي يعلم ما في القلوب والله يقرر أنه هو — سبحانه — يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر . .

« الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر . . » . . « وفي السماء رزقكم وما توعدون » .

إنه الرزق المقسوم ، وهي لفتة عجيبة ، فمع أن أسباب الرزق الظاهرة قائمة في الأرض حيث يكد فيها الإنسان يجهد وينتظر من ورائها الرزق والنصيب ، فإن القرآن يرد بصر الإنسان إلى السماء ، إلى الغيب ، إلى الله .

ليتطلع هناك إلى الرزق المقسوم والحظ المرسوم . أما الأرض وما فيها من أسباب الرزق الظاهرة ، فهي آيات للمؤمنين آيات ترد القلب إلى الله ليتطلع إلى الرزق من فضله ، ويتخلص من أثقال الأرض وأوهاق الحرص ، والأسباب الظاهرة للرزق ، فلا يدعها تحول بينه وبين التطلع إلى المصدر الأول الذي أنشأ هذه الأسباب .

والقلب المؤمن يدرك هذه اللفتة على حقيقتها ، ويفهمها على وضعها ، ويعرف أن المقصود بها ليس هو إهمال الأرض وأسبابها ، فهو مكلف بالخلافة فيها وتعميرها ، إنما المقصود هو ألاّ يعلق نفسه بها ، وألاّ يغفل عن الله في عمارتها ليعمل في الأرض وهو يتطلع إلى السماء ، وليأخذ بالأسباب وهو يستيقن أنها ليست هي التي ترزقه ، فرزقه مقدر في السماء وما وعده الله

لا بد أن يكون ، بذلك ينطلق قلبه من إسار الأسباب الظاهرة في الأرض ، بل يرف بأجنحته من هذه الأسباب إلى ملكوت السموات ، حين يرى في الأسباب آيات تدل على خالق هذه الأسباب ، ويعيش موصولاً قلبه بالسماء ، وقدماه ثابتان على الأرض .

فالله هو الذي يرزق . . « أم من هذا الذي يرزقكم » . . ورزق البشر معقود بإرادة الله في أول أسبابه في تصميم هذا الكون ، وفي عناصر الأرض والجو . وهي أسباب لا قدرة للبشر عليها إطلاقاً ، ولا تتعلق بعملهم بتاتاً ، فهي أسبق منهم في الوجود ، وهي أكبر منهم في الطاقة ، وهي أكبر منهم على محو كل أثر للحياة حين يشاء الله . فمن يرزق البشر إن أمسك الماء ، أو أمسك الهواء ، أو أمسك العناصر الأولى التي منها ينشأ وجود الأشياء .

إن مدلول الرزق أوسع مدى وأقدم عهداً وأعمق جذوراً مما يتبادر إلى الذهن عند من يسمع هذه الكلمة ، ومردّ كل صغيرة وكبيرة فيه إلى قدرة الله وقدره ، وإرساله للأسباب وإمساكها حين يشاء .

وفي هذا المدلول الكبير الواسع العميق تنطوي سائر المدلولات القريبة لكلمة الرزق ، مما يتوهم الإنسان أنها من كسبه وفي طوقه ، كالعمل والإبداع والإنتاج . . . وكلها مرتبطة بقيام الأسباب والعناصر الأولى من جهة ، ومتوقفة على هبة الله للأفراد والأمم من جهة أخرى . فأي نفسٍ يتنفسه العامل ، وأي حركة يتحركها ، إلاّ من رزق الله الذي أنشأه ومنحه المقدرة والطاقة ، وخلق له النَّفَس الذي يتنفسه ، والمادة التي تحترق في جسده فتمنحه القدرة على الحركة ؟ وأي جهد عقلي يبذله مخترع إلاّ وهو من رزق الله الذي منحه القدرة على التفكير والإبداع ؟ وأي إنتاج ينتجه عامل أو مبدع إلاّ في مادة هي من صنع الله ابتداء ، وإلاّ بأسباب كونية وإنسانية هي من رزق الله أصلاً . فأنّى يتخذ بعضهم بعضاً عبيداً ويتخذ بعضهم بعضاً أرباباً ، ورزق الجميع

بيد الله ، وكلهم عيال الله . . « وترزق من تشاء بغير حساب » . . فالله هو المانح المانع .

ومن زاوية الرزق والكسب يعالج القرآن قضية الشرك ، وآثارها في حياتهم وفي حياة من قبلهم « الله الذي خلقكم ، ثم رزقكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم . هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون » .

إن الله يواجههم بواقع أمرهم وحقائق حالهم التي لا يملكون أن يماروا في أن الله وحده هو موجدها ، أو التي لا يملكون أن يزعموا أن لآلهتهم المدعاة مشاركة فيها . يواجههم بأن الله هو الذي خلقهم ، وأنه هو الذي رزقهم وأنه هو يميتهم ، وأنه هو يحييهم . فأما الخلْق فهم يقرون به ، وأما الرزق فهم لا يملكون أن يزعموا أن لآلهتهم المدعاة أن ترزقهم شيئاً . « هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لا إله إلاّ هو فأنّى تؤفكون » .

في كل لحظة فيض ينسكب من خيرات الله ونعمه من السماء والأرض ، يفيضها الخالق على خلقه . فهل من خالق غيره يرزقهم بما في أيديهم من هذا الفيض العميم . إنهم لا يملكون أن يقولوا هذا ، وما كانوا يدعونه وهم في أغلظ شركهم وأضله . فإذا لم يكن هناك خالق رازق غير الله ، فما لهم لا يتذكرون ولا يشكرون . . وإنه لعجيب أن ينصرف منصرف عن مثل هذا الحق الذي يواجههم به ما بين أيديهم من الرزق . « له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » . إن الله هو الذي يتولى أمر رزقهم قبضاً وبسطاً ، فهو رازقهم وكافلهم ومطعمهم وساقيهم ، فلمن غيره يتجهون إذن ليحكم بينهم فيما يختلفون فيه ؟ وإنما يتجه الناس إلى الرازق الكافل المتصرف في الأرزاق ، الذي يدبر هذا كله بعلم وتقدير والذي يعلم كل شيء.

إن قضية الألوهية واحدة لا تتعدد ، إن القرآن يقرر وحدة الإله ، ووحدة

المالك ، ووحدة المنعم . فكيف يُسوى المالك الرازق بمن لا يقدر ولا يملك ولا يرزق ؟ فيقال هذا إله وهذا إله .

والرزق مشغلة النفوس ، وبخاصة تلك التي لم يستغرقها الإيمان ، ولكن ابتغاء الرزق من الله وحده حقيقة لا مجرد استثارة للميول الكامنة في النفوس . .

« إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً ، فابتغوا عند الله الرزق » . .

إن الخالق الرازق هو الرب المالك ، الذي لا يجوز أن يُتصرف في هذا الحال إلاّ بإذنه ممثلاً في شرعه ، وشرعه ممثل فيما جاء به رسوله من عنده .

والمنهج القرآني يكثر من عرض حقيقة الرزق الذي يختص الله بمنحه للناس ، ليتخذ منها برهاناً على ضرورة إفراد الله سبحانه بالحاكمية في حياة الناس . فإن الخالق الرازق الكافل وحده ، هو الحقيق بأن تكون له الربوبية والحاكمية والسلطان وحده . . بلا جدال . . .

« قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون : الله . قل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلاّ الضلال ؟ فأنّى تصرفون » .

قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟ إنهم لم يكونوا ينكرون وجود الله ، أو ينكرون يده في هذه الشؤون الكبار ، ولكن انحراف الفطرة كان يقودهم مع هذا الاعتراف إلى الشرك بالله ، فيتوجهون بالشعائر إلى سواه ، كما يتبعون شرائع لم يأذن بها الله . .

والعقيدة الصحيحة عصمة من هذا . إذ الرزق بيد الله يرزق الجميع ،

ولا يصيب أحداً إلاّ ما كتب له . . « ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون » . . وإنه لعجيب أن تنحرف الفطرة إلى هذا الحد ، فيتجه الناس بالعبادة إلى من لا يملك لهم رزقاً وما هو بقادر في يوم من الأيام[1] ، ولا في حال من الأحوال ويدّعون الله الخالق الرازق ، وآلاؤه بين أيديهم لا يملكون إنكارها ، ثم يجعلون لله الأشباه والأمثال » . .

(١) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم – وهو الصادق المصدوق – : «ان أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله ، وشقي أم سعيد . . . » (متفق عليه) .

٤ - « لا ضار ولا نافع الا باذن الله »

إن الله يقرر كلية التصور الإسلامي الأساسية ، وهي أنه لا يقع شيء في هذا الوجود إلاّ بإذن الله . . « وما هم بضارين به من أحد إلاّ بإذن الله » . فبإذن الله تفعل الأسباب فعلها ، وتنشىء آثارها وتحقق نتائجها . . وهذه قاعدة كلية في التصور الإسلامي لا بد من وضوحها في ضمير المؤمن تماماً . وأقرب ما يمثل هذه القاعدة في مثل هذا المقام أنك إذا عرّضت يدك للنار فإنها تحترق ، ولكن هذا الاحتراق لا يكون إلاّ بإذن الله . فالله هو الذي أودع النار خاصية الحرق ،وأودع يدك خاصية الاحتراق بها ،وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها ، كما وقع لإبراهيم (١) – عليه السلام – ، وهكذا بقية ما نتعارف عليه بأنه مؤثرات وآثار .

كل مؤثر مودع خاصية التأثير بإذن الله ، فهو يعمل بهذا الإذن ، ويمكن أن يوقف مفعوله كما أعطاه هذا المفعول حين يشاء . وإن أمر الغيب كله لله ، لا يطلع على شيء منه إلاّ من شاء ، بالقدر الذي يشاء ، في الوقت الذي يشاء . . لذلك لا يملك العباد لأنفسهم نفعاً ولا ضراً . . « قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلاّ ما شاء الله . ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني من السوء . إن أنا إلاّ نذير وبشير لقوم يؤمنون » . .

---

(١) يقول سبحانه « قلنا : يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » . (سورة الأنبياء ٦٩) .

فقد يفعلون الأمر يريدون به رفع الضر عنهم ، ولكن عاقبته المغيبة تجره عليهم ! وقد يفعلون الأمر يكرهونه فإذا عاقبته هي الخير ويفعلون الأمر يحبونه فإذا عاقبته هي الضر . . « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم » . .

إنه يمثل موقف البشرية أمام الغيب المجهول . ومهما يعمل الإنسان ، ومهما يتعلم ، فإن موقفه أمام باب الغيب الموصد وأمام ستر الغيب المسدل ، سيظل يذكره ببشريته المحجوبة أمام عالم الغيب المحجوب . والرسول صلى الله عليه وسلم وهو من هو ، وقربه من ربه هو قربه ، مأمور أن يعلن للناس أنه أمام غيب الله ، بشر من البشر ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، لأنه لا يطلع على الغيب ، ولا يعرف الغايات قبل المذاهب ، ولا يرى مآل أفعاله ، ومن ثم لا يملك أن يختار عاقبة فعله ، بحيث إن رأى العاقبة المغيبة خيراً أقدم ، وإن رآها سوءاً أحجم . إنما هو يعمل ، والعاقبة تجيء كما قدّر الله في غيبه المكنون .

وبهذا الإعلان تم لعقيدة التوحيد الإسلامية كل خصائص التجرد المطلق ، من الشرك في أية صورة من صوره ، وتتفرد الذات الإلهية بخصائص لا يشاركها البشر في شيء منها ، ولو كان هذا البشر محمداً رسول الله وحبيبه ومصطفاه — عليه صلوات الله وسلامه — فعند عتبة الغيب تقف الطاقة البشرية ، ويقف العلم البشري . وعند حدود البشرية يقف شخص رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وتتحدد وظيفته . . « قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً » .

يؤمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يتجرد ، ويؤمر أن ينفض يديه من كل ادعاء لشيء هو من خصائص الله الواحد الذي يعبده ، ولا يشرك به أحداً . فهو وحده الذي يملك الضر ويملك الخير ، وبهذا يتجرد كل شيء ، ويتجرد النبي صلى الله عليه وسلم في المقدرة على النفع والضر ،

وتنفرد الذات الإلهية بهذا الأمر ، ويستقيم التصور الإيماني على هذا التجرد الكامل الصريح الواضح . . « قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلاّ ما شاء الله ».

وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، فهو لا يملك لهم الضر والنفع بطبيعة الحال فالأمر إذن لله .

.. « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلاّ هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير . . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » . . .

إنه تتبع هواجس النفس ووساوس الصدر ، وتتبع مكامن الرغائب والمخافات ، ومطارح الظنون والشبهات وتجلية هذا كله بنور العقيدة وفرقان الإيمان ، ووضوح التصور وصدق المعرفة بحقيقة الألوهية . .

لماذا يتخذ غير الله ولياً ، ويُعرض نفسه للشرك الذي ينهى الله عنه ، وللمخالفة عن الإسلام الذي أمر به ؟

العلة في ذلك رجاء جلب نفع أو دفع ضر في هذه الحياة الدنيا ؟ رجاء نصرة الناس له في الضراء ، ورجاء نفع الناس له بالسراء ؟

إن هذا كله بيد الله ، وله القدرة المطلقة في عالم الأسباب ، وله القهر كذلك على العباد ، وعنده الحكمة والخبرة في المنع والعطاء. ما أحوج من يواجه الجاهلية بطاغوتها وجبروتها وبإعراضها وعنادها ، وبالتوائها وكيدها ، وبفسادها وانحلالها . . ما أحوج من يواجه هذا الشر كله ، أن يستصحب في قلبه هذه الحقائق وهذه المشاعر ، مخافة المعصية والولاء لغير الله ، ومخافة العذاب الرهيب الذي يترقب العصاة . . واليقين بأن الضار النافع (١) هو

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خلف النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : « يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وان اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء ←

الله . وأن الله هو القاهر فوق عباده ، فلا معقب على حكمه ولا رادّ لما قضاه . إن قلباً لا يستصحب هذه الحقائق وهذه المشاعر لن يقوى على تكاليف إنشاء الإسلام من جديد في وجه الجاهلية الطاغية . وهي تكاليف هائلة تنوء بها الجبال .

إنه لا بد للمسلم أن يقف هذا الموقف من الجاهلية التي تغمر الأرض ، لا بد أن يقذف في وجهها بكلمة الحق هذه عالية مدوية قاطعة فاصلة ، مزلزلة رهيبة ثم يتجه إلى الله الذي يعلم أنه على كل شيء قدير ، وأنه هو القاهر فوق عباده ، وأن هؤلاء العباد — بما فيهم الطواغيت المتجبرون — أضعف من الذباب ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ! إنهم ليسوا بضارين من أحد إلاّ بإذن الله ، وليسوا بنافعين أحداً ، إلا بإذن الله ، وإن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . والله يأمر نبيه بإعلان حقيقة هذا التصور . . « قل أندعو من دون ما لا ينفعنا ولا يضرنا ؟ » . قل لهم يا محمد مستنكراً ما هم عليه من دعوة غير الله والاستعانة به ، وإسلام مقادهم لهؤلاء الذين يدعونهم من دونه ، وهم لا يملكون نفعاً ولا ضراً ، سواء كان ما يدعونه وثناً أو صنماً ، حجراً أو شجراً ، روحاً أم ملكاً ، شيطاناً أم إنساناً . فكلهم سواء في أنهم لا ينفعون ولا يضرون ، فهم أعجز من النفع والضر ، وكل حركة إنما تجري بقدر من الله . فما لم يأذن به الله لا يكون ، ولا يكون إلا قَدَرَه ، وما جرى به قضاؤه من الأمور .

والنفس حين تنحرف لا تقف عند حد من السخف ، وهذه الأرباب المتعددة التي يعبدونها لا تملك لهم نفعاً ولا ضراً . . « ويعبدون من دون الله

← قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف » . رواه الترمذي وقال حديث صحيح . وفي رواية غير الترمذي « احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً » .

ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل : أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون » . . إنهم كانوا يظنون أن هذه الأرباب تشفع لهم عند الله ، والله سبحانه لا يعلم أن هناك من يشفع عنده مما تزعمون ! فهل تعلمون أنتم ما لا يعلمه ، وتنبئونه بما لا يعلم له وجوداً في السموات ولا في الأرض ؟

إنه أسلوب ساخر يليق بهذا السخف الذي يلجون فيه ، يعقبه التنزيه عما لا يليق بجلاله . . « سبحانه وتعالى عما يشركون » . .

فالله سبحانه بيده الضر والنفع . . « ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك . فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين » .

لا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك من هؤلاء الشركاء ، الذي يدعوهم المشركون لجلب النفع ودفع الضر ، فإن فعلت فإنك إذن من هؤلاء المشركين ؟ فميزان الله لا يحابي وعدله لا يلين . .

« وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلاّ هو ، وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم » .

فالضر نتيجة لازمة لسنّة الله الجارية حين يتعرض الإنسان لأسبابه ، والخير كذلك . . فإن مسّك الله بضر عن طريق جريان سنّته فلن يكشفه عنك إنسان ، إنما يكشف باتباع سنّته ، وترك الأسباب المؤدية إلى الضر إن كانت معلومة ، أو الالتجاء إلى الله ليهديك إلى تركها إن كانت مجهولة ، وإن أراد بك الخير ثمرة لعملك وفق سنّته فلن يردّ هذا الفضل عنك أحد من خلقه ، فهذا الفضل يصيب من عباده من يتصلون بأسبابه وفق مشيئته العامة وسننه الماضية ، فلا يملك أحد أن يكشف ضراً . . « قل ادعوا الذين زعمتم فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً » . . فليس أحد بقادر

على أن يكشف الضر أو يحوله إلاّ الله وحده ، المتصرف في أقدار عباده . فهو ربُّ كل شيء وخالق كل شيء وبيده كل شيء . . « قل من رب السموات والأرض ؟ قل : الله . أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً قل هل يستوي الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوي الظلمات والنور؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » . . .

سلهم للاستنكار فهم بالفعل قد اتخذوا أولئك الأولياء ، سلهم والقضية واضحة ، والفرق بين الحق والباطل واضح وضوح الفارق بين الأعمى والبصير ، وبين الظلمات والنور ، أم ترى هؤلاء الشركاء الذين اتخذوهم من دون الله خلقوا مخلوقات كالتي خلقها الله فتشابهت على القوم هذه المخلوقات وتلك ، فلم يدروا أيّها من خلق الله وأيها من خلق الشركاء ؟ فهم معذورون . إذن إن الأمر كذلك، في اتخاذ الشركاء فليس لهم من صفات الله تلك القدرة على الخلق ، الذي يستحق بها المعبود العبادة ، وبدونها لا تقوم شبهة في عدم استحقاقه.

وهو التهكم المرّ على القوم يرون كل شيء من خلق الله ، ويرون هذه الآلهة المدعاة لم تخلق شيئاً ، ما هي بخالقة شيئاً ، إنما هي مخلوقة . وبعد هذا كله يعبدونها ويدينون لها في غير شبهة . وذلك أسخف وأحط ما تصل العقول إلى دركه من التفكير . فهي لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً . .«ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم » .

لقد كانوا يقرون ــ حين يُسألون ــ أن الله هو خالق السموات والأرض.. « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن الله . قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هنّ كاشفات ضره ؟ أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته . قل حسبي الله . عليه يتوكل المتوكلون » . .

لقد كانوا يقرون أن الله هو خالق السموات والأرض ، وما تملك فطرة

أن تقول غير هذا ، وما يستطيع عقل أن يعلل نشأة السموات والأرض إلاّ وجود إرادة عليا ، فهو يأخذهم ويأخذ العقلاء جميعاً بهذه الحقيقة الفطرية الواضحة . . إذا كان الله هو خالق السموات والأرض فهل يملك أحد أو شيء في هذه السموات والأرض أن يحبس رحمة أراد الله أن تنال عبداً من عباده . والجواب القاطع : أن لا . . فإذا تقرر هذا فما الذي يخشاه داعية إلى الله ؟ ما الذي يخشاه وما الذي يرجوه ؟ وليس أحد بكاشف الضر عنه ؟ وليس أحد بمانع الرحمة عنه ؟ وما الذي يقلقه أو يخيفه أو يصده عن طريقه .

إنه متى استقرت هذه الحقيقة في قلب مؤمن فقد انتهى الأمر بالنسبة إليه ، وقد انقطع الجدل ، وانقطع الأمل إلاّ في جناب الله سبحانه ، فهو كاف عبده ، وعليه يتوكل وحده . . « قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون » . ثم إنها الطمأنينة بعد هذا والثقة واليقين . الطمأنينة التي لا تخاف ، والثقة التي لا تقلق ، واليقين الذي لا يتزعزع .

فهذه هي حقيقة القدرة المسيطرة على الوجود . . « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلاّ في كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور » .

وبهذا تستقر النفس وتطمئن لما يصيبها من خير أو شر وهي في طريقها إلى الله ، فلا تطير جزعاً ، ولا تبطر فرحاً ، وهي تواجه السراء والضراء ، ولا تشرك بالله سبباً ولا ظرفاً ولا حادثاً . فكله بقدر مقسوم لأجل معلوم . ومردّ الأمر كله في النهاية إلى الله . « قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً ؟ بل كان الله بما تعملون خبيراً » .

إنه سؤال يوحي بالاستسلام لقدر الله ، والطاعة لأمره بلا توقف ولا

تلكؤ . فالتوقف أو التلكؤ لن يدفع ضرراً ، ولا يؤخر نفعاً . وانتحال المعاذير لا يخفى على علم الله .

والقلب البشري الذي يوحد الله ، يدين لله وحده ، ولا يحني هامته لأحد سواه ، ولا يطلب شيئاً من غيره ، ولا يعتمد على أحد من خلقه ، فالله وحده هو القوي عنده ، وهو القاهر فوق عباده . والعباد كلهم ضعاف مهازيل ، لا يملكون له ضراً ولا نفعاً . فلا حاجة به إلى أن يحني هامته لواحد منهم ، وهم مثله لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً . والله وحده هو المانح المانع ، فلا حاجة به إلى أن يتوجه لأحد غيره ، وهو الغني والخلق كلهم فقراء .

وكذلك تبدو آثار التوحيد في التصورات والمشاعر ، كما تبدو في السلوك والتصرفات . وترسم للحياة كلها منهاجاً كاملاً واضحاً متميزاً . ولا يعود التوحيد كلمة تقال باللسان ، ومن ثم تلك العناية بتقرير عقيدة التوحيد وتوضيحها وتكرار الحديث عنها في الكتاب الذي أنزله الله . وهو حديث يحتاج إلى تدبره كل أحد ، في كل عصر ، وفي كل بيئة . فالتوحيد بمعناه ذاك معنى ضخم شامل يحتاج إلى فهم وإدراك .

٥ — « لا إله إلا هو يحيي ويميت »

إن الله يتفرد بالألوهية وحده ، فالكل له عبيد . . والذي تتجلى قدرته وألوهيته في أنه الذي يُحيي ويميت . . والذي يملك الوجود كله ، والذي له الألوهية على الخلائق وحده ، والذي يملك الحياة والموت للناس جميعاً . . هو الذي يستحق أن يدين الناس بدينه .

إن شهادة أن لا إله إلاّ الله لها صورة أخرى من صور هذا المضمون الذي لا يقوم بدونه إيمان ولا إسلام يقول الله سبحانه « الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلاّ هو يُحيي ويُميت » فالأمر هو أمر الإيمان بالله الذي هذه صفاته الحقة .

والحياة والموت حادثان يقعان في كل لحظة ، وليس إلاّ الله يملك الموت والحياة ، فالبشر — أرقى الخلائق — أعجز من بثّ الحياة في خلية واحدة ، وأعجز كذلك من سلب الحياة سلباً حقيقياً عن حيٍّ من الأحياء . . فالذي يهب الحياة هو الذي يعرف سرها ، ويملك أن يهبها ويستردها . والبشر قد يكونون سبباً وأداة لازهاق الحياة ، ولكنهم هم ليسوا الذين يجردون الحي من حياته على وجه الحقيقة . إنما الله هو الذي يُحيي ويميت وحده دون سواه « وهو الذي يُحيي ويميت » . .

إن الله — سبحانه — يريد تصحيح التصور عن الموت والحياة ، وأسبابهما

الظاهرة ، وحقيقتهما المضمرة ، وردّ الأمر فيهما إلى القـــدرة المدبرة . والاطمئنان إلى قدرة الله فيهما . والمضي في حمل التكاليف والواجبات دون هلع ولا جزع . فالمقدر كائن ، والموت والحياة بيد الله في نهاية المطاف . . إن الحذر من الموت لا يجدي ، وان الفزع والهلع لا يزيدان حياة ، ولا يمدان أجلاً ، ولا يردان قضاء ، وإن الله هو واهب الحياة ، وهو آخذ الحياة ، وأنه متفضل في الحالتين حين يهب وحين يسترد ، والحكمة الإلهية الكبرى كامنة خلف الهبة وخلف الاسترداد . وان مصلحة الناس متحققة في هذا وذاك ، وان فضل الله عليهم متحقق في الأخذ والمنح سواء . . إن الفزع والجزع والحذر لن تغير مصير الناس ولن تدفع عنهم الموت ، ولن ترد عنهم قضاء الله . والثبات والصبر أوْلى . فالهلع لا يرد قضاء ، وان الفزع لا يحفظ حياة ، وإن الحياة بيد الله هبة منه بلا جهد من الأحياء . . إذن فلا نامت أعين الجبناء !

إن الحياة والموت ، وحقيقة الحياة والموت تؤلف جانباً من جوانب التصور الإسلامي . . هذا التصور الذي لا بد منه للاقبال على الحياة بعد ذلك إقبالاً بصيراً ، منبثقاً من الرؤية الصحيحة الواضحة ، وقائماً على اليقين الثابت المطمئن . فنظام الحياة ومنهج السلوك وقواعد الأخلاق والآداب . . ليست بمعزل عن التصور الاعتقادي ، بل هي قائمة عليه ، مستمدة منه . وما يمكن أن تثبت وتستقيم ويكون لها ميزان مستقر إلاّ أن ترتبط بالعقيدة ، وبالتصور الشامل لحقيقة هذا الوجود وارتباطاته بخالقه الذي وهبه الوجود . . ومن ثم هذا التركيز القوي على إيضاح قواعد التصور الاعتقادي الذي استغرق القرآن المكي كله ، وما يزال يطالع الناس في القرآن المدني بمناسبة كل تشريع وكل توجيه في شؤون الحياة جميعاً .

والإحياء والإماتة أمران مشهودان للجميع ، وأمرهما خارج عن طاقة كل مخلوق . يبدو هذا بأيسر نظر وأقرب تأمل . ومشهد الموت كمشهد الحياة

في كل صورة وفي كل شكل يلمس القلب البشري ويهزّه ، ويستجيشه ، ويعده للتأثر والانفعال ويهيئه للتقبل والاستجابة . ومن ثم يكثر ذكره في القرآن وتوجيه المشاعر إليه ولمس القلوب به بين الحين والحين يقول الله سبحانه « لا إله إلاّ هو يحيي ويميت ربّكم وربّ آبائكم الأولين » . فهو الإله الواحد الذي يملك الموت والحياة « الله يتوفى الأنفس حين موتها » فالله سبحانه يتوفى الآجال للأنفس حين تموت .

فالموت يواجه القلب البشري ويضرب عليه حصاراً لا مهرب منه . . حقيقة الموت القاسية الرهيبة التي تواجه كل حي ، فلا يملك لها ردّاً ، ولا يملك لها أحد من حوله دفعاً . . وهي تتكرر في كل لحظة ، ويواجهها الكبار والصغار ، والأغنياء والفقراء ، والأقوياء والضعاف ، ويقف الجميع منها موقفاً واحداً . . لا حيلة ولا وسيلة . ولا قوة ، ولا شفاعة . ولا دفع . ولا تأجيل . . مما يوحي بأنها قادمة من جهة عليا لا يملك البشر منعها جميعاً . ولا مفر من الاستسلام لإرادة تلك الجهة العليا . . « كلا إذا بلغت التراقي وقيل من راق وظن أنه الفراق والتفّت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق » .

إنه مشهد الموت . الموت الذي ينتهي إليه كل حي . والذي لا يدفعه عن غيره حي . الموت الذي يفرق الأحبة ، ويمضي في طريقه لا يتوقف ، ولا يتلفت ، ولا يستجيب لصرخة ملهوف ، ولا لحسرة مفارق ، ولا لرغبة راغب ، ولا لخوف خائف ! الموت الذي يصرع الجبابرة بنفس السهولة التي يصرع بها الأقزام، ويقهر بها المتسلطين كما يقهر المستضعفين سواء! الموت الذي لا حيلة للبشر فيه . وهم مع هذا لا يتدبرون القوة القاهرة التي تجريه في الوقت المحدد « حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون » . . فكل نفس معدودة الأنفاس ، متروكة لأجل لا تعلمه — فهو بالنسبة لها غيب لا سبيل إلى كشفه — بينما هو مرسوم محدد في علم الله ، لا يتقدم ولا يتأخر ، وكل نفس موكلة بأنفاسها وأجلها ، حفيظ قريب مباشر

حاضر ، لا يغفو ولا يغفل ولا يهمل ــ فهو حفيظ من الحفظة ــ وهو رسول من الملائكة . . فإذا جاءت اللحظة المرسومة الموعودة ، والنفس مشغولة أدّى الحفيظ مهمته ، وقام الرسول برسالته . . وهذا التصور كفيل بأن يرتعش له الكيان البشري ، وهو يحسّ بالقدر الغيبي يحيط به ويعرف أنه في كل لحظة قد يُقبض ، وفي كل نَفَس قد يحين الأجل المحتوم « وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم » .

إن الله يلمس القلوب بطائف الموت الذي قد يكون مخبأ لهم ــ من قريب ــ في عالم المجهول المغيب ، وهم عنه غافلون ، فما يدريهم أن أجلهم قريب ؟ وما يبقيهم في غفلتهم سادرين ، وهم عن غيب الله محجوبون ؟ وهم في قبضته لا يفلتون ؟ . . إن هذه اللمسة بالأجل المغيب ، الذي يكون قد اقترب لتهزّ القلب البشري هزة عميقة لعله أن يستيقظ ويتفتح ويرى . . والله منزل هذا القرآن وخالق هذا الإنسان يعلم أن هذه اللمسة لا تبقي قلباً غافلاً . . ولكن بعض القلوب قد يعاند بعد ذلك ويكابر !

إنه الموت نهاية كل حي ولا يتفرد بالبقاء إلاّ الله .. «إنك ميت وانهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » . . وفي الموت يستوي كل البشر بما فيهم محمد صلى الله عليه وسلم ، وذكر هذه الحقيقة حلقة من حلقات التوحيد الذي يقرره القرآن ويؤكده . والموت ليس نهاية المطاف ، إنما هو حلقة ، لها ما بعدها من حلقات النشأة المقدرة المدبرة .

فكل حادث فهو فان ، وكل ماله بدء فله نهاية . . هذا هو الناموس الذي يحكم الحياة . وهذه هي السنّة التي ليس لها استثناء « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد . أفإن متّ فهم الخالدون ؟ كل نفس ذائقة الموت » . . فما أجدر الأحياء أن يحسبوا حساب هذا المذاق . . إنه الموت نهاية كل حي ، وعاقبة المطاف للرحلة القصيرة على الأرض . . وإلى الله يرجع الجميع .

واقعية التصور الإسلامي وآثاره السلوكية :

إن هذه العقيدة تعلم أصحابها — فيما تعلم — أن ليس لهم في أنفسهم شيء ، فهم كلهم لله ، وأنهم حين يخرجون للجهاد في سبيله يخرجون له ، ويتحركون له ويقاتلون له ، بلا هدف آخر لذواتهم في هذا الجهاد ، وأنهم يُسلّمون أنفسهم لقدره ، فيتلقون ما يأتيهم به هذا القدر في رضى وفي تسليم ، كائناً هذا القدر ما يكون . فأما الذين تهمهم أنفسهم ، وتصبح محور تفكيرهم وتقديرهم ، ومحور اهتمامهم وانشغالهم .. فهؤلاء لم تكتمل في نفوسهم حقيقة الإيمان . يقول سبحانه عنهم .. « يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا » .. وهو الهاجس الذي يجيش في النفوس التي لم تخلص للعقيدة ، حينما تصطدم في موقعة بالهزيمة ، وحينما تعاني آلام الهزيمة ! حينما ترى الثمن أفدح مما كانت تظن ، وان الثمرة أشد مرارة مما كانت تتوقع ، وحين تفتش في ضمائرها فلا ترى الأمر واضحاً ولا مستقراً ، وحين تتخيل أن تصرف القيادة هو الذي ألقى بها في هذه المهلكة ، وكانت في نجاة من الأمر لو كان أمرها في يدها ! وهي لا يمكن — بهذا الغبش من التصور — أن ترى يد الله وراء الأحداث ، ولا حكمته في الابتلاء . إنما المسألة كلها — في اعتبارها — خسارة في خسارة ! وضياع في ضياع .. والله يصحح الأمر كله .. أمر الحياة والموت . ولأمر الحكمة الكامنة وراء الابتلاء .. « قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم . وليبتلي الله ما في صدوركم ، وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور » .. قل لو كنتم في بيوتكم ، ولم تخرجوا للمعركة تلبية لنداء القيادة ، وكان أمركم كله لتقديركم . لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم .. إن هناك أجلاً مكتوباً لا يستقدم ولا يستأخر . وإن هناك مضجعاً مقسوماً لا بد أن يجيء إليه صاحبه فيضجع فيه ! فإذا حمّ الأجل ، سعى صاحبه بقدميه إليه ، وجاء إلى مضجعه برجليه ، لا يسوقه أحد إلى أجله المرسوم ، لا يدفعه أحد

إلى مضجعه المقسوم . . مضجع يأتون إليه بدافع خفي لا يدركونه ، ولا يملكونه ، إنما هو يدركهم ويملكهم ، ويتصرف في أمرهم كما يشاء ، والإستسلام له أروح للقلب ، وأهدأ للنفس ، وأريح للضمير .

إن الله سبحانه يبين حقيقة قدره في الموت والحياة ، وزيف تصورات الكفار والمنافقين عن هذا الأمر . منادياً الذين آمنوا بالتحذير من أن تكون تصوراتهم كتصورات هؤلاء : « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا . ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم » . .

إن قول الكافرين « لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا » . . ليكشف عن الفارق الأساسي في تصور صاحب العقيدة وتصور المحروم منها ، للسنن التي تسير عليها الحياة كلها وأحداثها : سراؤها وضراؤها . . إن صاحب العقيدة مدرك لسنن الله ، متعرف إلى مشيئة الله ، مطمئن إلى قدر الله . إنه يعلم أنه لن يصيبه إلاّ ما كتب الله له ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وان ما أخطأه لم يكن ليصيبه . ومن ثم لا يتلقى الضراء بالجزع ، ولا يتلقى السراء بالزهو ، ولا تطير نفسه لهذه أو لتلك ، ولا يتحسر على أنه لم يصنع كذا ليتقي كذا ، أو ليستجلب كذا بعد وقوع الأمر وانتهائه !

فمجال التقدير والتدبير والرأي والمشورة كله قبل الإقدام والحركة ، فأما إذا تحرك بعد التقدير والتدبير – في حدود علمه وفي حدود أمر الله ونهيه – فكل ما يقع من النتائج ، فهو يتلقاه بالطمأنينة والرضى والتسليم ؛ موقناً أنه وقع وفقاً لقدر الله وتدبيره وحكمته ، وأنه لم يكن بد أن يقع كما وقع ؛ ولو أنه هو قدّم أسبابه بفعله !

توازن بين العمل والتسليم ، وبين الإيجابية والتوكل ، يستقيم عليه الخطو ، ويستريح عليه الضمير . . فأما الذي يفرغ قلبه من العقيدة في الله على هذه

الصورة المستقيمة ، فهو أبداً مستطار ، أبداً في قلق ! أبداً في « لو » و « لولا » و « يا ليت » و « أسفاه » !

إن الله — سبحانه — يحذر المؤمنين أن يكونوا كالذين كفروا . . الذين قالوا تلك القولة لفساد تصورهم لحقيقة ما يجري في الكون ، ولحقيقة القوة الفاعلة ، في كل ما يجري . فهم لا يرون إلاّ الأسباب الظاهرة والملابسات السطحية بسبب انقطاعهم عن الله وعن قدره الجاري في الحياة . .

وإن هذا التصور ليلقي الحسرة في النفس «ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم » فإحساسهم بأن خروج اخوانهم ليضربوا في الأرض في طلب الرزق فيموتوا ، أو ليغزوا ويقاتلوا فيقتلوا . . إحساسهم بأن هذا الخروج هو علة الموت أو القتل ، يذهب بأنفسهم حسرات أن لم يمنعوهم من الخروج! ولو كانوا يدركون العلة الحقيقية وهي استيفاء الأجل ، ونداء المضجع ، وقدر الله ، وسنّته في الموت والحياة ، ما تحسروا ، ولتلقوا الابتلاء صابرين ولفاؤوا إلى الله راضين . . « والله يُحيي ويميت » . فبيده إعطاء الحياة ، وبيده استرداد ما أعطى ، في الموعد المضروب والأجل المرسوم ، سواء كان الناس في بيوتهم وبين أهلهم ، أو في ميادين الكفاح للرزق أو للعقيدة . . كلهم مرجعون إلى الله ، محشورون إليه على كل حال . ماتوا على فراشهم أو ماتوا وهم يضربون في الأرض ، أو قتلوا وهم يجاهدون في الميدان . فمالهم من مرجع سوى هذا المرجع ، وما لهم من مصير سوى هذا المصير . . والتفاوت إنما يكون في العمل والنية ، وفي الاتجاه والاهتمام . أما النهاية فواحدة : موت أو قتل في الموعد المحترم ، والأجل المقسوم . ورجعة إلى الله وحشر في الجمع والحشر . . ومغفرة من الله ورحمة ، أو غضب من الله وعذاب . فأحمق الحمقى من يختار لنفسه المصير البائس . . وهو ميت على كل حال ! .

بذلك تستقر في القلوب حقيقة الموت والحياة ، وحقيقة قدر الله . وبذلك

تطمئن القلوب إلى ما كان من ابتلاء جرى به القدر ؛ وإلى ما وراء القدر من حكمة . والمنافقون يحاولون إفساد التصور الإسلامي الناصع لقدر الله ولحتمية الأجل ، ولحقيقة الموت والحياة . وتعلقهما بقدر الله وحده فيقولون . . « لو أطاعونا ما قتلوا » . . والله سبحانه يرد كيدهم من ناحية ، ويصحح التصور الإسلامي ويجلو عنه الغبش من ناحية . . « قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » . فالموت يصيب المجاهد والقاعد ، والشجاع والجبان . ولا يرده حرص ولا حذر . ولا يؤجله جبن ولا قعود . . والواقع هو البرهان الذي لا يقبل المراء . .

وبذلك التصور الصحيح تستريح القلوب ، وتستقر الضمائر على حقيقة السنن الجارية في الكون ، وعلى حقيقة قدر الله في الأمور ، وعلى حقيقة حكمة الله من وراء التقدير والتدبير . ثم على حقيقة الأجل المكتوب ، والموت المقدور ، الذي لا يؤجله قعود ، ولا يقدمه خروج ، ولا يمنعه حرص ولا حذر ولا تدبير . . « قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ، وإذاً لا تمتعون إلاّ قليلاً . قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً » . .

إن قدر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر ، يدفعها في الطريق المرسوم ، وينتهي بها إلى النهاية المحتومة . والموت أو القتل قَدر لا مفر من لقائه ، في موعده ، لا يستقدم لحظة ولا يستأخر . ولن ينفع الفرار في دفع القدر عن فار . فإذا فروا فإنهم ملاقون حتفهم المكتوب ، في موعده القريب . وكل موعد في الدنيا قريب ، وكل متاع فيها قليل . ولا عاصم من الله ولا من يحول دون نفاذ مشيئته . سواء أراد بهم سوءاً أم أراد بهم رحمة ، ولا مولى لهم ولا نصير من دون الله يحميهم ، ويمنعهم من قدر الله . فالاستسلام الاستسلام . والطاعة الطاعة . والوفاء الوفاء بالعهد مع الله ، في السراء والضراء.

ورجع الأمر إليه ، والتوكل الكامل عليه ثم يفعل الله ما يشاء . إن الإيمان بهذه الحقيقة هي قاعدة من قواعد التوحيد في التصور الإسلامي . فالموت حتم في موعده « قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » . .

إنها لفتة من اللفتات القرآنية الموحية . تقر في الإخلاد حقيقة ينساها الناس ، وهي تلاحقهم أينما كانوا . . فهذه الحياة إلى انتهاء . والبعد عن الله فيها ينتهي للرجعة إليه ، فلا ملجأ منه إلاّ إليه . والحساب والجزاء بعد الرجعة كائنان لا محالة . فلا مهرب ولا فكاك ، روى الطبراني في معجمه من حديث معاذ بن محمد الهذلي عن يونس عن الحسن عن سمرة مرفوعاً « مثل الذي يفر من الموت كمثل الثعلب ، تطلبه الأرض بدينْ ، فجاء يسعى حتى إذا أعيا وانهر دخل حجره فقالت له الأرض : يا ثعلب دَيْني . فخرج له حصاص . فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنه فمات » .

فالحياة والموت بيد الله – سبحانه – وان الله هو الوارث بعد الحياة « وإنّا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون » . « له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير » .

مالك السموات والأرض الذي لا شريك في ملكه . الذي يحيي ويميت فيخلق الحياة ويخلق الموت ، ويقدر الحياة لكل حي ، ويقدر له الموت ، فلا يكون إلاّ قدره الذي قضاه . والحياة ما تزال سراً في طبيعتها ، لا يملك أحد أن يقول : من أين جاءت ، ولا كيف جاءت . فضلاً عن أن أحداً لا يدري ما هي على وجه الحقيقة . والنص القرآني يقول : « إن الله هو الذي يحيي ويميت » الذي يعطي الحياة للأحياء . وما يملك أحداً أن ينكر هذا ولا أن يثبت غيره ، الموت كالحياة سر مغلق ، لا يعرف أحد طبيعته ، ولا يملك

أحد أن يحدثه . لأن أحداً غير واهب الحياة لا يملك سلبها « وما كان لنفس أن تموت إلاّ بإذن الله كتاباً مؤجلاً » .

وإن لكل نفس كتاباً مؤجلاً إلى أجل مرسوم . ولن تموت نفس حتى تستوفي هذا الأجل (١) . فالخوف والهلع والحرص والتخلف لا تطيل أجلاً ، والشجاعة والثبات ، والاقدام والوفاء لا تقصر عمراً . . فلا كان الجبن ولا نامت أعين الجبناء . والأجل المكتوب لا ينقص منه يوم ولا يزيد . . هذا هو الطريق . . بهذا الوضوح . . لتستقر حقيقة الأمل في النفس فتترك الاشتغال به ولا تجعله في الحساب وهي تفكر في الأداء والوفاء بالالتزامات والتكاليف الإيمانية ، وبذلك تنطلق من عقال الشح والحرص ، كما ترتفع على وهلة الخوف والفزع . وبذلك تستقيم على الطريق بكل تكاليفه وبكل التزاماته في صبر وطمأنينة ، وتوكل على الله الذي يملك الآجال وحده . . « قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » . « قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل » . . « هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » . .

إن القرآن يعالج هذه المشاعر في منابتها ، ويجلو غبش التصور لحقيقة الموت والأجل . . فيصحح التصور عن حقيقة الموت والحياة ، والأجل والقدر ، وعلاقة هذا كله بتكليف القتال حتى لا يخشوا الناس ، ولا يجزعوا

---

(١) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : « ان أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل المللك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه ، وأجله وعمله ، وشقي أو سعيد .

والذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » « متفق عليه »

يقول الله سبحانه : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » .

فالموت حتم في موعده المقدر . ولا علاقة له بالحرب والسلم . ولا علاقة له بحصانة المكان الذي يحتمي به الفرد أو قلة حصانته . ولا يؤخره أن يؤخر عنهم تكليف القتال إذاً ، ولا هذا التكليف والتعرض للناس في الجهاد يعجله عن موعده . .

هذا أمر وذاك أمر ، ولا علاقة بينهما . . إنما العلاقة هناك بين الموت والأجل . . بين الموعد الذي قدره الله وحلول ذلك الموعد . . وليست هناك علاقة أخرى . . ولا معنى إذن لخشية الناس في قتال أو في غير قتال ! وبهذه اللمسة يعالج المنهج القرآني كل ما يهجس في الخاطر عن هذا الأمر ، وكل ما ينشئه التصور المضطرب من خوف ومن ذعر . .

إنه ليس معنى هذا ألا يأخذ الإنسان حذره وحيطته ، وكل ما يدخل في طوقه من استعداد وأهبة ووقاية . فالله يأمر بأخذ الحذر ، كما أمر الله كذلك بالاحتياط في صلاة الخوف ، كما أمر – سبحانه – باستكمال العدة والأهبة . ولكن هذا كله شيء ، وتعليق الموت والأجل به شيء آخر . إن أخذ الحذر واستكمال العدة أمر يجب أن يُطاع ، وله حكمته الظاهرة والخفية ، ووراءه تدبير الله . . وإن التصور الصحيح لحقيقة العلاقة بين الموت والأجل المضروب – رغم كل استعداد واحتياط – أمر آخر يجب أن يُطاع ، وله حكمته الظاهرة والخفية ، ووراءه تدبير الله . توازن واعتدال . وإلمام بجميع الأطراف . وتناسق بين جميع الأطراف ، هذا هو الإسلام . وهذا هو منهج التربية الإسلامي ، للأفراد والجماعات .

إن القرآن يتجه إلى الجماعة المسلمة يحدثها عن القيم التي ينبغي أن تحرص عليها وتضحي من أجلها . . إنه لا بد من استقرار هذه الحقيقة في النفس :

حقيقة أن الحياة في هذه الأرض موقوتة ، محدودة بأجل ، ثم تأتي نهايتها حتماً . يموت الصالحون ويموت الطالحون . يموت المجاهدون ويموت القاعدون . يموت المستعلون بالعقيدة ويموت المستذلون للعبيد . يموت الشجعان الذين يأبون الضيم ، ويموت الجبناء الحريصون على الحياة بأي ثمن . يموت ذوو الاهتمامات الكبيرة والأهداف العالية ، ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص . الكل يموت « كل نفس ذائقة الموت » . . كل نفس تذوق هذه الجرعة ، وتفارق هذه الحياة . لا فارق بين نفس ونفس في تذوق هذه الجرعة من هذه الكأس الدائرة على الجميع . إنما الفارق في شيء آخر . الفارق في قيمة أخرى . الفارق في المصير الأخير « وإنما توفون أجوركم يوم القيامة . فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز » . . هذه هي القيمة التي يكون فيها الافتراق . وهذا هو المصير الذي يفترق فيه فلان عن فلان . القيمة الباقية التي تستحق السعي والكد . . ولفظ زحزح يصور معناه ، ويرسم هيئته ويلقي ظله ! وكأنما للنار جاذبية تشدإليها من يقترب منها ، ويدخل في مجالها ! فهو في حاجة إلى من يزحزحه قليلاً قليلاً ليخلصها من جاذبيتها المنهومة ! فمن أمكن أن يزحزح عن مجالها ، ويستنقذ من جاذبيتها ويدخل الجنة . . فقد فاز . . صورة قوية . بل مشهد حي . فيه حركة وشد وجذب ، وهو كذلك في حقيقته وطبيعته .

فللنار جاذبية . ! أليست للمعصية جاذبية ؟ أليست النفس في حاجة إلى من يزحزحها زحزحة عن جاذبية المعصية ؟ بلى ! وهذه هي زحزحتها عن النار أليس الإنسان – حتى مع المحاولة واليقظة الدائمة – يظل أبداً مقصراً في العمل . . إلاّ أن يدركه فضل الله ؟ بلى ! وهذه هي الزحزحة عن النار حين يدرك الإنسان فضلُ الله فيزحزحه عن النار .

إن الحياة والموت هو الشأن الخاص للخالق . الذي لا تتطاول إليه أعناق المخلوقين . فإذا تطاولت لم تجد إلاّ الستر المسدل على السر المحجوب . وضاعت

المجهود سدى ، جهود من لا يترك الغيب المحجوب لعلام الغيوب ! والإحياء والإماتة هما الظاهرتان المكرورتان في كل لحظة ، المعروضتان لحس الإنسان وعقله . وهما – في الوقت نفسه – السرّ الذي يُحير ، والذي يُلجىء الإدراك البشري إلجاء إلى مصدر آخر غير بشري . وإلى أمر آخر غير أمر المخاليق . ولا بد من الالتجاء إلى الألوهية القادرة على الإنشاء والافناء لحل هذا اللغز الذي يعجز عنه كل الأحياء . إننا لا نعرف شيئاً عن حقيقة الحياة وحقيقة الموت حتى اللحظة الحاضرة . ولكن ندرك مظاهرها في الأحياء والاموات . ونحن ملزمون أن يظل مصدر الحياة والموت إلى قوة ليست من جنس القوى التي نعرفها على الإطلاق . . قوة الله . .

والموت غيب لا يدري إنسان متى يدركه . فمن أراد ألاّ يموت إلاّ مسلماً فسبيله أن يكون منذ اللحظة مسلماً ، وأن يكون في كل لحظة مسلماً .

والقرآن ينتقل بالنفس خطوة وراء هذه القضية التي حُسِم فيها القول . . فإنه إذا كان العمر مكتوباً ، والأجل مرسوماً . . فلتنظر نفس ما قدمت لغد ؛ ولتنظر نفس ماذا تريد . أتريد أن تقعد عن تكاليف الإيمان ، وأن تحصر همها كله في الأرض ، وأن تعيش لهذه الدنيا وحدها ؟ أم تريد أن تتطلع إلى أفق أعلى ، وإلى اهتمامات أرفع ، وإلى حياة أكبر من هذه الدنيا ؟ مع تساوي هذا الهمّ وذاك فيما يختص بالعمر والحياة ؟ !

وشتان بين حياة وحياة ! وشتان بين اهتمام واهتمام ! – مع اتحاد النتيجة بالقياس إلى العمر والأجل – والذي يعيش لهذه الأرض وحدها ، ويريد ثواب الدنيا وحدها . . إنما يحيا حياة الديدان والدواب والأنعام ! ثم يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب « وما كان لنفس أن تموت إلاّ بإذن الله كتاباً مؤجلاً » . .

وهكذا يقرر القرآن حقيقة الموت والحياة ، وحقيقة الغاية التي ينتهي

إليها الأحياء ، وفق ما يريدونه لأنفسهم ، من اهتمام قريب كاهتمام الدود ، أو اهتمام بعيد كاهتمام الإنسان ! وبذلك ينقل النفس من الانشغال بالخوف من الموت والجزع من التكاليف – وهي لا تملك شيئاً في شأن الموت والحياة – إلى الانشغال بما هو أنفع للنفس ، في الحقل الذي تملكه وتملك فيه الاختيار . فتختار الدنيا أو تختار الآخرة .

فلقد خلق الله الإنسان لغاية رسمها – سبحانه – له ليسعى إليها ، فلم يترك هذا الإنسان هملاً يقول سبحانه – . . « أيحسب الإنسان أن يترك سُدى » فلقد كانت الحياة في نظر القوم حركة لا علة لها ولا هدف ولا غاية . . أرحام تدفع وقبور تبلع . . وبين هاتين لهو ولعب ، وزينة وتفاخر ، ومتاع قريب من متاع الحيوان . . فأما أن يكون هناك ناموس ، ووراءه هدف ، ووراء الهدف حكمة ، وأن يكون قدوم الإنسان إلى هذه الحياة وفق قدر يجري إلى غاية مقدرة ، وأن ينتهي إلى حساب وجزاء ، وأن تكون رحلته على هذه الأرض ابتلاء ينتهي إلى الحساب والجزاء . .

أما هذا التصور الدقيق المتناسق ، والشعور بما وراءه من ألوهية قادرة مدبرة حكيمة ، تفعل كل شيء بقدر ، وتنهي كل شيء إلى نهاية . . أما هذا فكان أبعد شيء عن تصور الناس ومداركهم في ذلك الزمان . والذي يميز الإنسان عن الحيوان ، هو شعوره باتصال الزمان والأحداث والغايات . وبوجود الهدف والغاية من وجوده الإنساني ، ومن الوجود كله من حوله . وارتقاؤه في سلم الإنسانية يتبع نمو شعوره هذا وسعته ، ودقة تصوره لوجود الناموس ، وارتباط الإحداث والأشياء بهذا الناموس . فلا يعيش عمره لحظة لحظة ، ولا حادثة حادثة ، بل يرتبط في تصوره الزمان والمكان والماضي والحاضر والمستقبل .

ولقد خلق الله ــ سبحانه ــ الإنسان للابتلاء . . « خلَق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً » . إن الله خلق الموت والحياة . والموت يشمل الموت السابق على الحياة والموت اللاحق لها . والحياة تشمل الحياة الأولى والحياة الآخرة . وكلها من خلق الله . التي تنشىء هذه الحقيقة في التصور الإسلامي ؛ وتثير إلى جانبها اليقظة لما وراءها من قصد وابتلاء . فليست المسألة مصادفة بلا تدبير . وليست كذلك جزافاً بلا غاية : إنما هو الابتلاء لإظهار المكنون في علم الله من سلوك الأناسي على الأرض ، واستحقاقهم للجزاء على العمل . . واستقرار هذه الحقيقة في الضمير يدعه أبداً يقظاً حذراً متلفتاً . واعياً للصغيرة والكبيرة في النية المستترة والعمل الظاهر . ولا يدعه يغفل أو يلهو . كذلك لا يدعه يطمئن أو يستريح .

إن الله في الحقيقة التي يصورها الإسلام لتستقر في القلوب ، لا يطارد البشر ، ولا يعنتهم ، ولا يحب أن يعذبهم . إنما يريد لهم أن يتيقظوا لغاية وجودهم ، وأن يرتفعوا إلى مستوى حقيقتهم : وأن يحققوا تكريم الله لهم بنفخة روحه في هذا الكيان وتفضيله على كثير من خلقه .

٦ - « لا مجيب إلا الله »

يقول الله سبحانه (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان . فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » .

إنها آية عجيبة . . آية تسكب في قلب المؤمن النداوة الحلوة ، والود المؤنس ، والرضى المطمئن ، والثقة واليقين . . ويعيش معها المؤمن في جناب رضي ، وقربى ندية وملاذ أمين وقرار مكين . . لم يقل الله فقل لهم : إني قريب . . إنما تولى بذاته العلية الجواب على عباده بمجرد السؤال . . قريب . . ولم يقل أسمع الدعاء . . إنما عجّل بإجابة الدعاء « أجيب دعوة الداع إذا دعان » . فالذي ينشئه الإيمان وتنشئه الاستجابة لله هو الرشد .

فالمنهج الإلهي الذي اختاره الله هو المنهج الوحيد الراشد القاصد ، وما عداه جاهلية وسفه لا يرضاه راشد، ولا ينتهي إلىرشاد،واستجابة الله للعباد مرجوة حين يستجيبون له هم ويرشدون . وعليهم أن يدعوه ولا يستعجلوه فهو يقدر الاستجابة في وقتها بتقديره الحكيم .

أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث ابن ميمون — بإسناده — عن سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله تعالى ليستحي أن يبسط العبد إليه يديه يسأله فيهما خيراً فيردهما خائبين » . .

وأخرج الترمذي عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي بإسناده عن ابن ثوبان – ورواه عبد الله ابن الإمام أحمد – بإسناده عن عبادة بن الصامت : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما على ظهر الأرض من رجل مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة إلاّ آتاه الله إياها ، أو كفّ عنه من السوء مثلها ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » . .

وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل . يقول دعوت فلم يستجب لي » .

وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل » . قيل يا رسول الله وما الاستعجال ؟ قال : يقول قد دعوت ، فلم أرَ يستجاب لي ، فيستحسر عند ذلك ويَدع الدعاء » .

إن الله – سبحانه – يفتح لنا أبوابه لنتوجه إليه وندعوه ، ويعلن لنا ما كتبه على نفسه من الاستجابة لمن يدعوه ، وينذر الذين يستكبرون عن عبادته بما ينتظرهم من ذل وتنكيس في النار . . « وقال ربكم : ادعوني أستجب لكم . إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » . .

وللدعاء أدب لا بد أن يُراعى ، إنه إخلاص القلب لله . والثقة بالاستجابة مع عدم اقتراح صورة معينة لها ، أو تخصيص وقت أو ظرف ، فهذا الاقتراح ليس من أدب السؤال . والاعتقاد بأن التوجه للدعاء توفيق من الله ، والاستجابة فضل آخر . وقد كان عمر رضي الله عنه يقول : « أنا لا أحمل همّ الإجابة إنما أحمل همّ الدعاء ، فإذا أُلهمت الدعاء كانت الإجابة معه » . . وهي كلمة القلب العارف ، الذي يدرك أن الله حين يقدر الاستجابة يقدر معها الدعاء . فهما حين يوفق الله متوافقان متطابقان .

فأما الذين يستكبرون عن التوجه لله فجزاؤهم الحق أن يوجهوا أذلاء صاغرين لجهنم ! وهي نهاية الكبر الذي تنتفخ به قلوب وصدور في هذه الأرض الصغيرة ، وفي هذه الحياة الرخيصة ، وتنسى ضخامة خَلْق الله فضلاً على نسيانها عظمة الله . ونسيانها للآخرة وهي آتية لا ريب فيها . و انها للموقف الذليل في الآخرة بعد النفخة والاستكبار .

إن الدعاء إلى غير الله ضلال . . فلا يوجد غير الله يستجيب . . « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه **لا يستجيبون لهم بشيء** ، إلاّ كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال » . .

إن المشهد هنا ناطق متحرك جاهد لاهف . . فدعوة واحدة هي الحق ، وهي التي تُحق ، وهي التي تُستجاب . إنها دعوة الله والتوجه إليه والاعتماد عليه وطلب عونه ورحمته وهداه . وما عداها باطل ، وما عداها ضائع ، وما عداها هباء . . ألا ترون حال الداعين لغيره من الشركاء ؟ انظروا هذا واحد منهم ملهوف ظمآن يمد ذراعيه ويبسط كفيه ، وفمه مفتوح يلهث بالدعاء . يطلب الماء ليبلغ فاه فلا يبلغه . وما هو ببالغه . بعد الجهد واللهفة والعناء . وكذلك دعاء الكافرين بالله الواحد حين يدعون الشركاء . وفي الوقت الذي يتخذ هؤلاء الخائبون آلهة من دون الله، ويتوجهون إليهم بالرجاء والدعاء، إذا كل من في الكون يعنو لله . . وكلهم محكومون بإرادته ، خاضعون لسنته ، مسيرون وفق ناموسه . المؤمن منهم يخضع طاعة وإيماناً ، وغير المؤمن يخضع أخذاً وإرغاماً ، فما يملك أحد أن يخرج على إرادة الله ، ولا أن يعيش خارج ناموسه الذي سنّه للحياة . .« ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً ، وظلالهم بالغدو والآصال » . .

إن الشرك ليس مقصوراً على صوره الساذجة التي عرفها المشركون القدامى. فكم من مشركين يشركون مع الله ذوي سلطان ، أو ذوي جاه ، أو ذوي

مال ، ويرجون فيهم ويتوجهون إليهم بالدعاء . وكلهم أعجز من أن يستجيبوا لدعاتهم استجابة حقيقية . وكلهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً . . « قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض . وما لهم فيهما من شرك وما له من ظهير » .

« قل ادعوا الذين زعمتهم من دون الله فلا يملكون كشف الضرّ عنكم ولا تحويلاً . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه . إن عذاب ربك كان محذوراً » . .

فكم من مشركين يشركون مع الله ذوي سلطان ، أو ذوي جاه ، أو ذوي مال ، ويرجون فيهم ، ويتوجهون إليهم بالدعاء . . فدعاؤهم شرك . . والرجاء فيهم شرك . والخوف منهم شرك . ولكنه شرك خفي يزاوله الكثيرون وهم لا يشعرون .

فمن أضل ممن يدعو من دون الله في أي زمان وفي أي مكان ؟ وكل أحد – كائناً ما كان – لا يستجيب بشيء لمن يدعوه ، ولا يملك أن يستجيب . وليس هناك إلاّ الله فعال لما يريد . . « ومن أضلُّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حُشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » .

« إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم . فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » . . إنهم عباد من خلق الله مثلهم . لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون . .

فالدعاء والتوجه إلى الله . . « ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين » . . « وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين » . .

ومن حقيقة البقاء الدائم لله وراء الخلق الفاني تنبثق حقيقة كبيرة . .

فكل أبناء الفناء إنما يتوجهون في كل ما يقوم بوجودهم إلى الواحد الأحد الفرد الصمد الحي القيوم . . « كل من عليها فانٍ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام . فبأي آلاء ربكما تكذبان . يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن . فبأي آلاء ربكما تكذبان » . .

يسأله من في السموات والأرض ، فهو مناط السؤال ، وغيره لا يسأل ، لأنه فان لا يتعلق به سؤال . . يسألونه . وهو وحده الذي يستجيب ، وقاصده وحده هو الذي لا يخيب . وما يتجه أحد إلى سواه إلاّ حين يضل عن مناط السؤال ومعقد الرجاء ومظنة الجواب . وماذا يملك الفاني للفاني . وماذا يملك المحتاج للمحتاج ؟ .

إنها أحدية الله . . أحدية الخالق . . إن هذه الأحدية عقيدة للضمير ، وتفسير للوجود ، ومنهج للحياة . . إنها أحدية الوجود ، فليس هناك حقيقة إلاّ حقيقته . وليس هناك وجود حقيقي إلاّ وجوده . وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي ، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية . وهي — من ثم — أحدية الفاعلية . فليس سواه فاعلاً لشيء ، أو فاعلاً في شيء ، في هذا الوجود أصلاً ، وهذه عقيدة في الضمير وتفسير للوجود أيضاً . .

فإذا استقر ووضح هذا التصور خلص القلب من كل غاشية ومن كل شائبة ، ومن كل تعلق بغير هذه الذات الواحدة المتفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعلية . خلص من التعلق بشيء من أشياء هذا الوجود ، فلا حقيقة لوجود إلاّ ذلك الوجود الإلهي . ولا حقيقة لفاعلية إلاّ فاعلية الإرادة الإلهية ، فعلام يتعلق القلب بما لا حقيقة لوجوده ولا حقيقة لفاعليته . . وحين يخلص القلب من الشعور بغير الحقيقة الواحدة ، ومن التعلق بغير هذه الحقيقة فعندئذ يتحرر من جميع القيود وينطلق من كل الأوهاق . يتحرر من الرغبة وهي أصل

قيود كثيرة . ويتحرر من الرهبة وهي أصل قيود كثيرة . وفيم يرغب وهو لا يفقد شيئاً متى وجد الله؟ ومن ذا يرهب ولا وجود لفاعلية إلاّ الله ؟ .

ومتى استقر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلاّ حقيقة الله ، فستصحب رؤية هذه الحقيقة في كل وجود آخر انبثق عنها —وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله في كل شيء يراه . ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شيئاً في الكون إلاّ الله . لأنه لا حقيقة هناك يراها إلاّ حقيقة الله .

كذلك سيصحبه نفي فاعلية الأسباب . ورد كل شيء وكل حدث وكل حركة إلى السبب الأول الذي منه صدرت ، وبه تأثرت . . وهذه هي الحقيقة التي عني القرآن عناية كبيرة بتقريرها في التصور الإيماني . . ومن ثم كان يُنَحّي الأسباب الظاهرة دائماً ويصل الأمور مباشرة بمشيئة الله . . « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » .. « وما النصر إلاّ من عند الله » .. « وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله » . . وغيرها كثير . وبتنحية الأسباب الظاهرة كلها وردّ الأمر إلى مشيئة الله وحدها ، تنسكب في القلب الطمأنينة ، ويعرف المتجه الوحيد الذي يطلب عنده ما يرغب ، ويتقي عنده ما يرهب ، ويسكن تجاه الفواعل والمؤثرات والأسباب الظاهرة التي لا حقيقة لها ولا وجود . من هنا ينبثق منهج كامل للحياة ، قائم على ذلك التفسير وما يشيعه في النفس من تصورات ومشاعر واتجاهات :

١ — منهج لعبادة الله وحده ، الذي لا حقيقة لوجود إلاّ وجوده ، ولا حقيقة لفاعلية إلاّ فاعليته ، ولا أثر لإرادة إلاّ إرادته .

٢ — ومنهج للاتجاه إلى الله وحده في الرغبة والرهبة . في السراء والضراء . في النعماء والبأساء . وإلاّ فما جدوى التوجه إلى غير موجود وجوداً حقيقياً ، إلى غير فاعل في الوجود أصلاً ؟

٣ – ومنهج للتلقي عن الله وحده بتلقي العقيدة والتصور والقيم والموازين، والشرائع والقوانين والأوضاع والنظم، والآداب والتقاليد. فالتلقي لا يكون إلاّ عن الوجود الواحد والحقيقة المفردة في الواقع والضمير.

٤ – ومنهج للتحرك والعمل لله وحده.. ابتغاء القرب من الحقيقة، وتطلعاً إلى الخلاص من الحواجز المعوقة والشوائب المضللة. سواء في قرارة النفس أو فيما حولها من الأشياء والنفوس. ومن بينها حاجز الذات وقيد الرغبة والرهبة لشيء من أشياء هذا الوجود.

٥ – ومنهج يربط مع هذا – بين القلب البشري وبين كل موجود – برباط الحب والأنس والتعاطف والتجاوب.. فكلها خارجة من يد الله، وكلها تستمد وجودها من وجوده، وكلها تفيض عليها من أنوار هذه الحقيقة. فكلها إذن حبيب، إذ كلها هدية من الحبيب..

٦ – وهو منهج رفيع طليق.. الأرض فيه صغيرة، والحياة الدنيا قصيرة، ومتاع الحياة الدنيا زهيد، والانطلاق من هذه الحواجز والشوائب غاية وأمنية.. ولكن الانطلاق عند الإسلام ليس معناه الاعتزال ولا الإهمال، ولا الكراهية ولا الهروب.. إنما معناه المحاولة المستمرة والكفاح الدائم لترقية البشرية كلها، وإطلاق الحياة البشرية جميعها.. ومن ثم فهي الخلافة والقيادة بكل أعبائهما، مع التحرر والانطلاق بكل مقوماتهما. إن الخلاص عن طريق الصومعة سهل يسير، ولكن الإسلام لا يريده، لأن الخلافة في الأرض والقيادة للبشر طرف من المنهج الإلهي للخلاص.. إنه طريق أشق ولكنه هو الذي يحقق إنسانية الإنسان، أي يحقق انتصار النفخة العلوية في كيانه.. وهذا هو الانطلاق.. انطلاق الروح إلى مصدرها الإلهي، وتحقيق حقيقتها العلوية. وهي تعمل في الميدان الذي اختاره لها خالقها الحكيم.

من أجل هذا كله كانت الدعوة الأولى قاصرة على تقرير حقيقة التوحيد بصورته هذه في القلوب . لأن التوحيد في هذه الصورة عقيدة للضمير ، وتفسير للوجود ، ومنهج للحياة . وليس كلمة تقال باللسان أو حتى صورة تستقر في الضمير . إنما هو الأمر كله ، والدين كله ، وما بعده من تفصيلات وتفريعات لا يعدو أن يكون الثمرة الطبيعية لاستقرار هذه الحقيقة بهذه الصورة في القلوب .

والذي تمتاز به صورة التوحيد في العقيدة الإسلامية هو تعمقها للحياة كلها ، وقيام الحياة على أساسها ، واتخاذها قاعدة للنهج العملي الواقعي في الحياة ، تبدو آثاره في التشريع كما تبدو في الاعتقاد سواء . وعقيدة التوحيد لا تقوم إلاّ ومعها آثارها محققة في كل ركن من الحياة .

وبما أن الله هو أحد في ألوهيته ، والكل له عبيد . . فهو المقصود وحده (١) بالحاجات ، المجيب وحده لأصحاب الحاجات . وهو الذي يقضي في كل أمر بإذنه ، ولا يقضي أحد معه .

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : « يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » . « رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح » .

٧ ــ « الفطرة والالتجاء الى الله »

عجيب هذا المخلوق الإنساني لا يذكر الله إلاّ في ساعة العسرة ، ولا يثوب إلى فطرته وينزع عنها ما غشاها من شوائب وانحرافات إلاّ في ساعة الكربة . فإذا أمِن ، فإما النسيان وإما الطغيان . . ذلك إلاّ من اهتدى فبقيت فطرته سليمة حيّة مستجيبة في كل آن ، مجلوة دائماً بجلاء الإيمان . . « هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان . وظنوا أنهم أحيط بهم . دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق » . .

في وسط الهول المتلاطم تتعرى فطرتهم مما ألمّ بها من أوشاب ، وتنفض قلوبهم مما ران عليها من تصورات ، وتنبض الفطرة الأصيلة السليمة بالتوحيد وإخلاص الدينونة لله دون سواه . . وتهدأ العاصفة ويطمئن الموج ، وتهدأ الأنفاس اللاهثة وتسكن القلوب الطائرة ، وتصل الفلك آمنة إلى الشاطىء ، ويوقن الناس بالحياة ، وأرجلهم مستقرة على اليابسة فماذا ؟ إنه مشهد حادث ومشهد نموذج بشري لطائفة كبيرة من الناس في كل جيل . .

إن الله يعرض صورة الناس في الضراء ، وصورتهم في السراء ، ويريهم تقلبهم وضعفهم ، وادعاءهم وقلة ثباتهم على نهج إلاّ حين يتصلون بربهم ،

ويتطلعون إليه ، ويقنتون له ، فيعرفون الطريق ، ويعلمون الحقيقة ، وينتفعون بما وهبهم الله من خصائص الإنسان . . « وإذا مسّ الإنسان ضرّ دعا ربه منيباً إليه . ثم إذا خوّله نعمة نسي ما كان يدعو إليه من قبل ، وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ، قل : تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار » . .

إن فطرة الإنسان تبرز عارية حين يمسه الضرّ ، ويسقط عنها الركام ، وتزول عنها الحجب ، وتتكشف عنها الأوهام ، فتتجه إلى ربها ، وتنيب إليه وحده ، وهي تدرك أنه لا يكشف الضر غيره . وتعلم كذب ما تدعي من شركاء أو شفعاء . فأما حين يذهب الضر ويأتي الرخاء ، ويخوله الله نعمة منه ، ويرفع عنه البلاء . فإن هذا الإنسان الذي تعرّت فطرته عند مسّ الضر يعود فيضع عليها الركام وينسى تضرعه وإنابته وتوحيده لربه وتطلعه إليه في المحنة وحده ، حين لم يكن غيره يملك أن يدفع عنه محنته . . ينسى هذا كله ويذهب يجعل لله أنداداً ، إما آلهة يعبدها كما كان في جاهليته الأولى ، وإما قيماً وأشخاصاً وأوضاعاً يجعل لها في نفسه شركة مع الله ، كما يفعل في جاهلياته الكثيرة ! فإذا هو يعبد شهواته وميوله ومطامعه ومخاوفه وماله وأولاده ، وحكامه وكبراءه كما يعبد الله أو أخلص عبادة ، ويحبها كما يحب الله أو أشد حباً !

والشرك ألوان فيها الخفي الذي لا يحسبه الناس شركاً ، لأنه لا يأخذ شكل الشرك المعروف وإنما هو من الشرك في الصميم . وتكون العاقبة هي الضلال عن سبيل الله . فسبيل الله واحد لا يتعدد . وإفراده بالعبادة ، والتوجه والحب ، هو وحده الطريق إليه .

والعقيدة في الله لا تحتمل شركة في القلب . لا تحتمل شركة من مال ولا ولد ولا وطن ولا أرض ولا صديق ولا قريب ، فأيما شركة قامت في القلب من هذا وأمثاله فهي اتخاذ أنداد لله ، وضلال عن سبيل الله ، منته إلى النار بعد قليل من المتاع في هذه الأرض .

إن الضرّ يسقط عن الفطرة ركام الأهواء والشهوات ، ويعريها من العوامل المصطنعة التي تحجب عنها الحق الكامن فيها وفي ضمير هذا الوجود . فعندئذ ترى الله وتتجه إليه وحده . . « فإذا مسّ الإنسان ضرٌ دعانا . ثم إذا خولناه نعمة منا قال : إنما أُوتيته على علم . بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون » . . حتى إذا مرت الشدة وجاء الرخاء ، نسي هذا الإنسان ما قاله في الضراء ، وانحرفت فطرته بتأثير الأهواء . وقال عن النعمة والرزق والفضل . . « إنما أُوتيته على علم » . . قالها قارون ، وقالها كل مخدوع بعلم أو صنعة أو حيلة يعلل بها ما اتفق له من مال أو سلطان غافلاً عن مصدر النعمة ، وواهب العلم والقدرة ومسبب الأسباب . . إنه نموذج مكرر للانسان . ما لم تهتد فطرته إلى الحق ، وترجع إلى ربها الواحد ، وتعرف الطريق إليه ، فلا تضل عنه في السراء والضراء .

إن المضطر في لحظات الكربة والضيق لا يجد له ملجأ إلاّ الله يدعوه ليكشف عنه الضر والسوء . . « أمن يجب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ؟أإله مع الله ؟ قليلاً ما تذكرون » . .

إن المضطر يلتجيء إلى الله ليكشف عنه الضر والسوء ذلك حين تضيق الحلقة ، وتشتد الخنقة ، وتتخاذل القوى ، وتتهادى الأسناد ، وينظر الإنسان حواليه ، فيجد نفسه مجرداً من وسائل النصرة وأسباب الخلاص . لا قوته . ولا قوة في الأرض تنجده . وكل ما كان يعده لساعة الشدة قد زاغ عنه أو تخلى ، وكل ما كان يرجوه للكربة قد تنكر له أو تولى . . في هذه اللحظة تستيقظ الفطرة فتلتجيء إلى القوة الوحيدة التي تملك الغوث والنجدة ، ويتجه الإنسان إلى الله ، ولو كان قد نسيه من قبل في ساعات الرخاء ، فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه هو وحده دون سواه يجيبه ويكشف عنه السوء ، ويرده إلى الأمن والسلامة ، وينجيه من الضيقة الآخذة بالخناق .

والناس يغفلون عن هذه الحقيقة في ساعات الرخاء ، وفترات الغفلة .

يغفلون عنها فيلتمسون القوة والنصرة والحماية في قوة من قوى الأرض الهزيلة .

فأما حين تلجئهم الشدة ، ويضطرهم الكرب ، فتزول عن فطرتهم غشاوة الغفلة ، ويرجعون إلى ربهم منيبين ، مهما يكونوا من قبل غافلين أو مكابرين . إنهم لينسون ويغفلون وهذه الحقائق كامنة في أعماق النفوس ، مشهودة في واقع الحياة .

إن الله سبحانه يعرض صورة للنفس البشرية التي لا تستمد من قيمة ثابتة ، ولا تسير على نهج واضح . . « وإذا مسّ الناس ضرٌ دعوا ربهم منيبين إليه ، ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ، ليكفروا بما آتيناهم ، فتمتعوا فسوف تعلمون » . .

إنها صورة للنفس البشرية وهي تتأرجح بين الانفعالات الطارئة ، والتصورات العارضة ، والاندفاعات مع الأحداث والتيارات . فعند مسّ الضر يذكر الناس ربهم ،ويلجؤون إلى القوة التي لا عاصم إلاّ إياها ، ولا نجاة إلا بالانابة إليها . حتى إذا انكشفت الغمة ، وانفرجت الشدة وأذاقهم الله رحمة منه .. « إذا فريق منهم بربهم يشركون » . . وهو الفريق الذي لا يستند إلى عقيدة صحيحة تهديه إلى نهج مستقيم . ذلك أن الرخاء يرفع عنهم الاضطرار الذي ألجأهم إلى الله ، وينسيهم الشدة التي ردتهم إليه . فيقودهم هذا إلى الكفر بما آتاهم من الهدى وما آتاهم من الرحمة ، بدلاً من الشكر والاستقامة على الإنابة .

والناس لا يصبرون ولا يشكرون . إنما يصيبهم الضر فيجأرون، وينجيهم الله من الضر فلا يشكر منهم إلاّ القليل . . « وإذا غشيهم موج كالظلل دعو الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلاّ كل ختار كفور » . . فأمام مثل هذا الخطر والموج يغشاهم كالظلل والفلك كالريشة الطائرة في الخضم الهائل . . تتعرى النفوس من القوة الخادعة ، وتتجرد من القدرة الموهومة ، التي تحجب عنها في ساعات الرخاء حقيقة

فطرتها ، وتقطع ما بين هذه الفطرة وخالقها . حتى إذا سقطت هذه الحوائل ، وتعرت الفطرة من كل ستار ، استقامت إلى ربها ، واتجهت إلى بارئها ، وأخلصت له الدين ، ونفت كل شريك ، ونبذت كل دخيل ، ودعوا الله مخلصين له الدين . فلما نجاهم إلى البر . . « فمنهم مقتصد » . . لا يجرفه الأمن والرخاء إلى النسيان والاستهتار ، إنما يظل ذاكراً شاكراً ، وإن لم يعرف حق الله في الذكر والشكر ، فأقصى ما يبلغه ذاكر شاكر أن يكون مقتصداً في الأداء . ومنهم من يجحد وينكر آيات الله بمجرد زوال الخطر وعودة الرخاء . . وإنه لختّار شديد الغدر . . وإنه لكفور شديد الكفر . .

فالفطرة تلتجيء إلى إلهها الحق في ساعة الشدة . . « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، تدعونه تضرعاً وخفية : لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين . قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون » . .

ننظر كيف يخالف الناس عن الفطرة في اليسر والرخاء . . إن الهول والكرب الذي ترتعد له الفرائص ليس مؤجلاً دائماً إلى يوم الحشر والحساب . فهم يصادفون الهول . فلا يتوجهون عند الكرب إلاّ لله ، ولا ينجيهم من الكرب إلاّ الله . ولكنهم يعودون إلى ما كانوا فيه من الشرك عند اليسر والرخاء .

إن تصور الخطر ، وتذكر الهول ، قد يردان النفوس الجامحة ويرققان القلوب الغليظة ، ويذكر النفس لحظات الضعف والإنابة . . إنها تجربة يعرفها كل من وقع في ضيقة ، أو رأى المكروبين في لحظة الضيق . . وظلمات البر والبحر كثيرة . . فالمتاهة ظلام ، والخطر ظلام ، والغيب الذي ينتظر الخلق في البر والبحر حجاب . وحيثما وقع الناس في ظلمة من ظلمات البر والبحر لم يجدوا في أنفسهم إلاّ الله يدعونه متضرعين أو يناجونه صامتين . . « وإذا

مسّكم الضر في البحر ضلّ من تدعون إلاّ إياه . فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً » . .

إنه مشهد يحسّ به من كابده ، ويحس بالقلوب الخافقة الواجفة المتعلقة بكل هزة وكل رجفة في الفلك صغيراً كان أو كبيراً . كالريشة في مهبّ الرياح على ثبج الموج الجبار . . ولكن الإنسان هو الإنسان ، فما أن تنجلي الغمرة ، وتحسّ قدماه ثبات الأرض من تحته حتى ينسى لحظة الشدة ، فينسى الله ، وتتقاذفه الأهواء ، وتجرفه الشهوات ، وتغطي على فطرته التي جلاّها الخطر . . « فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً » . . إلاّ من اتصل قلبه فأشرق واستنار .

فالفطرة تتعرى في الشدة من الركام ، فتواجه الحقيقة الكامنة في أعماقها . . حقيقة الألوهية الواحدة . . وتتجه إلى الله الحق بلا شريك ، لأنها تدرك حينئذ سخافة فكرة الشرك ، وتدرك انعدام الشريك ! ويبذل المكروبون الوعود . . « لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين » . . « قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب » . .

فليس هناك غيره يستجيب ، ويقدر على دفع الكروب . . حينئذ تخفق القلوب وتدعو . . « وإذا مسّ الإنسان الضرّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضرّه مرّ كأن لم يدعنا إلى ضرّ مسّه . كذلك زُين للمسرفين ما كانوا يعملون » . .

إنها صورة مبدعة لنموذج بشري مكرور . . وإن الإنسان ليظل مدفوعاً مع تيار الحياة يخطىء ويذنب ، ويطغى ويسرف ، والصحة موفورة ، والظروف مواتية – وليس إلاّ من عصم الله ورحم – من يتذكر في إبان قوته وقدرته أن هناك ضعفاً وان هناك عجزاً . وساعات الرخاء تُنسي ،

والإحساس بالغنى يطغي . . ثم يمسه الضرّ فإذا هو كثير الدعاء ، عريض الرجاء ، ضيّق بالشدّة ، مستعجل للرخاء . فإذا استجيب الدعاء وكشف الضر انطلق لا يعقب ولا يفكر ولا يتدبر . انطلق إلى ما كان فيه من قبل من اندفاع واستهتار .

إنه نموذج متكرر في البشرية يرسمه القرآن . . « وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين . إنما هو إله واحد . فإياي فارهبون . وله ما في السموات والأرض وله الدين واصباً أفغير الله تتقون . وما بكم من نعمة فمن الله ، ثم إذا مسّكم الضرّ فإليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم ، فتمتعوا فسوف تعلمون » . .

لقد أمر الله ألا يتخذ الناس إلهين اثنين . إنما هو إله واحد لا ثاني له . إنها القضية الأساسية في العقيدة كلها ، لا تقوم إلاّ بها ، ولا توجد إلاّ بوجودها في النفس واضحة كاملة دقيقة لا لبس فيها ولا غموض . إنما هو إله واحد . . وإنما هو كذلك مالك واحد . . « وله ما في السموات والأرض ».. ودائن واحد « وله الدين واصباً » . . «(أي واصلاً منذ ما وجد الدين ، فلا دين إلاّ دينه) . ومنعم واحد . . « وما بكم من نعمة فمن الله » . . وفطرتكم تلجأ إليه وحده في ساعة العسرة والضيق وتتوجه إليه دون شريك .

وهكذا يتفرد سبحانه وتعالى بالألوهية والملك، والدين والنعمة والتوجه ، وتشهد فطرة البشر بهذا كله حين يصهرها الضرّ وينفض عنها أوشاب الشرك . .

ومع هذا فإن فريقاً من البشر يشركون بالله بعد توحيده ، حالما ينجيهم من الضر المحيق . . إنه النموذج المتكرر في البشرية . ففي الضيق تتوجه القلوب إلى الله لأنها تشعر أن لا عاصم لها سواه ، وفي الفرج تتلهى بالنعمة والمتاع ، فتضعف صلتها بالله ، وتزيغ عنه ألواناً من الزيغ تبدو في الشرك به ، وتبدو كذلك في صوَر شتى من تأليه قيم وأوضاع ولو لم تُدع باسم الإله. وهذا

النموذج يرسمه القرآن . . « ثم إذا مسّكم الضرّ فإليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون » . .

ولقد يشتد انحراف الفطرة وفسادها . فإذا بعضهم في ساعة العسرة لا يلجأ إلى الله . ولكن يلجأ إلى بعض مخاليقه يدعوها للنصرة والانقاذ والنجاة ، بحجة أنها ذات جاه أو منزلة عند الله ، أو بغير هذه الحجة ، كالذين يدعون الأولياء لإنقاذهم من مرض أو شدة أو كرب . . فهؤلاء أشد انحرافاً من مشركي الجاهلية . فالهول يُعري الفطرة فتتجه بطلب النجاة إلى الله وحده . . « قل أرأيتم إن آتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة . أغير الله تدعون إن كنتم صادقين . بل إياه تدعون ، فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون » . . إنها مواجهة الفطرة بتصور الهول . . عذاب الله في الدنيا ، عذاب الهلاك والدمار ، أو مجيء الساعة على غير انتظار . . والفطرة حين تلمس هذه اللمسة ، وتتصور هذا الهول تدرك — ويعلم الله سبحانه أنها تدرك — حقيقة هذا التصور ، وتهتز له ، لأنه يمثل حقيقة كامنة فيها ، ويعلم بارئها سبحانه أنها كامنة فيها ، ويخاطبها بها على سبيل التصور ، فتهتز لها ، وترتجف وتتعرى . بل تدعونه وحده ، وتنسون شرككم كله ! إنه الهول يعري فطرتكم — حينئذ — فتتجه بطلب النجاة إلى الله وحده ، وتنسى أنها أشركت به أحداً . بل تنسى هذا الشرك ذاته . . إن معرفتها بربها هي الحقيقة المستقرة فيها . فأما هذا الشرك فهو قشرة سطحية طارئة عليها ، بفعل عوامل أخرى . قشرة سطحية في الركام الذي ران عليها . فإذا هزّها الهول تساقط هذا الركام ، وتطايرت هذه القشرة ، وتكشفت الحقيقة الأصيلة ، وتحركت الفطرة حركتها الفطرية نحو بارئها ، ترجوه أن يكشف عنها الهول الذي لا يد لها به ، ولا حيلة لها فيه .

٨ - « لا حول ولا قوة إلا بالله »

إن القوة والقهر والسلطان هي من خصائص الألوهية وموجبات العبادة والعبودية . . وأولى مراتب الإيمان . . الاعتقاد والإيمان بأن الحول والقوة كلها لله ، وأن لا حول ولا قوة إلاّ بالله [١] . إن حقيقة القوى في هذا الوجود كثيراً ما يغفل الناس عنها أحياناً ، فيسوء تقديرهم لجميع القيم ويفسد تصورهم لجميع الارتباطات ، وتختل في أيديهم جميع الموازين . ولا يعرفون إلى أين يتوجهون . ماذا يأخذون وماذا يدعون ؟ وعندئذ تخدعهم قوة الحكم والسلطان يحسبونها القوة القادرة التي تعمل في هذه الأرض فيتوجهون إليها بمخاوفهم ورغائبهم ، ويخشونها ويفزعون منها ، ويترضونها ليكفوا عن أنفسهم أذاها ، أو يضمنوا لأنفسهم حماها . وتخدعهم قوة المال ويحسبونها القوة المسيطرة على أقدار الناس وأقدار الحياة ، ويتقدمون إليها في رغب ورهب ، ويسعون للحصول عليها ليستطيلوا بها ، ويتسلطوا على الرقاب كما يحسبون .

وتخدعهم قوة العلم يحسبونها أصل القوة وأصل المال وأصل سائر القوى التي يصول بها من يملكها ويجول ، ويتقدمون إليها خاشعين كأنهم عباد في المحاريب ، وتخدعهم هذه القوى الظاهرة ، تخدعهم في أيدي الأفراد وفي أيدي الجماعات ، وفي أيدي الدول فيدورون عليها كما يدور الفراش على المصباح ، وكما

---

(١) عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة » ؟ فقلت : بلى يا رسول الله . قال : « لا حول ولا قوة إلا بالله » .
(متفق عليه)

يتهافت الفراش على النار . وينسون القوة الوحيدة التي تخلق سائر القوى الصغيرة وتملكها ، وتمنحها وتوجهها وتسخرها كما تريد حيثما تريد . وينسون أن الالتجاء إلى تلك القوى سواء كانت في أيدي الأفراد أو الجماعات أو الدول كالتجاء العنكبوت إلى بيت العنكبوت . . حشرة ضعيفة رخوة واهنة ، لا حماية لها من تكوينها الرخو ، ولا وقاية لها من بيتها الواهن . وليس هناك إلاّ حماية الله وإلاّ حماه ، وإلاّ ركنه القوي الركين . . « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » . .

هذه الحقيقة الضخمة هي التي عني القرآن بتقريرها في نفوس الفئة المؤمنة ، فكانت بها أقوى من جميع القوى التي وقفت في طريقها ، وداست بها على كبرياء الجبابرة في الأرض ، ودكّت المعاقل والحصون . لقد استقرت هذه الحقيقة الضخمة في كل نفس ، وعمرت كل قلب ، واختلطت بالدم وجرت معه في العروق ، ولم تعد كلمة تُقال باللسان ولا قضية تحتاج إلى جدل ، بل بديهية مستقرة في النفس لا يجول غيرها في حسّ ولا خيال . .

قوة الله وحدها هي القوة . . وولاية الله وحدها هي الولاية ، وما عداها فهو واهٍ ضئيل هزيل مهما علا واستطال ، ومهما تجبّر وطغى ، ومهما ملَكَ من وسائل البطش والطغيان والتنكيل . . إنها العنكبوت وما تملك من قوى ، ليست سوى خيوط العنكبوت « وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » . .

وإن أصحاب الدعوات الذين يتعرضون للفتنة والأذى وللإغراء والاغواء ، لجديرون أن يقفوا أمام هذه الحقيقة الضخمة ولا ينسوها لحظة ، وهم يواجهون القوى المختلفة ، هذه تضربهم وتحاول أن تسحقهم ، وهذه تستهويهم وتحاول أن تشتريهم . . وكلها خيوط العنكبوت في حساب الله وفي حساب العقيدة

حين تصحّ العقيدة وحين تعرف حقيقة القوى ، وتحسّ حقيقة القوى ، وتُحسن التقويم والتقدير . فمن كان الله معه فلا شيء إذن ضده ، ومهما يكن ضده من شيء فهو هباء لا وجود في الحقيقة له ولا أثر . ومن كان الله معه فلن يضلّ طريقه . . « وقال الله إني معكم » . . فإن معية الله — سبحانه — تهديه كما أنها تكفيه ، ومن كان الله معه فلن يقلق ولن يشقى ، فإن قربه من الله يطمئنه ويسعده . ولكن معية الله لم يجعلها الله — سبحانه — جزافاً ولا محاباة ، ولا كرامة شخصية ، منقطعة عن أسبابها وشروطها . إن معية الله لمن يعبدونه حق العبادة ويحملون منهجه ونظامه ويحملون دعوته .

إنها الحقيقة التي يؤكدها القرآن دائماً ويقررها . وهي حقيقة الصلة بين الله وبين المؤمنين . إنها الصلة بين الإنسان وبين القوة الكبرى . . إنه سبحانه يجعل صفّه صفّهم ، وأمرهم أمره ، وشأنهم شأنه . يضمهم سبحانه إليه ويأخذهم في كنفه ويجعل عدوهم عدوه . وما يوجه إليهم من مكروه موجهاً إليه سبحانه : « يخادعون الله والذين آمنوا » . . وهذا التفضل العلوي الكبير ، التفضل الذي يرفع مقام المؤمنين وحقيقتهم إلى هذا المستوى السامق ، والذي يوحي بأن حقيقة الإيمان هي أكبر وأكرم الحقائق . والذي يسكب في قلب المؤمن طمأنينة لا حدّ لها ، وهو يرى الله جلّ شأنه يجعل قضيتهم هي قضيته ، ومعركتهم هي معركته ، وعدوهم هو عدوه ، ويأخذهم في صفّه ويرفعهم إلى جواره الكريم . فماذا يكون العبيد وكيدهم وخداعهم وأذاهم الصغير .

ولقد كانت العصبة المسلمة تجد الله ، فتجد القوة الكبرى ، كانوا يجدون صفاته في نفوسهم ، كانوا يجدونها رطبة بالحياة الحقيقية ، كانوا يحسون أن الله يسمع لهم وهو قريب منهم ، وأنه معني بأمرهم عناية مباشرة ، وأن شكواهم ونجواهم تصل إليه بلا وساطة ، ولا يهملها ولا يكلها إلى سواه . ومن ثم كانوا يعيشون في أنس بربهم ، في كنفه ، في جواره ، في عطفه ،

في رعايته . ويجدون هذا كله في نفوسهم حياً واقعاً . وليس معنى ولا فكرة ولا مجرد تمثيل وتقريب .

وهكذا يصور القرآن الحقيقة الواقعة . حقيقة المعركة بين الإيمان والكفر ، وبين الحق والباطل ، وبين الدعاة إلى الله الواحد ، والطغاة الذين يستكبرون في الأرض بغير الحق . فالمعركة قديمة بدأت منذ فجر البشرية وميدانها أوسع من الأرض كلها ، لأن الوجود كله يقف مؤمناً بربه مسلماً مستسلماً ، ويشذ منه الذين كفروا يجادلون في آيات الله وحدهم دون سائر هذا الكون الكبير . ونعلم كذلك نهاية المعركة غير المتكافئة بين صف الحق الطويل الضخم ، وشرذمة الباطل القليلة الضئيلة الهزيلة مهما يكن تقلبها في البلاد ، ومهما يكن مظهرها من القوة والسيطرة والمتاع . هذه الحقيقة يرسمها القرآن لتستقر في القلوب ، وليعرفها على وجه خاص أولئك الذين يحملون دعوة الحق والإيمان في كل زمان ومكان . فلا تتعاظمهم قوى الباطل الظاهرة في فترة محدودة من الزمان ، ورقعة محدودة من المكان . فهذه ليست الحقيقة ، إنما الحقيقة هي التي يصورها كتاب الله ، وتنطق بها كلمة الله وهو أصدق القائلين وهو العزيز الحكيم فهو سبحانه يقول : « أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه » . . إنه تصور منطق الإيمان الصحيح في بساطته وقوته ، ووضوحه وعمقه . كما هو في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكما ينبغي أن يكون في قلب كل مؤمن برسالة وكل قائم بدعوة . وهي وحدها دستوره الذي يغنيه ويكفيه ، ويكشف له الطريق الواصل الثابت المستقيم . إن الله سبحانه يصور حقيقة المعركة بين الداعية إلى الحق وكل ما في الأرض من قوى مضادة . كما تُصور الثقة واليقين والطمأنينة في القلب المؤمن بعد وزن هذه القوى بميزانها الصحيح . . « أليس الله بكاف عبده » . . بلى ! فمن ذا يخيفه ، وماذا يخيفه ؟ إذا كان الله معه ؟ وإذا كان هو قد اتخذ مقام العبودية وقام بحق هذا المقام ؟ ومن ذا يشك في كفاية الله لعبده وهو

القوي القاهر فوق عباده . . « ويخوفونك بالذين من دونه » . . فكيف يخاف ؟ والذين من دون الله لا يخيفون من يحرسه الله . وهل في الأرض كلها إلاّ من هم دون الله . . إنها قضية بسيطة واضحة لا تحتاج إلى جدل ولا كدّ ذهن . . إنه الله . ومن هم دون الله ، وحين يكون هذا هو الموقف لا يبقى هنالك شك ولا يكون هنالك اشتباه . وإرادة الله هي النافذة ومشيئة الله هي الغالبة ، وهو الذي يقضي في العباد قضاءه في ذوات أنفسهم ، وفي حركات قلوبهم ومشاعرهم فكيف يخشى أحداً من يقوم بحق العبودية له ، وهو كافله وكافيه .

وإن الذي يملك أن ينصر عباده بقوته ويحميهم هو الذي ينبغي أن يُعبد [1]. وآلهتهم المدعاة كلها لا قوة لها ولا سلطان ، فهم لا يستطيعون نصرهم ، ولا نصر أنفسهم ! فكيف يجعلون لها شركاً مع الله في نفوسهم وفي أولادهم ؟

إن القوة لله وحده . فهي تطلب عنده ولا قوة عند الآخرين . . « إن العزة لله جميعاً » . . ألا إنه لسند واحد للنفس البشرية تجد عنده العزة فإن ارتكنت إليه استعلت على من دونه . . ألا إنها لعبودية واحدة ترتفع بالنفس البشرية وتحررها . . العبودية لله . . فإن لم تطمئن إليها النفس استعبدت لقيم شتى ، وأشخاص شتى ، واعتبارات شتى ، ومخاوف شتى . ولم يعصمها من العبودية لكل أحد ولكل شيء ولكل اعتبار . . وإنه إما عبودية لله كلها . . استعلاء وعزة وانطلاق . . وإما عبودية لعباد الله كلها استخذاء وذلة وانحلال . ولمن شاء أن يختار . وما يستعز المؤمن بغير الله وهو مؤمن . وما يطلب العزة والنصرة والقوة عند أعداء الله وهو يؤمن بالله ؛ وما أحوج ناساً ممن يدعون الإسلام ويتسمون بأسماء المسلمين وهم يستعينون بأعدى أعداء الله في الأرض ، أن يتدبروا هذا القرآن . . إن كان بهم رغبة في أن يكونوا مسلمين ، وإلاّ فإن الله غني عن العالمين !

---

(١) يقول الله سبحانه « أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون » .

٩ - « لا خشية ولا خوف الا من الله »

إن العقيدة الإسلامية والتصور الإسلامي ينشئان الحقيقة الكبرى في النفوس المعلقة بالله . فهي لا تخشى إلاّ الله لأنه ربّ كل شيء ، ولا تخشى الناس لأن الله ربّ الناس . . فهذه صورة المؤمنين يعرضها القرآن : « الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » . .

والشيطان هو الذي يضخم من شأن أوليائه . ويلبسهم لباس القوة والقدرة . ويوقع في القلوب أنهم ذوو حول وطول وأنهم يملكون النفع والضر ، ليحقق بهم الشر في الأرض والفساد ، وليخضع لهم الرقاب ويطوع لهم القلوب . فلا يرتفع في وجوههم صوت بالإنكار ، ولا يفكر أحد في الانتفاض عليهم ودفعهم عن الشر والفساد . . إنه الشيطان : « إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » .

والشيطان صاحب مصلحة في أن ينتفش الباطل وأن يتضخم الشر ، وأن يتبدى قوياً قادراً قاهراً بطاشاً جباراً ، لا تقف في وجهه معارضة ولا يصمد له مدافع ولا يغلبه غالب . الشيطان صاحب مصلحة في أن يبدو الأمر هكذا . فتحت ستار الخوف والرهبة ، وفي ظل الإرهاب والبطش يفعل أولياؤه في الأرض ما يقر عينه ، يقلبون المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، وينشرون الفساد والباطل والضلال . ويخفتون صوت الحق والرشد والعدل ، ويقيمون

أنفسهم آلهة في الأرض تحمي الشر وتقتل الخير . دون أن يجرؤ أحد على مناهضتهم والوقوف في وجههم ومطاردتهم وطردهم من مقام القيادة . . بل دون أن يجرؤ أحد على تزييف الباطل الذي يروجون له ، وجلاء الحق الذي يطمسونه . . والشيطان ماكر خادع غادر يختفي وراء أوليائه . وينشر الخوف منهم في صدور الذين لا يحتاطون لوسوسته . . ومن هنا يكشفه الله ويوقفه عارياً ، لا يستره ثوب من كيده ومكره . ويعرف المؤمنين الحقيقة : حقيقة مكْره ووسوسته ليكونوا منها على حذر . فلا يرهبوا أولياء الشيطان ولا يخافوهم. فهم وهو أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه ويستند إلى قوته .

إن القوة الوحيدة التي تُخشى وتُخاف هي القوة التي تملك النفع والضر . هي قوة الله . وهي القوة التي يخشاها المؤمنون بالله . وهم حين يخشونها وحدها أقوى الأقوياء . فلا تقف لهم قوة في الأرض . لا قوة الشيطان ولا قوة أولياء الشيطان . . « فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » . . « فلا تخشوهم واخشون » . .

إن القرآن نزل ليضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم . . لقد قرر أن هناك قوة واحدة في هذا الوجود هي قوة الله . وان هناك قيمة واحدة في هذا الكون هي قيمة الإيمان . فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه ، ولو كان مجرداً من كل مظاهر القوة . . ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ، ولو ساندته جميع القوى . ومن كانت له قيمة الإيمان فله الخير كله ، ومن فقَد هذه القيمة فليس بنافعه شيء أصلاً .

إن العبادة تعبير عن العقيدة . فإذا لم تصح العقيدة لم تصح العبادة . وإن خشية الله وحده دون سواه لا يجيء نافلة ، فلا بد من التجرد لله ، ولا بد من التخلص من كل ظل للشرك في الشعور أو السلوك ، وخشية أحد غير الله

لون من الشرك الخفي ينبه إليه القرآن ليتمحض الاعتقاد والعمل كله لله . فالمؤمن لا يخشى أحداً من العبيد ، فهو لا يخشى إلاّ الله ، فإذا كانوا يخشون الناس فالله أحق بالخشية وأولى بالمخافة . . « أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » . . فما يجوز أن يكون لغيره سبحانه في قلوب المؤمنين مكان.

فلا سلطان لأحد من العبيد عليكم ، ولا يملكون شيئاً من أمركم ولا ينبغي أن تحفلوهم فتميلوا عما جاءكم من عندي فأنا الذي أستحق الخشية بما أملك من أمركم في الدنيا والآخرة « فلا تخشوهم واخشوني » . . وهنا تبرز قيمة الإيمان بالله ، والخوف منه . . إن الخوف من الله يُنشىء استهانة بالجبارين ، ويرزقهم شجاعة في وجه الخطر الموهوم . والله سبحانه لا يجمع في قلب واحد بين مخافتين : مخافته — جلّ جلاله — ومخافة الناس . . والذي يخاف الله لا يخاف أحداً بعده، ولا يخاف شيئاً سواه . فالخوف ينبغي أن يكون من الله . فهذا هو الخوف اللائق بكرامة الإنسان ؛ أما الخوف من السيف والسوط فهو منزلة هابطة لا تحتاج إليها إلاّ النفوس الهابطة . . والخوف من الله أوْلى وأكرم وأزكى ؛ على أن خوف الله هي التي تصاحب الضمير في السر والعلن .

وكيف يخاف من وَجَد الله ؟ وماذا يخاف ومن ذا يخاف ؟ وكل قوة — غير قوة الله—هزيلة ، وكل سلطان — غير سلطان الله — لا يُخاف . . وإن قلب المؤمن ينبغي أن يكون راسخاً لا تهزمه في الأرض قوة ،وهو موصول بقوة الله الغالب على أمره . القاهر فوق عباده . . وإذا جاز أن تنال هذا القلب هزة — وهو يواجه الخطر — فإن هذه الهزة لا يجوز أن تبلغ أن تكون هزيمة وفراراً . والآجال بيد الله ، فما يجوز أن يولي المؤمن خوفاً على الحياة . وليس في هذا تكليف للنفس فوق طاقتها . فالمؤمن إنسان يواجه عدوه إنساناً . فمن هذه الناحية يقفان على أرض واحدة ؛ ثم يمتاز المؤمن بأنه موصول بالقوة

الكبرى التي لا غالب لها . ثم إنه إلى الله إن كان حياً ، وإلى الله إن كتبت له الشهادة . . فهو في كل حالة أقوى من خصمه الذي يواجهه ومن ثم كان هذا الحكم القاطع في القرآن : « ومن يولّهم يومئذ دبره – إلاّ متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة – فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » . . فلا مجال إذن للخوف . .

إن الله سبحانه يصور مشهداً نفسياً كما لو كان مشهداً يُرى ويحس لمن يسوء تصورهم ! ومن ثم يصحح لهم ولغيرهم سوء التصور والإدراك لحقائق الحياة والموت ، والأجل والقدر ، والخير والشر ، والنفع والضر ، والكسب والخسارة ، والموازين والقيم ، ويبين لهم حقائقها في أسلوب يصور الحقائق في صورتها الموحية المؤثرة : « ألَمْ تَرَ إلى الذين قيل لهم : كُفوا أيديكم . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . فلما كُتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية . وقالوا : ربنا لِمَ كتبتَ علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تـُظلمون فتيلاً . أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » . .

نقف أمام طائفة من ضعاف الإيمان ، والذين لم ينضج بعد تصورهم الإيماني ، ولم تتضح معالم الاعتقاد في قلوبهم وعقولهم . يعجب الله سبحانه من أمر هؤلاء الناس . هذا الفريق الشديد الجزع ، الشديد الفزع ، حتى ليخشى الناس – وهم ناس من البشر – كخشية الله القهار الجبار ، الذي لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد . . « أو أشد خشية » . . إن الذي يتقي الله لا يتقي الناس . . والذي يعمر قلبه الخوف من الله لا يخاف أحداً . فماذا يملك له إذا كان الله لا يريد . فصاحب السلطان الحقيقي هو الذي يُخشى ويُخاف .

إن الحكم بما أنزل الله سيواجه في كل زمان وفي كل أمة معارضة من

بعض الناس ، ولن تَقبله نفوس هذا البعض بالرضى والقبول والاستسلام ، ستواجه معارضة الكبراء والطغاة وأصحاب السلطان الموروث ، ذلك أنه سينزع عنهم رداء الألوهية الذي يدعونه ، ويرد الألوهية لله خالصة ، حين ينزع عنهم حق الحاكمية والتشريع ، والحكم بما يشرعونه هم للناس مما لم يأذن به الله . وستواجه معارضة أصحاب المصالح المادية القائمة على الاستغلال والظلم والسحت . ذلك أن شريعة الله العادلة لن تُبقي على مصالحهم الظالمة . . وستواجه معارضة ذوي الشهوات والأهواء والمتاع الفاجر والانحلال . . ذلك أن دين الله سيأخذهم بالتطهر منها وسيأخذهم بالعقوبة عليها . . وستواجه معارضة جهات شتى ، غير هذه وتيك وتلك ممن لا يرضون أن يسود الخير والعدل والصلاح في الأرض . .

علِمَ الله سبحانه أن الحكم بما أنزل ستواجهه المقاومة من شتى الجهات ، وأنه لا بد للمستحفظين عليه والشهداء أن يواجهوا هذه المقاومة وأن يصمدوا لها ، وأن يحتملوا تكاليفها في النفس والمال فهو يناديهم . . « فلا تخشون الناس واخشون » . . هذا هو الطريق . . يجب أن لا تقف خشية الناس دون تنفيذ لشريعة الله . سواء من الناس أولئك الطغاة الذين يأبون الاستسلام لشريعة الله ، ويرفضون الإقرار من ثم بتفرد الله سبحانه بالألوهية ، أو أولئك المستغلون الذين تحول شريعة الله بينهم وبين الاستغلال وقد مَردوا عليه ، أو تلك الجموع المضللة أو المنحرفة أو المنحلة التي تستثقل أحكام شريعةالله، وتشغب عليها .

يجب أن لا تقف الخشية لهؤلاء جميعاً ولغيرهم من الناس دون المضي في تحكيم شريعة الله في الحياة . . فالله وحده هو الذي يستحق الخشية ، والخشية لا تكون إلا لله . . وهناك ممن تراودهم أطماع الحياة الدنيا من يدعون لأنفسهم اسم المسلمين ، وهم يجدون أصحاب السلطان وأصحاب المال

وأصحاب الشهوات لا يريدون حكم الله ، فيملقون شهوات هؤلاء جميعاً طمعاً في عَرَض الدنيا ، كما يقع من رجال الدين المحترفين في كل زمان وفي كل مكان . وهؤلاء بهذا يشترون بآيات الله ومنهجه ودستوره عرضاً حقيراً : « ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً » . . وذلك ممن يسكتون عن الباطل خوفاً منه ، أو يحرفون ما أنزل الله أو يلقون الفتوى المدخولة وذلك مقابل رواتب ووظائف وألقاب ومصالح صغيرة ، يباع بها الدين ، وتُشترى بها جهنم عن يقين . . إنه ليس أشنع من خيانة المستأمن . وليس أبشع من تفريط المستحفظ . والذين يحملون عنوان (رجال الدين) يخونون ويفرطون ويلبسون . فيسكتون عن العمل لتحكيم ما أنزل الله ، ويحرفون الكلم عن مواضعه لموافاة أهواء ذوي السلطان على حساب كتاب الله . فلا بد للدعاة إلى الله أن لا يحسبوا للخلق حساباً فيما يكلفهم الله به من أمور الرسالة ، ولا يخشوا أحداً إلاّ الله الذي أرسلهم للتبليغ والعمل والتنفيذ . . « الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلاّ الله » . .

لا بد للمؤمنين من الجهاد لإقرار منهج الله في الأرض « يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » . . فهم يجاهدون في سبيل الله ، لا في سبيل أنفسهم ، ولا في سبيل قومهم ، ولا في سبيل وطنهم ولا في سبيل جنسهم . في سبيل الله لتحقيق منهج الله وتقرير سلطانه وتنفيذ شريعته ، وتحقيق الخير للبشر عامة عن هذا الطريق . وليس لهم في هذا الأمر شيء ، وليس لأنفسهم من هذا حظ ، إنما هو لله وفي سبيل الله بلا شريك . وهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . وفيم الخوف ؟ وفيم الوقوف عند مألوف الناس ، وعرف الجيل ومتعارف الجاهلية ، وهم يتبعون سنّة الله ويعرفون منهج الله في الحياة ؟ إنما يخشى لوم الناس من يستمد مقاييسه وأحكامه من أهواء الناس . . ومن يستمد مدده وعونه من عند الناس . أما من يرجع إلى موازين الله ومقاييسه وقيمه ليجعلها تسيطر على أهواء الناس وشهواتهم وقيمهم ، وأما

من يستمد قوته وعزته من قوة الله وعزته ، فما يبالي ما يقول الناس ، وما يفعلون ، كائناً هؤلاء الناس ما كانوا . وكائناً واقع هؤلاء الناس ما كان . وكائنة حضارة هؤلاء الناس وعلمهم وثقافتهم ما تكون .

إننا نحسب حساباً لما يقول الناس ، ولما يفعل الناس ، ولما يملك الناس ، ولما يصطلح عليه الناس ، ولما يتخذه الناس في واقع حياتهم من قيم واعتبارات وموازين ؛ لأننا نغفل أو نسهو عن الأصل الذي يجب أن نرجع إليه في الوزن والقياس والتقويم . . إنه منهج الله وشريعته وحكمه ، فهو وحده الحق وكل ما خالفه فهو باطل . ولو كان عرف ملايين الملايين ، ولو أقرته الأجيال في عشرات القرون . . إنه ليست قيمة أي وضع أو أي عرف أو أي تقليد أو أية قيمة . . انه موجود وانه واقع وان ملايين البشر يعتنقونه ويعيشون به ، ويتخذونه قاعدة حياتهم . فهذا ميزان لا يعترف به التصور الإسلامي ، إنما قيمة أي وضع وأي عرف وأي تقليد وأية قيمة أن يكون لها أصل في منهج الله الذي منه وحده تستمد القيم والموازين . . ومن هنا تجاهد العصبة المؤمنة في سبيل الله ولا تخاف لومة لائم ، فهذه سمة المؤمنين المختارين الذين لا يخافون أي شيء إلاّ الله سبحانه .

وهناك الخوف على الأهل . . وهي حقيقة عميقة في الحياة البشرية . فالله يمسّ وشائج متشابكة دقيقة في التركيب العاطفي وفي ملابسات الحياة سواء : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم » .

وكثيراً ما يكون الأهل دافعاً للتقصير في تبعات الإيمان اتقاء للمتاعب التي تحيط بهم . ولو قام المؤمن بواجبه فلقي ما يلقاه المجاهد في سبيل الله . والمجاهد في سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير وتضحية الكثير . كما يتعرض هو وأهله للعنت . قد يتحمل العنت في نفسه ولا يحتمله في زوجه وولده ،

فيبخل ويجبن ليوفر لهم الأمن والاستقرار أو المتاع والمال ، فيكونون عدواً له لأنهم حدوه عن الخير وعوقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنساني العليا ، كما أنهم قد يقفون له في الطريق يمنعونه من النهوض بواجبه اتقاء لما يصيبهم من جرائه ، أو لأنهم قد يكونون في طريق غير طريقه ، ويعجز هو عن المفاصلة بينه وبينهم والتجرد لله . لذلك اقتضت التحذير من الله لإثارة اليقظة في قلوب الذين آمنوا ، والحذر من تسلل هذه المشاعر وضغط هذه المؤثرات .

١٠ - « لا توكل إلا على الله »

إن التوكل على الله هو التوحيد في أول صورة من صوره . . والمؤمنون يقصرون التوكل على ربهم دون سواه . والإيمان بالله الواحد يقتضي التوكل عليه دون سواه . . « وعلى ربهم يتوكلون » .

إن المؤمن يؤمن بالله وصفاته ، ويستيقن أنه لا أحد في هذا الوجود يفعل شيئاً إلاّ بمشيئته ، وأنه لا شيء يقع في هذا الوجود إلاّ بإذنه . ومن ثم يُقصر توكله عليه ، ولا يتوجه في فعل ولا ترك لمن عداه . وهذا الشعور ضروري لكل أحد ، كي يقف رافع الرأس لا يحني رأسه إلاّ لله . مطمئن القلب لا يرجو ولا يرهب أحداً إلاّ الله . ثابت الجأش في الضراء ، قرير النفس في السراء ، لا تستطيره نعماء ولا بأساء . . ولكن هذا الشعور أشد ضرورة للقائد ، الذي يحتمل تبعة ارتياد الطريق .

وحقيقة التوحيد هي أساس التصور الإيماني كله . ومقتضاها أن يكون التوكل عليه وحده . فهذا هو أثر التصور الإيماني في القلوب . فالتوكل على الله وحده على وجه القصر والحصر . . « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . . فليس لهم إن كانوا مؤمنين إلاّ هذا السند المتين : « فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » . . والخلة التي يحبها الله ويحب أهلها هي الخلة التي ينبغي أن يحرص عليها المؤمنون ، بل هي التي تميز المؤمنين .

والتوكل على الله ، وردّ الأمر إليه في النهاية هو خط التوازن الأخير في

التصور الإسلامي وفي الحياة الإسلامية . وهو التعامل مع الحقيقة الكبيرة : حقيقة أن مردّ الأمر كله لله ، وأن الله فعال لما يريد . والتوكل على الله بعد اتخاذ العدة ونفض الأيدي من العواقب ، وتعليقها بقدر الله .

إن التصور الإسلامي يتسم بالتوازن المطلق بين تقرير الفاعلية المطلقة لقدر الله سبحانه وتحقق هذا القدر في الحياة الإنسانية من خلال نشاط الإنسان وفاعليته وعمله .

إن سنّة الله تجري بترتيب النتائج على الأسباب . ولكن الأسباب ليست هي التي تنشىء النتائج. فالفاعل المؤثر هو الله . والله يرتب النتائج على الأسباب بقدره ومشيئته . ومن ثم يطلب إلى الإنسان أن يؤدي واجبه ، وأن يبذل جهده ، وأن يفي بالتزاماته.وبقدر ما يوفي بذلك كله يرتب الله النتائج ويحققها . وهكذا تظل النتائج والعواقب متعلقة بمشيئة الله وقدره . هو وحده الذي يأذن لها بالوجود حين يشاء . . وهكذا يتوازن تصور المسلم وعمله . فهو يعمل ويبذل ما في طوقه ، وهو يتعلق في نتيجة عمله وجهده بقدر الله ومشيئته . ولا حتمية في تصوره بين النتائج والاسباب. فهو لا يحتم أمراً بعينه على الله ، والحقيقة الكلية المطلقة في هذا الوجود ، أن لا قوة إلاّ قوة الله ، ولا قدرة إلاّ قدرته ، ولا مشيئة إلاّ مشيئته . وعنها تصدر الأشياء والأحداث . . ولكن هذه الحقيقة الكلية المطلقة لا تعفي المسلمين من اتباع المنهج ، وطاعة التوجيه ، والنهوض بالتكاليف ، وبذل الجهد ، والتوكل بعد هذا كله على الله : « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » . . وبذلك يخلص تصور المسلم من التماس شيء من عند غير الله ، ويتصل قلبه مباشرة بالقوة الفاعلة في هذا الوجود ، فينفض يده من كل الأشباح الزائفة والأسباب الباطلة للنصرة والحماية والالتجاء ؛ ويتوكل على الله وحده في احداث النتائج ، وتحقيق المصاير . وتدبر الأمر بحكمته ، وتَقَبّل ما يجيء به قدر الله في اطمئنان أياً كان . . إنه التوازن العجيب الذي لا يعرفه القلب البشري إلاّ في الإسلام .

فالمؤمن يتوكل على الله وحده : « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » . . وهذه هي خاصية الإيمان وعلامته ، وهذا هو منطق الإيمان ومقتضاه « وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » . . نعم . . وكفى بالله وكيلا . لا يضار من كان وكيله ، ولا يناله تآمر ولا تبييت ولا مكيدة .

إن الذين يجدون في قلوبهم الاتكال على أحد غير الله أو على سبب يجب أن يبحثوا ابتداء في قلوبهم عن الله . يقول الله سبحانه : « إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون » . . عليه وحده كما يفيد بناء العبارة . لا يشركون معه أحداً . يستعينون به ويتوكلون عليه وحده ؛ أو كما عقّب عليها الإمام ابن كثير في التفسير « أي لا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلاّ إياه ، ولا يلوذون إلاّ بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلاّ منه ، ولا يرغبون إلاّ إليه . ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . . وأنه المتصرف في الملك . لا شريك له ، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب . ولهذا قال سعيد بن جبير : « التوكل على الله جماع الإيمان » .

وهذا هو إخلاص الاعتقاد بوحدانية الله ، وإخلاص العبادة له دون سواه ، فما يمكن أن يجتمع في قلب واحداً ، توحيد الله ، والتوكل على أحد معه سبحانه. وليس الاتكال على الله وحده بمانع من اتخاذ الأسباب . فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها . ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي تُنشئ النتائج فيتكل عليها . . إن الذي ينشئ النتائج — كما يُنشئ الأسباب — هو قدر الله ، ولا علاقة بين السبب والنتيجة في شعور المؤمن . . اتخاذ السبب عبادة بالطاعة ، وتحقيق النتيجة قدر من الله مستقل عن السبب لا يقدر عليه إلاّ الله ، وبذلك يتحرر شعور المؤمن من التعبد للأسباب والتعلق بها ، وفي الوقت ذاته يستوفيها بقدر طاقته لينال ثواب طاعة الله في استيفائها

إن المومن يعتقد بأن ما يصيبه من خير أو شر معقود بإرادة الله وان الله ناصر له: «قل لن يصيبنا إلاّ ماكتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون»..

والاعتقاد بقدر الله، والتوكل الكامل على الله لا ينفيان اتخاذ العدة بما في الطوق.. فذلك أمر الله الصريح.. «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة».. وما يتكل على الله حق الاتكال من لا ينفذ أمر الله، ومن لا يأخذ بالأسباب، ومن لا يدرك سنّة الله الجارية التي لا تحابي أحداً. ولا تراعي خاطر إنسان. والتوكل على الله دلالة الإيمان ومقتضاه. وعنصر القوة الذي يضاف إلى رصيد المسلم.. فالله سبحانه إليه تنتهي القوة والملك والعظمة والجاه، وهو حسب من لاذَ به. وحسب من والاه.. «فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلاّ هو عليه توكلت وهو ربُّ العرش العظيم».. فالله سبحانه هو الولي وحده والنصير «فاعبده وتوكل عليه».. «عليه توكلت»..

هذا هو منهج المؤمن في الاعتماد عليه وحده دون غيره.. إن جماعة من البشر مهما يكونوا من القوة والمنعة فهم ناس، وهم ضعاف، وهم عباد من عباد الله: «ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره».. والتوكل على الله، وهو كاف لمن يتوكل عليه. فالله بالغ أمره. فما قدر وقع، وما شاء كان. فالتوكل عليه توكل على قدرة القادر وقوة القاهر الفعال لما يريد. البالغ ما يشاء.

والنص عام والمقصود به هو إنشاء التصور الإيماني الصحيح في القلب بالنسبة لإرادة الله «قد جعل الله لكل شيء قدراً».. فكل شيء مقدر بمقداره، وبزمانه وبمكانه، وبملابساته، وبنتائجه وأسبابه. ليس شيء مصادفة، وليس شيء جزافاً في هذا الكون كله، وفي نفس الإنسان وحياته.. وهي حقيقة ضخمة يقوم عليها جانب كبير من التصور الإيماني.

فعلى الله وحده يتوكل المؤمن، لا يلتفت قلبه إلى سواه، ولا يرجو عوناً

إلاّ منه ، ولا يرتكن إلاّ إلى حماه يقول الله سبحانه : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . . « ومالنا ألاّ نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا » . .

إنها كلمة المطمئن إلى موقفه وطريقه ، المالىء يديه من وليه وناصره ، المؤمن بأن الله الذي يهدي السبيل لا بد أن ينصر وأن يعين . والقلب الذي يحس أن يد الله سبحانه تقود خطاه ، وتهديه السبيل ، هو قلب موصول بالله لا يخطىء الشعور بوجوده — سبحانه — وألوهيته القاهرة المسيطرة ؛ وهو شعور لا مجال معه للتردد في الطريق ، أياً كانت العقبات في الطريق ، وأياً كانت قوى الطاغوت التي تتربص في هذا الطريق .

وهذه الحقيقة — حقيقة الارتباط في قلب المؤمن بين شعوره بهداية الله وبين بديهية التوكل عليه — لا تستشعرها إلاّ القلوب التي تزاول الحركة فعلاً في مواجهة طاغوت الجاهلية ، والتي تستشعر في أعماقها يد الله سبحانه وهي تفتح له كوى النور فتبصر الآفاق المشرقة وتستروح أنسام الإيمان والمعرفة ، وتحس الأنس والقربى . . وحينئذ لا تحفل بما يتوعدها به طواغيت الأرض ، ولا تملك أن تستجيب للاغراء ولا للتهديد ، وهي تحتقر طواغيت الأرض وما في أيديهم من وسائل البطش والتنكيل . وماذا يخاف القلب الموصول بالله على هذا النحو ؟ وماذا يخيفه من أولئك العبيد : « ومالنا ألاّ نتوكل على الله » . . « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » . . فالمؤمنون لا يشركون مع الله أحداً في الاعتماد والتوجه والتكلان . . « وتوكل علي الحي الذي لا يموت وسبّح بحمده » . . وكل ما عدا الله ميت ، فلا يبقى إلاّ الحي الذي لا يموت . والتوكل على ميت تفارقه الحياة يوماً طال عمره أم قصر ، هو ارتكان إلى ركن ينهار وإلى ظل يزول . . إنما التوكل على الحي الدائم الذي لا يزول : « وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » . . لا تحفل كيدهم ولا مكرهم ، وألق بأمرك كله إلى الله يصرفه بعلمه وحكمته وخبرته . . ورد الأمر إلى الله في النهاية

والتوكل عليه وحده هو القاعدة الثابتة المطمئنة التي يفيء إليها القلب فيعرف عندها حدوده وينتهي إليها، ويدع ما وراءها لصاحب الأمر والتدبير في ثقة وفي طمأنينة وفي يقين. فالمؤمنون لا يتوكلون إلاّ على الله «وعلى الله فليتوكل المؤمنون» . . فليس وراء ذلك توكل . وليس من دون الله من يتوكل عليه المؤمنون . . فالتوكل على الله هو الحارس الحامي، وهو القوي العزيز . وهو العليم الخبير . وهو الشاهد الحاضر الذي لا يغيب . ولا يكون في الكون إلاّ ما يريد . وعَدَ بحراسة المؤمنين فأي طمأنينة بعد هذا وأي يقين .

وبعد هذا التوكل يعلن المؤمن عقيدته الناصعة «قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تُنظرون . إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وان تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا . وتراهم ينظرون إليك وهم لا يُبصرون» . .

إنها كلمة المؤمن في وجه الجاهلية . ولقد قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أمره ربه وتحدى بها المشركين في زمانه وآلهتهم المدعاة : «قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون» . .

لقد قذف في وجوههم ووجوه آلهتهم المدعاة بهذا التحدي وقال لهم ألاّ يألوا جهداً في جمع كيدهم وكيد آلهتهم بلا إمهال ولا إنظار . قالها في لهجة الواثق المطمئن إلى السند الذي يرتكن إليه ويحتمي من كيدهم جميعاً : «إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين» . . فأعلن بها عمن إليه يرتكن . إنه يرتكن إلى الله الذي نزل الكتاب . فدلّ بتنزيله على إرادته – سبحانه – في أن يواجه رسوله الناس بالحق الذي فيه . كما قدر أن يُعلي هذا الحق على باطل المبطلين ، وأن يحمي عباده الصالحين الذين يبلغونه ويحملونه ويثقون فيه . . وانها لكلمة صاحب الدعوة إلى الله بعد رسول الله صلى الله

عليه وسلم في كل مكان وفي كل زمان . « قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن وليي الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين » . .

إنه لا بد لصاحب الدعوة إلى الله أن يتجرد من أسناد الأرض ، وأن يستهين كذلك بأسناد الأرض . إنها في ذاتها واهية ، واهنة ، مهما بدت قوية قادرة . يقول الله سبحانه : « يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له . إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » . . « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » . .

وصاحب الدعوة إلى الله يَرتكن إلى الله . فما هذه الأولياء والأسناد الأخرى إذن ؟ وماذا تساوي في حسّه ؟ حتى لو قدرت على أذاه ؟ إنها تقدر على أذاه بإذن ربه الذي يتولاه . لا عجزاً من ربه عن حمايته من أذاها — سبحانه وتعالى — ولا تخلياً منه — سبحانه — عن نصرة أوليائه. ولكن ابتلاء لعباده الصالحين للتربية والتمحيص والتدريب ، واستدراجاً لعباده الطالحين للاعذار والإمهال والكيد المتين .

لقد كان أبو بكر — رضي الله عنه — يردد والمشركون يتناولونه بالأذى ويضربون وجهه الكريم بالنعال المخصوفة يحرفونها إلى عينيه ووجهه حتى تركوه ولا يعرف له فم من عين . . كان يردد طوال هذا الاعتداء المنكر الفاجر على أكرم من أقلّت الأرض بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ربّ ما أحلمك . . ربّ ما أحلمك . . ربّ ما أحلمك) . كان يعرف في قرارة نفسه ما وراء هذا الأذى من حلم ربه . لقد كان واثقاً أن ربه لا يعجز عن التدمير على أعدائه ، كما كان واثقاً أن ربه لا يتخلى عن أوليائه .

ولقد كان عبد الله بن مسعود — رضي الله عنه — يقول وقد تناوله المشركون

بالأذى لأنه أسمعهم القرآن إلى جوار الكعبة حتى تركوه وهو يترنح لا يصلب قامته . . كان يقول بعد هذا الأذى المنكر الفاجر الذي ناله (والله ما كان أهون عليّ منهم حينذاك) . كان يعرف أنهم يحادون الله – سبحانه – وكان يستيقن أن الذي يحاد الله مغلوب هـَين على الله ، فينبغي أن يكون مـَهيناً عند أولياء الله .

ولقد كان عبد الله بن مظعون – رضي الله عنه – وقد خرج من جوار عتبة بن ربيعة المشرك لأنه لم يستسغ لنفسه أن يحتمي بجوار مشرك فيكف عنه الأذى واخوان له في الله يـُؤْذَون في سبيل الله . وقد تجمـّع عليه المشركون بعد خروجه من جوار عتبة فآذوه حتى خسروا عينه . كان يقول لعتبة وهو يراه في هذه الحال فيدعوه أن يعود إلى جواره « لأنا في جوار من هو أعزّ منك » . .

وكان يرد على عتبة إذ قال له « يا ابن أخي لقد كانت عينك في غنى عما أصابها » . . يقول « لا والله . . وللأخرى أحق لما يصلحها في سبيل الله » . . كان يعلم أن جوار ربـّه أعز من جوار العبيد ، وكان يستيقن أن ربـّه لا يتخلى عنه ، ولو تركه يـُؤذى في سبيله هذا الأذى ، لترتفع نفسه إلى هذا الأفق العجيب : « لا والله . وللأخرى أحق لما يصلحها في سبيل الله » . .

هذه نماذج من ذلك الجيل السامق الذي تربى بالقرآن في حجر محمد صلى الله عليه وسلم في ظلال ذلك التوجيه الرباني الكريم . . « قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون إن وليي الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين » .

ثم ماذا كان بعد هذا الأذى الذي احتملوه من كيد المشركين ، وهذا الاعتصام بالله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين ؟ كان ما يعرفه التاريخ. لمن كانت الغلبة والتمكين . لأولياء الله ، وكانت الهزيمة والهوان والدثور

للطواغيت الذين قتلهم الصالحون . وكانت التبعية ممن بقي منهم ممن شرح الله صدره للإسلام لهؤلاء السابقين . الذين احتملوا الأذى بثقة في الله لا تتزعزع ، وبعزيمة في الله لا تلين .

إن صاحب الدعوة إلى الله في كل زمان وفي كل مكان لن يبلغ شيئاً إلاّ بمثل هذه الثقة ، وإلاّ بمثل هذه العزيمة وإلاّ بمثل ذلك اليقين . . « إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » . . ومهما أسفر الباطل عن غشمه وأطلق على الدعاة تهديده ، وبغى في وجه كلمة الحق الهادئة ، وعربد في التعبير والتفكير . . ينبغي على الدعاة أن يمضوا في الطريق وأن يحملوا الواجب الملقى على عاتقهم .

ولا بد من إعادة بيان هذه الحقيقة في التصور الإسلامي . . إن مشيئة الله التي تريد النتيجة هي ذاتها التي تُيسر الأسباب . والعقيدة الإسلامية واضحة ومنطقية فهي تردّ الأمر كله إلى الله . ولكنها لا تعفي البشر من الأخذ بالأسباب الطبيعية التي من شأنها أن تظهر النتائج إلى عالم الشهادة والواقع . أما أن تتحقق النتائج فعلاً أو لا تتحقق فليس داخلاً في التكليف ، لأن مردّ ذلك في النهاية إلى تدبير الله .

ولقد ترك الأعرابي ناقته طليقة على باب مسجد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ودخل يصلي قائلاً : توكلت على الله . . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « اعقلها وتوكل » (١) . فالتوكل في العقيدة الإسلامية مقيد بالأخذ بالأسباب وردّ الأمر بعد ذلك إلى الله .

(١) أخرجه الترمذي من حديث أنس بن مالك .

١١ – « لا مشرع إلا الله »

إن الجاهلية ليست فترة ماضية من فترات التاريخ ، إنما الجاهلية كل منهج تتمثل فيه عبودية البشر للبشر ، وهذه الخاصية تتمثل اليوم في كل مناهج الأرض بلا استثناء . ففي كل المناهج التي تعتنقها البشرية اليوم ، يأخذ البشر عن بشر مثلهم : التصورات والمبادىء والموازين والقيم والشرائع والقوانين ، والأوضاع والتقاليد . وهذه الجاهلية بكل مقوماتها . الجاهلية التي تتمثل فيها عبودية البشر للبشر ، حيث يتعبّد بعضهم بعضاً من دون الله .

والإسلام هو منهج الحياة الوحيد،الذي يتحرر فيه البشر من عبودية البشر لأنهم يتلقون التصورات والمبادىء والموازين والقيم ، والشرائع والقوانين والأوضاع والتقاليد من يد الله سبحانه . فإذا أحنوا رؤوسهم فإنما يحنونها لله وحده ، وإذا طاعوا الشرائع فإنما يطيعون الله وحده . وإذا خضعوا للنظام فإنما يخضعون لله وحده . ومن ثم يتحررون حقاً من عبودية العبيد للعبيد ، حين يصبحون كلهم عبيداً لله بلا شريك . وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية – في كل صورة من صورها – وبين الإسلام .

إن الأمر في هذا الدين – الإسلام – بل في دين الله كله منذ أن أرسل رسله للناس منذ فجر التاريخ . . إن الأمر في دين الله كله هو : لمن الألوهية في هذه الأرض؟ ولمن الربوبية على هؤلاء الناس ؟ .. إن على الإجابة عن هذا السؤال في صيغتيه هاتين ، يترتب كل شيء في أمر هذا الدين ، وكل شيء

في أمر الناس أجمعين ! ! لمن الألوهية ولمن الربوبية ؟ . . لله وحده بلا شريك من خلقه . فهو الإيمان إذن وهو الإسلام .

أوهو لشركاء من خلقه معه ، أو لشركاء من خلقه دونه ، فهو الشرك إذن أو الكفر المبين .

فإما أن تكون الألوهية والربوبية لله وحده ، فهي الدينونة من العباد لله وحده . وهي العبودية من الناس لله وحده . وهي الطاعة من البشر لله وحده . وهي الاتباع لمنهج الله وحده بلا شريك . . فالله وحده هو الذي يختار للناس منهج حياتهم ، والله وحده هو الذي يسنّ للناس شرائعهم . والله وحده هو الذي يضع للناس موازينهم وقيمهم وأوضاع حياتهم وأنظمة مجتمعاتهم . . وليس لغيره أفراداً أو جماعات – شيء من هذا الحق إلاّ بالارتكان إلى شريعة الله – لأن هذا الحق هو مقتضى الألوهية والربوبية ومظهرها البارز المحدد لخصائصها المميزة .

واما أن تكون الألوهية أو الربوبية لأحد من خلق الله – شركة مع الله أو أصالة من دونه – فهي الدينونة من العباد لغير الله . وهي العبودية من الناس لغير الله ، وهي الطاعة من البشر لغير الله . وذلك باتباع المناهج والأنظمة والشرائع والقيم والموازين التي يصنعها ناس من البشر ، ولا يستندون في وضعها إلى كتاب الله وسلطانه ، إنما يستندون إلى أسناد أخرى يستمدون منها السلطان . . ومن ثم فلا دين . ولا إيمان ، ولا إسلام ، إنما هو الشرك والكفر والفسوق والعصيان . . هذا هو الأمر في جملته وفي حقيقته . . ومن ثم يستوي أن يكون الخروج على حدود الله في أمر واحد ، أو في الشريعة كلها . . لأن الأمر الواحد هو الدين – على ذلك المعنى – والشريعة كلها هي الدين . . فالعبرة بالقاعدة التي تستند إليها أوضاع الناس ، هي إخلاص الألوهية والربوبية لله – بكل خصائصها – أو إشراك أحد من خلقه معه . أو استقلال خلقه دونه

بالألوهية والربوبية بعضهم على بعض . مهما ادعوا لأنفسهم من الدخول في الدين ومهما رددت ألسنتهم – دون واقعهم – أنهم مسلمون .

إن الإصر الأكبر الذي رفعه الله عن كاهل الأمة المسلمة ، والذي حمله الله على عاتق الأمم التي استخلفها الله في الأرض قبلهم فنقضت عهد الاستخلاف وحادت عن الطريق.. الإصر الأكبر هو إصر العبودية للبشر . عبودية العبيد للعبيد ممثلة في تشريع العبيد للعبيد . وفي خضوع العبد للعبيد ، لذاته ، أو لطبقته أو لجنسه . .

فهذا هو الإصر الأكبر الذي أطلق الله عباده المؤمنين منه فردّهم إلى عبادته وحده وطاعته وحده ، وتلقي الشريعة منه وحده . وحرر بهذه العبودية لله الواحد الأحد أرواحهم وعقولهم وحياتهم كلها من العبودية للعبيد .

إن العبودية لله وحده – متمثلة في تلقي الشرائع والقوانين والقيم والموازين منه وحده – هي نقطة الانطلاق والتحرر البشري ، والتحرر من سلطان الجبارين والطغاة ومن سلطان السدنة والكهنة ، ومن سلطان الأوهام والخرافات . ومن سلطان العُرف والعادة ، ومن سلطان الهوى والشهوة . ومن كل سلطان زائف يمثل الإصر الذي يلوي أعناق البشر ويخفض جباههم لغير الله الواحد القهار .

والفساد الذي يتولاه المعرضون عن حقيقة التوحيد فساد عظيم . وما ينشأ في الأرض الفساد – في الواقع – إلاّ من الحيرة عن اعتراف القلب السلبي . فهذا الاعتراف لا ينشىء آثاره الواقعية في حياة الناس . . إنما هي الحيرة عن الاعتراف بهذه الحقيقة بكل آثارها التي تلازمها في الواقع ، واقع الحياة البشرية . . وأول ما يلازم حقيقة التوحيد أن تتوحد الربوبية فتتوحد العبودية . . لا عبودية إلاّ لله . ولا طاعة إلاّ لله . ولا تلقي إلاّ من عند الله . فليس

إلاّ لله تكون العبودية . وليس إلاّ لله تكون الطاعة . وليس إلاّ عن الله يكون التلقي . . التلقي التشريعي ، والتلقي في القيم والموازين ، والتلقي في الآداب والأخلاق ، والتلقي في كل ما يتعلق بنظام الحياة البشرية . . وإلاّ فهو الشرك أو الكفر . . مهما اعترفت الألسنة ، ومهما اعترفت القلوب الاعتراف السلبي الذي لا ينشىء آثاره في حياة الناس العامة في الاستسلام والطاعة والاستجابة والقبول .

إن هذا الكون بجملته لا يستقيم أمره ولا يصلح حاله ، إلاّ أن يكون هناك إله واحد يدبر أمره . . «لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا » . . وأظهر خصائص الألوهية بالقياس إلى البشرية : تعبيد العبيد ، والتشريع لهم في حياتهم ، وإقامة الموازين لهم . فمن ادعى لنفسه شيئاً من هذا كله فقد ادعى لنفسه أظهر خصائص الألوهية وأقام نفسه للناس إلهاً من دون الله . وما يقع الفساد في الأرض كما يقع عندما تتعدد الآلهة في الأرض على هذا النحو . عندما يتعبد الناسُ الناسَ . عندما يدعي عبد من العبيد أن له على الناس حق الطاعة لذاته ، وأن له فيهم حق التشريع لذاته ، وان له كذلك حق إقامة القيم والموازين لذاته . فهذا هو ادعاء الألوهية ، ولو لم يقل كما قال فرعون « أنا ربكم الأعلى » . . والإقرار به هو الشرك بالله أو الكفر به . . وهو الفساد في الأرض أقبح الفساد .

إن الدعوة إلى عبادة الله وحده هي عدم الإشراك به شيئاً . . لا بشراً ولا حجراً . . دعوة إلى ألا يتخذ بعضهم بعضاً من دون الله أرباباً . لا نبياً ولا رسولاً فكلهم لله عبيد . إنما اصطفاهم الله للتبليغ عنه ، لا لمشاركته في الألوهية والربوبية .

إن الله سبحانه يقرر بوضوح حاسم من هم المسلمون . . المسلمون هم الذين يعبدون الله وحده ، ويتعبدون لله وحده . ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً

من دون الله . . هذه هي خصيصتهم التي تميزهم من سائر الملل والنّحل ، وتميز منهج حياتهم من مناهج حياة البشر جميعاً . وإما أن تتحقق هذه الخصيصة فهم مسلمون ، وإما أن لا تتحقق فما هم بمسلمين مهما ادعوا أنهم مسلمون .

إن الإسلام هو التحرر المطلق من العبودية للعبيد . والنظام الإسلامي هو وحده من بين سائر النظم الذي يحقق هذا التحرر . . إن الناس في جميع النظم الأرضية يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله .. يقع هذا في أرقى الديمقراطيات كما يقع في أحط الديكتاتوريات سواء . إن أول خصائص الربوبية هو حق تعبيد الناس . حق إقامة النظم والمناهج والشرائع والقوانين والقيم والموازين . وهذا الحق في جميع الأنظمة الأرضية يدعيه بعض الناس — في صورة من الصور — ويرجع الأمر فيه إلى مجموعة من الناس — على أي وضع من الأوضاع وهذه المجموعة التي تخضع الآخرين لتشريعها وقيمها وموازينها وتصوراتها هي الأرباب الأرضية التي يتخذها بعض الناس أرباباً من دون الله ، وان لم يسجدوا لها ويركعوا ، فالعبودية عبادة لا يتوجه بها إلاّ لله .

وفي النظام الإسلامي وحده يتحرر الإنسان من هذه الربقة ، ويصبح حراً ، يتلقى التصورات والنظم والمناهج والشرائع والقوانين والقيم والموازين من الله وحده شأنه في هذا شأن كل انسان آخر مثله . فهو وكل إنسان آخر على سواء . كلهم يقفون في مستوى واحد ويتطلعون إلى سيد واحد ، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله فإنما يخضعون لله وحده . ومن ثم يتحررون حقاً من عبودية العبيد للعبيد ، حين يصبحون كلهم عبيداً لله بلا شريك . وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية — في كل صورة من صورها — وبين الإسلام .

إن الدين هو النظام الذي قرره الله للحياة البشرية بجملتها ، والمنهج الذي

يسير عليه نشاط الحياة برمتها . والله هو وحده صاحب الحق في وضع هذا المتهج بلا شريك . والدين هو الاتباع والطاعة للقيادة الربانية التي لها وحدها حق الطاعة والاتباع ، ومنها وحدها يكون التلقي ، ولها وحدها يكون الاستسلام . . فالمجتمع المسلم مجتمع له قيادة خاصة — كما له عقيدة خاصة وتصور خاص — قيادة ربانية متمثلة في رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وفيما يبلغه عن ربه مما هو باق بعده من شريعة الله ومنهجه . وتبعية هذا المجتمع لهذه القيادة هي التي تمنحه حق الإسلام وتجعل منه (مجتمعاً مسلماً) . وبغير هذه التبعية المطلقة لا يكون (مسلماً) بحال . وبشرط . وهذه التبعية هي التحاكم إلى الله والرسول وردّ الأمر كله إلى الله والرضى بحكم رسوله وتنفيذه مع القبول والتسليم .

وهكذا يتحدد معنى الدين ، وحد الإيمان ، وشرط الإسلام ، ونظام المجتمع المسلم ، ومنهجه في الحياة . وهكذا لا يعود الإيمان مجرد مشاعر وتصورات ، ولا يعود الإسلام مجرد كلمات وشعارات ، ولا مجرد شعائر تعبدية وصلوات . إنما هو إلى جانب هذا وذاك ، وقبل هذا وذاك نظام يحكم ومنهج يتحكم ، وقيادة تطاع ، ووضع يستند إلى نظام معين ، ومنهج معين ، وقيادة معينة . وبغير هذا كله لا يكون إسلام ، ولا يكون مجتمع ينسب نفسه إلى الإسلام .

يترتب على ذلك أن تكون التنظيمات الاجتماعية كلها في المجتمع — شأنها شأن الشعائر التعبدية — مرتكنة إلى هذا الأصل الكبير ،مستندة إلى معنى الدين ، وحد الإيمان ، وشرط الإسلام ، على هذا النحو الذي قرره الله سبحانه . فهي ليست مجرد تنظيمات وتشريعات ، إنما هي مقتضيات الإيمان بالله والاعتراف بألوهيته ، وإفراده بالألوهية ، والتلقي من القيادة التي يحددها . . ومن ثم ترى كل التشريعات والتنظيمات تستند إلى هذه الجهة .

إنها قضية الحكم والشريعة والتقاضي -- ومن ورائها قضية الألوهية

والتوحيد والإيمان – والقضية في جوهرها تتلخص في الإجابة على هذا السؤال : أيكون الحكم والشريعة والتقاضي حسب مواثيق الله وعقوده وشرائعه التي استحفظ عليها أصحاب الديانات السماوية واحدة بعد الأخرى وكتبها على الرسل وعلى من يتولون الأمر بعدهم ليسيروا على هداهم ؟ . . أم يكون ذلك كله للأهواء المتقلبة ، والمصالح التي لا ترجع إلى أصل ثابت من شرع الله ، والعرف الذي يصطلح عليه جيل أو أجيال ؟ . . وبتعبير آخر : أتكون الألوهية والربوبية والقوامة لله في الأرض وفي حياة الناس ؟ أم تكون كلها أو بعضها لأحد من خلقه يشرع للناس ما لم يأذن به الله .

الله – سبحانه – يقول : إنه هو الله لا إله إلاّ هو . وإن شرائعه التي سنّها للناس بمقتضى ألوهيته لهم وعبوديتهم له ، ، هي التي يجب أن تحكم هذه الأرض ، وهي التي يجب أن يقضي بها الأنبياء ومن بعدهم من حكام . .

والله – سبحانه – يقول : إنه لا هوادة في هذا الأمر ، ولا ترخص في شيء منه ، ولا انحراف عن جانب ولو صغير . وانه لا عبرة بما تواضع عليه جيل ، أو لما اصطلح عليه قبيل ، مما لم يأذن به الله في قليل ولا كثير !

والله – سبحانه – يقول : إن المسألة – في هذا كله – مسألة إيمان أو كفر ، وإسلام أو جاهلية ، وشرع أو هوى . وانه لا وسط في هذا الأمر ولا هدنة ولا صلح . فالمؤمنون هم الذين يحكمون بما أنزل الله – لا يحذفون منه حرفاً ولا يبدلون منه شيئاً – والكافرون والظالمون والفاسقون هم الذين لا يحكمون بما أنزل الله . وانه اما أن يكون الحكام قائمين على شريعة الله كاملة فهم في نطاق الإيمان . وإما أن يكونوا قائمين على شريعة أخرى مما لم يأذن به الله فهم الكافرون والظالمون والفاسقون . وان الناس إما أن يقبلوا من الحكام والقضاة حكم الله وقضاءه في أمورهم فهم مؤمنون . . وإلاّ فما

هم بالمؤمنين . . ولا وسط بين هذا الطريق وذاك ، ولا حجة ولا معذرة ولا احتجاج بمصلحة . فالله رب الناس يعلم ما يصلح للناس ، ويضع شرائعه لتحقيق مصالح الناس الحقيقية . وليس أحسن من حكمه حكم أو شريعة . . وليس لأحد من عباده أن يقول اني أرفض شريعة الله ، أو انني أبصر بمصلحة الخلق من الله . . فإن قالها — بلسان أو بفعل — فقد خرج من نطاق الإيمان .

فما يمكن أن يجتمع الإيمان وعدم تحكيم شريعة الله ، أو عدم الرضى بحكم هذه الشريعة . والذين يزعمون لأنفسهم أو لغيرهم أنهم « مؤمنون » ثم هم لا يحكمون شريعة الله في حياتهم ، أو لا يرضون حكمها إذا طبق عليهم . . إنما يدعون دعوى كاذبة ، وإنما يصطدمون بهذا النص القاطع . . « وما أولئك بالمؤمنين » . . فليس الأمر في هذا هو أمر عدم تحكيم شريعة الله من الحكام فحسب ، بل إنه كذلك عدم الرضى لحكم الله من المحكومين ، يخرجهم من دائرة الإيمان ، مهما ادعوه باللسان وهذا يطابق نص الآية الكريمة.. « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً.. فهذا يتعلق بالمحكومين وبالحكام. ويخرج من الإيمان ، وينفي صفة الإيمان عمن لا يرضى بحكم الله ورسوله ومن يتولى عنه ويرفض قبوله .

إن القضية هي قضية هذا الدين كما هي قضية هذه العقيدة . فهذه التشريعات والتقاليد ، إنما زينها للمشركين شركاؤهم الذين يشرعونها لهم ليدمروا حياتهم ويلبسوا عليهم دينهم ؛ وتلبيس الدين وتدمير الحياة مرتبطان فإما شرع الله فهو الدين الواضح والحياة السليمة ، وإما شرع غير الله فهو الدين الغامض والحياة المهددة بالردى . إن هناك مسافة هائلة بين اعتبار الإسلام منهجاً إلهياً ، جاء ليقرر ألوهية الله في الأرض وعبودية البشر جميعاً لإله واحد ، ويصب هذا التقرير في قالب واقعي ، هذا المجتمع الإنساني الذي

يتحرر فيه الناس من العبودية للعباد ، بالعبودية لرب العباد ، فلا تحكمهم إلاّ شريعة الله التي يتمثل فيها سلطان الله ، أو بتعبير آخر تتمثل فيها ألوهيته . . فمن حقه إذن أن يزيل العقبات كلها من طريقه ، ليخاطب وجدان الأفراد وعقولهم دون حواجز ولا موانع مصطنعة من نظام الدول السياسي ، أو أوضاع الناس الاجتماعية . . وان هناك مسافة هائلة بين اعتبار الإسلام على هذا النحو ، واعتباره نظاماً محلياً في وطن بعينه . فمن حقه فقط أن يدفع الهجوم عليه في داخل حدوده الإقليمية . من حق الإسلام أن يخرج « الناس » من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . . ليحقق إعلانه العام بربوبية الله للعالمين ، وتحرير الناس أجمعين . . وعبادة الله وحده لا تتحقق في التصور الإسلامي وفي الواقع العملي – إلاّ في ظل النظام الإسلامي . . فهو وحده النظام الذي يشرع الله فيه للعباد كلهم . حاكمهم ومحكومهم . أسودهم وأبيضهم . قاصيهم ودانيهم . فقيرهم وغنيهم . تشريعاً واحداً يخضع له الجميع على السواء .

أما في سائر الأنظمة ، فيعبد الناس العباد ، لأنهم يتلقون التشريع لحياتهم من العباد . وهو من خصائص الألوهية . فأيما بشر ادّعى لنفسه سلطان التشريع للناس من عند نفسه فقد ادعى الألوهية اختصاصاً وعملاً ، سواء ادّعاها قولاً أم لم يعلن هذا الادعاء! وأيما بشر آخر اعترف لذلك البشر بذلك الحق فقد اعترف له بحق الألوهية سواء سمّاها باسمها أم لم يسمها .

إن هذه الأرض لا تصلح بالتشريعات والتنظيمات . . ما لم يكن هناك رقابة من التقوى في الضمير لتنفيذ التشريعات والتنظيمات . . وهذه التقوى لا تجيش – تجاه التشريعات والتنظيمات – إلاّ حين تكون صادرة من الجهة المطّلعة على السرائر ، الرقيبة على الضمائر . . عندئذ يحس الفرد – وهو يهمّ بانتهاك حرمة القانون – أنه يخون الله ، ويعصي أمره ، ويصادم إرادته ،

وأن الله مطّلع على نيته هذه وعلى فعله . عندئذ تتنزلزل أقدامه ، وترتجف مفاصله ، وتجيش تقواه .

إن الله أعلم بعباده ، وأعرف بفطرتهم وأخبر بتكوينهم النفسي والعصبي – وهو خلقهم – ومن ثم جعل التشريع تشريعه ، والقانون قانونه ، والنظام نظامه ، والمنهج منهجه ، ليكون له في القلوب وزنه وأثره ومخافته ومهابته . . وقد علم سبحانه أنه لا يطاع أبداً شرع لا يرتكن إلى هذه الجهة التي تخشاها وترجوها القلوب ، وتعرف أنها مطلعة على خفايا السرائر وخبايا القلوب . وأنه مهما أطاع العبيد تشريع العبيد ، تحت تأثير البطش والإرهاب ، والرقابة الظاهرية التي لا تطلع على الأفئدة ، فإنهم لا بد متفلتون منها كلما غافلوا الرقابة ، وكلما واتتهم الحيلة . مع شعورهم دائماً بالقهر والكبت والتهيؤ والانقضاض .

١٢ - « النظرية الدستورية الإسلامية »

يقول الله سبحانه (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا . واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

هذه هي قاعدة تلقي الشريعة من مصدر واحد . . فهي كذلك تمثل النظرية الدستورية الإسلامية . فسلطان القانون في الإسلام مستمد من أن هذا التشريع جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم قرآناً أو سنة . . والأمة كلها والإمام معها لا تملك أن تخالف عما جاء به الرسول . فإذا شرعت ما يخالفه لم يكن لتشريعها هذا سلطان، لأنه فقد السند الأول الذي يُستمد منه السلطان . . وهذه النظرية تخالف جميع النظريات البشرية الوضعية ، بما فيها تلك التي تجعل الأمة مصدر السلطات ، بمعنى أن للأمة أن تشرع لنفسها ما تشاء ، وكل ما تشرعه فهو ذو سلطان . فمصدر السلطات في الإسلام هو شرع الله الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والأمة تقوم على هذه الشريعة وتحرسها وتنفذها . والإمام نائب عن الأمة في هذا .

وفي هذا تنحصر حقوق الأمة فليس لها أن تخالف عما أتاها الرسول في أي تشريع . فأما حين لا توجد نصوص فيما جاء به الرسول بخصوص أمر يعرض للأمة فسبيلها أن تشرع له بما لا يخالف أصلاً من أصول ما جاء به الرسول . وهذا لا ينقض تلك النظرية . إنما هو فرع عنها . فالمرجع في أي تشريع هو أن يُتبع ما جاء به الرسول إن كان هناك نص . وألا يخالف أصلاً

من أصوله فيما لا نصّ فيه . وتنحصر سلطة الأمة — والإمام نائب عنها — في هذه الحدود . . وهو نظام فريد لا يماثله نظام آخر مما عرفته البشرية من نظم وضعية . وهو نظام يربط التشريع للناس بناموس الكون كله . وينسق بين ناموس الكون الذي وضعه الله له ، والقانون الذي يحكم البشر وهو من الله كي لا يصطدم قانون البشر بناموس الكون ، فيشقى الإنسان أو يتحطم أو تذهب جهوده أدراج الرياح .

إن هذا الدين يقرر أن التحليل والتحريم هو من شأن الله وحده . لأنهما أخص خصائص الألوهية ، فلا تحريم ولا تحليل بغير سلطان من الله . فالله ، وحده ، هو الذي يحلل للناس ما يحل ، ويحرم على الناس ما يحرم وليس لأحد غيره أن يشرع في هذا وذاك ، وليس لأحد أن يدعي هذا الحق . لأن هذا مرادف تماماً لدعوى الألوهية . ومن ثم فإن الجاهلية تحرم أو تحلل ، فيصدر هذا التحريم والتحليل عنها باطلاً بطلاناً أصلياً . غير قابل للتصحيح ، لأنه لا وجود له منذ الابتداء . فإذا جاء الإسلام إلى ما أحلت الجاهلية أو حرمت فهو يحكم ابتداء ببطلانه كلية بطلاناً أصلياً ، ويعتبره كله غير قائم بما أنه صادر من جهة لا تملك إصداره — لأنها ليست إلهاً — ثم يأخذ هو في إنشاء أحكامه إنشاء . فإذا أحل شيئاً كانت الجاهلية تحله أو حرّم شيئاً كانت الجاهلية تحرمه ، فهو يُنشىء هذه الأحكام ابتداء ، ولا يُعتبر هذا منه اعتماداً لأحكام الجاهلية التي أبطلها كلها ، لأنها هي باطلة ولم تصدر من الجهة التي تملك وحدها إصدار هذه الأحكام . . وهي الله . .

هذه هي النظرية الإسلامية في الحل والحرمة تشمل كل شيء في الحياة الإنسانية ولا يخرج عن نطاقها شيء في هذه الحياة . . إنه ليس لأحد غير الله أن يحل أو يحرم في نكاح ، ولا في طعام ، ولا في شراب ، ولا في لباس ، ولا في حركة ، ولا في عمل ، ولا في تعامل ، ولا في ارتباط ، ولا في عرف ، ولا في وضع إلاّ أن يستمد سلطانه من الله حسب شريعة الله .

وكل جهة أخرى تحرم أو تحلل شيئاً من حياة البشر — كبر أم صغر — تصدر أحكامها باطلة بطلاناً أصلياً غير قابلة للتصحيح المستأنف ، وليس تجيء هذه الأحكام في الشريعة الإسلامية تصحيحاً واعتماداً لما كان منها في الجاهلية ، إنما هو إنشاء لهذه الأحكام مستنداً إلى المصدر الذي يملك إنشاء الأحكام .

وهكذا أنشأ الإسلام أحكامه في الحل والحرمة ، وهكذا أقام الإسلام أوضاعه وأنظمته . وهكذا نظم الإسلام شعائره وتقاليده مستنداً في إنشائها إلى سلطانه الخاص .

لقد عني الإسلام بتقرير هذه النظرية ، وكرر الجدل مع الجاهليين في كل ما حرموه وما حللوه . . عُني بتقرير المبدأ فكان يسأل في استنكار : « قل من حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ؟ . « قل تعالوا أتل ما حرَّم ربكم عليكم » . . « قل لا أجد في ما أُوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلاّ أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير . . » الخ . .

وكان يردهم بهذه الاستنكارات إلى ذلك المبدأ الأساسي . وهو أن الذي يملك حق التحريم والتحليل هو الله وحده . وليس ذلك لأحد من البشر . . لا فرد ولا طبقة ولا أمة ولا الناس أجمعين . . إلاّ بسلطان من الله وفق شريعة الله . . والتحليل والتحريم — أي الحظر والإباحة — هو الشريعة . . هو الدين . . فإذا كان الذي يحلل هو الله ، فالناس إذن في دين الله . وإن كان الذي يحرم أو يحلل أحداً غير الله فالناس إذن يدينون لهذا الأحد . وهم إذن في دينه لا في دين الله .

والمسألة على هذا الوضع هي مسألة الألوهية وخصائصها . وهي مسألة الدين ومفهومه . وهي مسألة الإيمان وحدوده . فلينظر المسلمون في أنحاء الأرض أين هم من هذا الأمر ؟ أين هم من هذا الدين ؟ وأين هم من الإسلام وإن كانوا ما يزالون يُصرون على ادعائهم للإسلام ! ! !

إن الدين ليس هو مجرد عقيدة تستكن في الضمير ولا مجرد شعائر تقام وعبادات ، ولا مجرد تنظيم دنيوي فتقطع الصلة بالعقيدة وبالشعائر التعبدية . . وإنما هو منهج يشمل هذا النشاط كله ويربط بين جوانبه ويشدها جميعاً إلى الأصل الأصيل . وهو توحيد الله . والتلقي منه وحده – في هذا النشاط كله دون سواه . توحيده إلهاً معبوداً وتوحيده مصدراً للتوجيه والتشريع لكل النشاط الإنساني أيضاً .

إن التشريعات والتوجيهات في منهج الله إنما تنبثق كلها من أصل واحد ، وترتكز على ركيزة واحدة . إنها تنبثق من العقيدة في الله وترتكز على التوحيد المطلق سمت هذه العقيدة . ومن ثم يتصل بعضها ببعض، ويتناسق بعضها مع بعض ، ويصعب فصل جزئية منها عن جزئية ، وتصبح دراسة أي منها ناقصة بدون الرجوع إلى أصلها الكبير الذي تلتقي عنده . ويصبح العمل ببعضها دون البعض الآخر غير واف بتحقيق صفة الإسلام كما أنه غير واف بتحقيق ثمار المنهج الإسلامي في الحياة .

من العقيدة في الله تنبع كل التصورات الأساسية للعلاقات الكونية الحيوية والإنسانية ؛تلك التصورات التي تقوم عليها المناهج الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية والعالمية ، والتي تؤثر في علاقات الناس بعضهم ببعض في كل مجال النشاط الإنساني في الأرض ، والتي تكيف ضمير الفرد وواقع المجتمع ، والتي تجعل المعاملات عبادات بما فيها من اتباع لمنهج الله ومراقبة لله – والعبادات قاعدة للمعاملات بما فيها من تطهير للضمير والسلوك – والتي تجعل الحياة في النهاية وحدة متماسكة تنبثق من المنهج الرباني ، وتتلقى منه وحده دون سواه وتجعل مردّها في الدنيا والآخرة إلى الله ، هذه هي السمة الأساسية في العقيدة الإسلامية وفي المنهج الإسلامي . إن قضية التشريع هي قضية ألوهية . . الله هو الذي يحرم ويحلل . . والله هو الذي يحظر ويبيح . . والله هو الذي ينهى ويأمر . . ثم تتساوى المسائل كلها عند هذه القاعدة .

كبيرها وصغيرها . فشؤون الحياة الإنسانية بجملتها يجب أن ترد إلى هذه القاعدة دون سواها والذي يدعي حق التشريع أو يزاوله فإنما يدعي حق الألوهية أو يزاوله . . وليس هذا الحق لأحد إلاّ لله . . وإلاّ فهو الاعتداء على حق الله وسلطانه وألوهيته . . والله لا يحب المعتدين . . والذي يستمد في شيء من هذا كله من عرف الناس ومقولاتهم ومصطلحاتهم فإنه يعدل عما أنزل الله إلى رسوله . ويخرج بهذا العدول عن الإيمان بالله . ويخرج بهذا العدول من هذا الدين . .

إن القرآن يعالج قضية التشريع فيجعلها هي قضية الألوهية وقضية الإيمان ، وقضية الدين . . إن الإيمان معناه ومقتضاه الاعتراف بالألوهية ؛ألوهية الله وحده ، والاعتراف له — سبحانه — بالحاكمية . .

إن مقتضى الإيمان ألا يزاول البشر — وهم عبيد الله — خصائص الألوهية التي يتفرد بها الله . فليس للبشر أن يحرموا ما أحل الله لهم وليس لهم أن يُحلوا ما حرم الله . . إن قضية التشريع مرتبطة بقضية الألوهية . والحق الذي ترتكز إليه الألوهية في الاختصاص بتنظيم حياة البشر ، هو أن الله خالق هؤلاء البشر ورازقهم ، فهو وحده صاحب الحق إذن في أن يحل لهم ما يشاء من رزقه وأن يحرم عليهم ما يشاء . . وهو منطق يعترف به البشر أنفسهم . فصاحب الملك هو صاحب الحق في التصرف فيه . والخارج عن هذا المبدأ البديهي لا شك في اعتدائه والذين آمنوا لا يعتدون بطبيعة الحال على الله الذي هم به مؤمنون ، ولا يجتمع الاعتداء على الله والإيمان به في قلب واحد على الإطلاق . وإن النصوص القرآنية لقاطعة في أن طاعة المسلم لأحد من البشر في جزئية من جزئيات التشريع التي لا تستمد من شريعة الله ولا تعتمد على الاعتراف له وحده بالحاكمية تخرجه من هذا الدين . . « وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » إن طاعة المسلم في هذه الجزئية تخرجه من الإسلام إلى الشرك بالله . وفي هذا يقول ابن كثير :

وقوله تعالى . . « وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » . . فهذا هو الشرك . . كقوله تعالى . . « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله « الآية » ،

وقد روى الترمذي في تفسيرها عن عدي بن حاتم أنه قال : يا رسول الله ما عبدوهم ، فقال : « بلى ! إنهم أحلوا لهم الحرام ، وحرموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم » . .

كذلك روى ابن كثير عن السدي في قوله تعالى « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » « الآية » قوله : استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ولهذا قال تعالى « وما أمروا إلاّ ليعبدوا إلهاً واحداً ». أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلله فهو الحلال، وما شرعه اتبع ، وما حكم به نفذ. فهذا قول السدي وذاك ابن كثير . . وكلاهما يقرر في حسم وصرامة ووضوح يستمده من حسم النص القرآني وصرامته ووضوحه ، ومن حسم التفسير النبوي للقرآن وصرامته ووضوحه كذلك – أنّ من أطاع بشراً في شريعة من عند نفسه ، ولو في جزئية صغيرة فإنما هو مشرك . وإن كان في الأصل مسلماً ثم فعلها فإنما خرج بها من الإسلام إلى الشرك أيضاً . . مهما بقي بعد ذلك يقول : أشهد أن لا إله إلاّ الله بلسانه . . بينما هو يتلقى من غير الله ، ويطيع غير الله . وحين ننظر إلى وجه الأرض اليوم – في ضوء هذه التقريرات الحاسمة – فإنها الجاهلية والشرك – ولا شيء غير الجاهلية والشرك – إلاّ من عصم الله ، فأنكر على الأرباب الأرضية ما تدعيه من خصائص الألوهية ، ولم يقبل منها شرعاً ولا حكماً . . إلاّ في حدود الاكراه .

إن الله سبحانه له وحده حق الربوبية وهي القوامة والتربية والتوجيه والحاكمية – إذن فهو اختصاصه ، وموضع سلطانه ، فالذي يحرم هو « الرب » والله وحده الذي يجب أن يكون رباً . . « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم . ألا تشركوا به شيئاً . . » . . « ألا تشركوا به شيئاً » . . القاعدة

التي يقوم عليها بناء العقيدة ، وترجع إليها التكاليف والفرائض . وتستمد منها الحقوق والواجبات . . القاعدة التي يجب أن تقوم أولاً قبل الدخول في الأوامر والنواهي ، وقبل الدخول في التكاليف والفرائض ، وقبل الدخول في النظام والأوضاع ،وقبل الدخول في الشرائع والأحكام . يجب ابتداء أن يعترف الناس بربوبيته كذلك . يعترفون له وحده بأنه المتصرف في شؤون هذا الكون في عالم الأسباب والأقدار ، يعترفون له وحده بأنه المتصرف في حسابهم وجزائهم يوم الدين ؛ ويعترفون له وحده بأنه هو المتصرف في شؤون العباد في عالم الحكم والشريعة كلها سواء .

إنها تنقية الضمير من أوشاب الشرك ، وتنقية العقل من أوشاب الخرافة ، وتنقية المجتمع من تقاليد الجاهلية ، وتنقية الحياة من عبودية العباد للعباد . . إن الشرك -في كل صوره- هو المحرم الأول لأنه يجرّ إلى كل محرم . . وهو المنكر الأول الذي يجب حشد الإنكار كله له ، حتى يعترف الناس أن لا إله لهم إلاّ الله ، ولا ربّ لهم إلاّ الله ، ولا حاكم لهم إلاّ الله ،ولا مشرع لهم إلاّ الله ، كما أنهم لا يتوجهون بالشعائر لغير الله .

إنه الشرك في الاعتقاد كما أنه الشرك في الحاكمية . ونحن نحتاج إلى هذا التذكير المستمر ، لأن جهود الشياطين في زحزحة هذا الدين عن مقوماته الأساسية ، قد آتت ثمارها — مع الأسف — فجعلت مسألة الحاكمية تتزحزح عن مكان العقيدة ، وتنفصل في الحس عن أصلها الاعتقادي ! ومن ثم نجد حتى الغيورين على الإسلام يتحدثون لتصحيح شعيرة تعبدية ، أو لاستنكار انحلال أخلاقي ؛ أو لمخالفة من المخالفات القانونية ، ولكنهم لا يتحدثون عن أصل الحاكمية وموقعها من العقيدة الإسلامية ! يستنكرون المنكرات الجانبية الفرعية ، ولا يستنكرون المنكر الأكبر ، وهو قيام الحياة في غير التوحيد ؛ أي على غير افراد الله — سبحانه — بالحاكمية . .

إن الله قبل أن يوصي الناس أية وصية ، أوصاهم ألاّ يشركوا به شيئاً . . إنها القاعدة التي يرتبط على أساسها الفرد بالله على بصيرة، وترتبط بها الجماعة بالمعيار الثابت الذي ترجع إليه كافة الروابط والقيم الأساسية التي تحكم الحياة البشرية . . فلا تظل نهباً لريح الشهوات والنزوات ، واصطلاحات البشر التي تتراوح مع الشهوات والنزوات . .

لقد جاء هذا الدين ليغير وجه العالم وليقيم عالماً آخر ، يقر فيه سلطان الله وحده ويبطل سلطان الطواغيت . عالماً يُعبد فيه الله وحده — بمعنى العبادة الشامل— ولا يعبد معه أحد من العبيد ، عالماً — يخرج اللهفيه— من شاء — من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. عالماً يولد فيه الإنسان الحر الكريم النظيف . المتحرر من شهوته وهواه ، تحرره من العبودية لغير الله . **جاء هذا الدين ليقيم قاعدة «أشهد أن لا إله إلا الله» التي جاء بها كل نبي إلى قومه على مدار التاريخ البشري.** وشهادة أن لا إله إلاّ الله ليس لها مدلول إلاّ أن تكون الحاكمية العليا لله في حياة البشر كما أن له الحاكمية العليا في نظام الكون سواء . فهو المتحكم في الكون والعباد بقضائه وقدره ، وهو المتحكم في حياة العباد بمنهجه وشريعته . وبناء على هذه القاعدة لا يعتقد المسلم أن له شريكاً في خلق الكون وتدبيره وتصريفه ، ولا يتقدم المسلم بالشعائر التعبدية إلاّ لله وحده . ولا يتلقى الشرائع والقوانين ، والقيم والموازين ، والعقائد والتصورات إلاّ من الله ، ولا يسمح لطاغوت من العبيد أن يدعي حق الحاكمية في شيء من هذا كله مع الله . هذه هي قاعدة هذا الدين في ناحية الاعتقاد . . فأين منها البشرية كلها اليوم .

إن البشرية تنقسم شيعاً كلها جاهلية . . شيعة ملحدة تنكر وجود الله أصلاً . وهم ملحدون . . فأمرهم ظاهر لا يحتاج إلى بيان ! وشيعة وثنية تعترف بوجود الله ، ولكنها تشرك من دونه آلهة أخرى وأرباباً كثيرة . كما في الهند وأواسط إفريقية ، وفي أجزاء متفرقة من العالم . . وشيعة « أهل الكتاب » من اليهود والنصارى . وهؤلاء أشركوا قديماً بنسبة الولد إلى الله . كما أشركوا

باتخاذ أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله لأنهم قبلوا منهم ادعاء حق الحاكمية وقبلوا منهم الشرائع . وإن كان لم يُصلوا لهم ولم يسجدوا ولم يركعوا أصلاً .

ثم هم اليوم يُقصُون حاكميته بجملتها من حياتهم ويقيمون لأنفسهم أنظمة يسمونها « الرأسمالية » و « الاشتراكية » . . وما إليها . . ويقيمون لأنفسهم أوضاعاً للحكم يسمونها « الديموقراطية » . . « الديكتاتورية » . . وما إليها . ويخرجون بذلك من قاعدة دين الله كله ، إلى مثل جاهلية الإغريق والرومان وغيرهم في اصطناع أنظمة وأوضاع من عند أنفسهم .

وشيعة تسمي نفسها « مسلمة » ! وهي تتبع مناهج أهل الكتاب هذه ــ حذو النعل بالنعل ــ خارجة من دين الله إلى دين العباد . فدين الله هو منهجه وشريعته ونظامه الذي يضعه للحياة وقانونه . ودين العباد هو منهجهم للحياة وشرعهم ونظامهم الذي يضعونه للحياة وقوانينهم .

لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين للبشرية ، وانتكست البشرية إلى الجاهلية . شيعها جميعاً لا تتبع دين الله أصلاً .. وعاد هذا القرآن يواجه البشرية كما واجهها أول مرة يستهدف في المرة الأولى إدخالها في الإسلام ابتداء من ناحية العقيدة والتصور ، ثم إدخالها في دين الله بعد ذلك من ناحية النظام والواقع .

إن الجاهلية حالة ووضع ، وليست فترة تاريخية زمنية . . والجاهلية اليوم ضاربة أطنابها في كل أرجاء الأرض ، وفي كل شيع المعتقدات والمذاهب والأنظمة والأوضاع . إنها تقوم ابتداء على قاعدة « حاكمية العباد للعباد » ورفض حاكمية الله المطلقة للعباد . .

تقوم على أساس أن يكون « هو عن الإنسان » في أية صورة من صوره

هو الإله المتحكم . ورفض أن تكون « شريعة الله » هي القانون المحكم . . ثم تختلف أشكالها ومظاهرها ، وراياتها وشاراتها ، وأسماؤها ، وأوصافها ، وشيعها ومذاهبها . . غير أنها كلها تعود إلى هذه القاعدة المميزة المحدودة لطبيعتها وحقيقتها . وبهذا المقياس الأساسي يتضح أن وجه الأرض اليوم تغمره الجاهلية . وان حياة البشرية اليوم تحكمها الجاهلية . وان الإسلام اليوم متوقف عن الوجود . مجرد الوجود !

١٣ - « لا حاكم إلا الله »

إن هذا الدين له حقيقة مميزة لا يوجد إلاّ بوجودها . . حقيقة الطاعة لشريعة الله والاتباع لرسول الله ، والتحاكم إلى كتاب الله . . وهي الحقيقة المنبثقة من عقيدة التوحيد كما جاء بها الإسلام . توحيد الألوهية التي لها وحدها الحق في أن تُعبّد الناس لها ، وتطوعهم لأمرها ، وتنفذ فيهم شرعها ، وتضع لهم القيم والموازين التي يتحاكمون إليها ويرتضون حكمها ، ومن ثم توحيد القوامة التي تجعل الحاكمية لله وحده في حياة البشر وارتباطاتها جميعاً . كما أن الحاكمية لله وحده في تدبير أمر الكون كله . وما الإنسان الا قطاع من هذا الكون الكبير .

إن الله لم يترك شيئاً غامضاً . ولم يجعل العباد محتاجين إلى مصدر آخر يحكمونه في ما يعرض لهم من مشكلات الحياة . . « وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً » . . فهل بعد هذا يبتغي إنسان حكماً غير الله « أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً » . . إنه سؤال على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم للاستنكار . استنكار أن يبتغي حكماً غير الله في شأن من الشؤون على الإطلاق . وتقرير لجهة الحاكمية في الأمر كله ، وإفرادها بهذا الحق الذي لا جدال فيه . ونفي أن يكون هناك أحد غير الله يجوز أن يتجه إليه طالباً حكمه في أمر الحياة كله .

لقد نزل هذا الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ولتمثل فيه حاكمية الله وألوهيته . ثم لقد نزل هذا الكتاب مفصلاً محتوياً على المبادىء

الأساسية التي يقوم عليها نظام الحياة جملة . كما أنه تضمن أحكاماً تفصيلية في المسائل التي يريد الله تثبيتها في المجتمع الإنساني مهما اختلفت فيه مستوياته الاقتصادية والعلمية والواقعية جملة . وبهذا وذلك كان في هذا الكتاب غناء عن تحكيم غير الله في شأن من شؤون الحياة . هذا ما يقرره الله سبحانه عن كتابه . فمن شاء أن يقول : إن البشرية في طور من أطوارها لا تجد في هذا الكتاب حاجتها فليقل . . ولكن ليقل معه . . إنه – والعياذ بالله – كافر بهذا الدين مكذب بقول ربّ العالمين . وهكذا تتبين القضية بقول الله سبحانه « يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون إلى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » . . وهكذا تتبين القضية . . إله واحد ، ومالك واحد . . إذن فحاكم واحد . ومشرع واحد . ومتصرف واحد . وإذن فشريعة واحدة ، ومنهج واحد وقانون واحد . . وإذن فطاعة واتباع وحكم بما أنزل الله ، فهو إيمان وإسلام . أو معصية وحكم بغير ما أنزل الله ، فهو كفر وظلم وفسوق . . وهذا هو الدين كما أخذ الله ميثاق العباد جميعاً عليه ، وكما جاء به كل الرسل من عنده ، أمة محمد صلى الله عليه وسلم والأمم قبلها على السواء .

ولم يكن بد أن يكون « دين الله » هو الحكم بما أنزل الله دون سواه . فهذا هو مظهر سلطان الله . مظهر حاكمية الله . مظهر أن لا إله إلاّ الله .

وهذه الحتمية : حتمية هذا التلازم بين « دين الله » و « الحكم بما أنزل الله » لا تنشأ فحسب من أن ما أنزل الله خير مما يضع البشر لأنفسهم من مناهج وشرائع وأنظمة وأوضاع . فهذا سبب واحد من أسباب هذه الحتمية . وليس هو السبب الأول ولا الرئيسي . . إنما السبب الأول والرئيسي ، والقاعدة الأولى والأساس في حتمية هذا التلازم هي أن الحكم بما أنزل الله إقرار بألوهية الله ، ونفي لهذه الألوهية وخصائصها عمن عداه . . وهذا هو الإسلام بمعناه اللغوي : « الاستسلام » وبمعناه الاصطلاحي هي كما جاءت به الأديان ، الإسلام لله ، والتجرد عن ادعاء الألوهية معه ، وادعاء أخص خصائص

الألوهية ، وهي السلطان والحاكمية ، وحق تطويع العباد وتعبيدهم بالشريعة والقانون .

ولا يكفي إذن أن يتخذ البشر لأنفسهم شرائع تشابه شريعة الله ، أو حتى شريعة الله نفسها بنصها ، إذا هم نسبوها لأنفسهم ، ووضعوا عليها شاراتهم ، ولم يردوها لله ؛ ولم يطبقوها باسم الله ، اذعاناً لسلطانه، واعترافاً بألوهيته ، وبتفرده بهذه الألوهية . التفرد الذي يحرر العباد من حق السلطان والحاكمية ، إلا تطبيقاً لشريعة الله ، وتقريراً لسلطانه في الأرض .

ومن هذه الحتمية ينشأ الحكم الذي تقرره النصوص القرآنية : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » . . « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » .. « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » ..

ذلك أن الذين لا يحكمون بما أنزل الله يعلنون رفضهم لألوهية الله – سبحانه – ورفضهم لإقرار الله سبحانه بهذه الألوهية . يعلنون هذا الرفض بعملهم وواقعهم ؛ ولو لم يعلنوه بأفواههم وألسنتهم . ولغة العمل والواقع أقوى وأكبر من لغة الفم واللسان . ومن ثم يصمهم الله بالكفر والظلم والفسق آخذاً من رفضهم لألوهية الله حين يرفضون حاكميته المطلقة ؛ وحين يجعلون لأنفسهم خاصة الألوهية الأولى فيشرعون للناس من عند أنفسهم ما لم يأذن به الله .

هذه هي القضية الخطيرة الكبيرة التي يعالجها القرآن في نصوص تقريرية صريحة فيتعين بذلك حد الإيمان وشرط الإسلام ، سواء للمحكومين أو للحكام . والمناط هو الحكم بما أنزل الله من أحكام ، وقبول هذا الحكم من المحكومين ، وعدم ابتغاء غيره من الشرائع والأحكام .

والمسألة في هذا الوضع خطيرة ؛ والتشديد فيها على هذا النحو يستند إلى

أسباب لا بد خطيرة كذلك . فما هي يا ترى هذه الأسباب ؟ . . إننا نحاول أن نتلمسها في نصوص القرآن ، فنجدها بارزة واضحة . .

إن الاعتبار الأول في هذه القضية هو أنها قضية الإقرار بألوهية الله وربوبيته وقوامته على البشر – بلا شريك – أو رفض هذا الإقرار . . وهي من هنا قضية كفر أو إيمان وجاهلية أو إسلام . . والقرآن كله معرض بيان هذه الحقيقة . .

إن الله هو الخالق . . خلق هذا الكون ، وخلق هذا الإنسان ، وسخّر ما في السموات والأرض لهذا الإنسان. . وهو – سبحانه – متفرد بالخلق، لا شريك له في كثير منه أو قليل .

وانه هو المالك . . بما أنه هو الخالق . . ولله ملك السموات والأرض وما بينهما . . فهو سبحانه متفرد بالملك لا شريك له في كثير منه أو قليل .

وإن الله هو الرازق . . فلا يملك أحد أن يرزق نفسه أو غيره شيئاً . . لا من الكثير ولا من القليل . .

وإن الله هو صاحب السلطان المتصرف في الكون والناس . . بما أنه هو الخالق المالك الرازق . . وبما أنه هو صاحب القدرة التي لا يكون بدونها خلق ولا رزق ولا نفع ولا ضرّ . وهو سبحانه المتفرد في هذا الوجود .

والإيمان هو الإقرار لله سبحانه بهذه الخصائص : الألوهية ، الملك ، السلطان . . متفرداً بها لا يشاركه فيها أحد . . والإسلام هو الاستسلام والطاعة لمقتضيات هذه الخصائص . . هو إفراد الله – سبحانه – بالألوهية والربوبية والقوامة على الوجود كله – وحياة الناس ضمناً – والاعتراف بسلطانه الممثل بقدره ، والممثل كذلك في شريعته . فمعنى الاستسلام لشريعة الله هو

– قبل كل شيء – رفض الاعتراف لغير الله بألوهية وربوبية وقوامة وسلطان.. ويستوي أن يكون الاستسلام أو الرفض باللسان أو بالفعل دون القول.. وهي من ثم قضية كفر أو إيمان؛ وجاهلية أو إسلام.. ومن هنا يجيء هذا النص: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون».. «الظالمون».. «الفاسقون»..

والاعتبار الثاني هو اعتبار الأفضلية الحتمية المقطوع بها لشريعة الله على شرائع الناس.. هذه الأفضلية التي تشير إليها الآية القرآنية «ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون»..

والاعتراف المطلق بهذه الأفضلية لشريعة الله، في كل طور من أطوار الجماعة، وفي كل من حالاتها.. هو داخل كذلك في قضية الكفر والإيمان.. فما يملك إنسان أن يدعي أن شريعة أحد من البشر، تفضل أو تماثل شريعة الله، في أية حالة أو في أي طور من أطوار الجماعة الإنسانية.. ثم يدعي بعد ذلك أنه مؤمن بالله، وأنه من المسلمين. انه يدعي أنه أعلم من الله بحال الناس، وأحكم من الله في تدبير أمرهم. أو يدعي أن أحوالاً وحاجات جدّت في حياة الناس، وكان الله سبحانه غير عالم بها وهو يشرع شريعته؛ أو كان عالماً بها ولكنه لم يشرع لها! و لا يستقيم مع هذا الادعاء دعوى الإيمان والإسلام، مهما قالها باللسان!

فأما مظاهر هذه الأفضلية فيصعب إدراكها كلها. فإن حكمة شرائع الله لا تنكشف كلها للناس في جيل من الأجيال؛ والبعض الذي ينكشف يصعب التوسع في عرضه هنا. فنكتفي منه ببعض اللمسات:

١ – منهج شامل: إن شريعة الله تمثل منهجاً شاملاً متكاملاً للحياة البشرية؛ يتناول بالتنظيم والتوجيه والتطوير كل جوانب الحياة الإنسانية في

جميع حالاتها ، وفي كل صورها وأشكالها . . وهو منهج قائم على العلم المطلق بحقيقة الكائن الإنساني والحاجات الإنسانية ، وبحقيقة الكون الذي يعيش فيه الإنسان ، وبطبيعة النواميس التي تحكمه وتحكم الكينونة الإنسانية . . ومن ثم لا يفرط في شيء من أمور هذه الحياة ؛ ولا يقع فيه ولا ينشأ عنه أي تصادم مدمر بين أنواع النشاط الإنساني ؛ ولا أي تصادم مدمر بين هذا النشاط والنواميس الكونية ؛ إنما يقع التوازن والاعتدال والتوافق والتناسق . الأمر الذي لا يتوافر أبداً لمنهج من صنع الإنسان الذي لا يعلم إلا ظاهراً من الأمر ، وإلا الجانب المكشوف في فترة زمنية معينة ، ولا يسلم منهج يبتدعه من آثار الجهل الإنساني ، ولا يخلو من التصادم المدمر بين بعض أنواع النشاط وبعض والهزات العنيفة الناشئة عن هذا التصادم .

٢ – **منهج العدل المطلق** : أولاً : لأن الله يعلم حق العلم بم يتحقق العدل المطلق وكيف يتحقق .

وثانياً : لأن الله سبحانه رب الجميع فهو الذي يملك أن يعدل بين الجميع ؛ وأن يجيء منهجه وشرعه مبرأ من الهوى والميل والضعف ، كما أنه مبرأ من الجهل والقصور ، والغلو والتفريط ؛ الأمر الذي لا يمكن أن يتوافر في أي منهج أو في أي شرع من صنع الإنسان ، ذوي الشهوات والميول والضعف والهوى فوق ما به من الجهل والقصور سواء كان المشرع فرداً ، أو طبقة ، أو أمة ، أو جيلاً من أجيال البشر . . فلكل حالة من هذه الحالات أهواؤها وشهواتها وميولها ورغباتها ؛ فوق أن لها جهلها وقصورها وعجزها عن الرؤية الكاملة لجوانب الأمر كله حتى في الحالة الواحدة في الجيل الواحد . .

٣ – **منهج متناسق** : وهو منهج متناسق مع ناموس الكون كله . لأن صاحبه هو صاحب هذا الكون كله وصانع الإنسان . فإذا شرع للانسان شرّع له كعنصر كوني له سيطرة على عناصر كونية مسخرة له بأمر خالقه ؛

بشرط السير على هداه ، وبشرط معرفة هذه العناصر والقوانين التي تحكمها . . ومن هنا يقع التناسق بين حركة الإنسان وحركة الكون الذي يعيش فيه ؛ وتأخذ الشريعة التي تنظم حياته طابعاً كونياً ، ويتعامل بها لا مع نفسه فحسب ، ولا مع بني جنسه فحسب ، ولكن كذلك مع الأحياء والأشياء في هذا الكون العريض ، الذي يعيش فيه ، ولا يملك أن ينفذ منه ، ولا بد له من التعامل معه وفق منهاج سليم قويم .

٤ – **منهج لتحرير الانسان :** ثم انه المنهج الوحيد الذي يتحرر فيه الإنسان من العبودية للإنسان . . ففي كل منهج – غير المنهج الإسلامي – يتعبد الناس الناس ، ويعبد الناس الناس . وفي المنهج الإسلامي – وحده – يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده بلا شريك . .

إن أخص خصائص الألوهية – كما أسلفنا – هي الحاكمية . . والذي يشرع لمجموعة من الناس يأخذ فيهم مكان الألوهية ويستخدم خصائصها ، فهم عبيده لا عبيد الله ؛ وهم في دينه لا في دين الله . . والإسلام حين يجعل الشريعة لله وحده ، يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ويعلن تحرير الإنسان ، بل يعلن « ميلاد الإنسان » . . إن هذه القضية هي أخطر وأكبر قضايا العقيدة . . إنها قضية الألوهية والعبودية . . قضية العدل والصلاح . قضية الحرية والمساواة . قضية تحرر الإنسان – بل ميلاد الإنسان – وهي من أجل هذا كله كانت قضية الكفر أو الإيمان ، وقضية الجاهلية أو الإسلام . .

والجاهلية ليست فترة تاريخية ؛ إنما هي حالة توجد كلما وجدت مقوماتها في وضع أو نظام . . وهي في صميمها الرجوع بالحكم والتشريع إلى أهواء البشر ، لا إلى منهج الله وشريعته للحياة . ويستوي أن تكون هذه الأهواء ، أهواء فرد ، أو أهواء طبقة ، أو أهواء أمة ، أو أهواء جيل كامل من الناس . . فكلها . . ما دامت لا ترجع إلى شريعة الله . . أهواء . . يشرع فرد لجماعة

فإذا هي جاهلية . لأن هواه هو القانون . . أو رأيه هو القانون لا فرق إلاّ في العبارات ! وتشرع طبقة لسائر الطبقات فإذا هي جاهلية لأن مصالح تلك الطبقة هي القانون أو رأي الأغلبية البرلمانية هو القانون لا فرق إلاّ في العبارات !

ويشرع ممثلو جميع الطبقات وجميع القطاعات في الأمة لأنفسهم فإذا هي جاهلية ، لأن أهواء الناس الذين لا يتجردون أبداً من الأهواء ، ولأن جهل الناس الذين لا يتجردون أبداً من الجهل ، هو القانون — أو لأن رأي الشعب هو القانون — لا فرق إلاّ في العبارات !

وتشرع مجموعة من الأمم للبشرية فإذا هي جاهلية . لأن أهدافها القومية هي القانون — أو رأي المجامع الدولية هو القانون — فلا فرق إلاّ في العبارات !

ويشرع خالق الأفراد ، وخالق الجماعات ، وخالق الأمم والأجيال ، للجميع ، فإذا هي شريعة الله التي لا محاباة فيها لأحد على حساب أحد ، لا لفرد ولا لجماعة ، ولا لدولة ، ولا لجيل من الأجيال . لأن الله رب الجميع والكل لديه سواء . ولأن الله يعلم حقيقة الجميع ومصلحة الجميع ، فلا يفوته سبحانه أن يرعى مصالحهم وحاجاتهم بدون تفريط ولا إفراط . ويشرع الله للناس فإذا كلهم أحرار متساوون ، لا يحنون جباههم إلاّ لله ، ولا يعبدون إلاّ الله ، ومن هنا خطورة القضية في حياة بني الإنسان ، وفي نظام الكون كله « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » . .

فالحكم بغير ما أنزل الله معناه الشر والفساد والخروج في النهاية عن نطاق الإيمان . . بنص القرآن . .

إن الله هو الجهة التي تملك حق تنزيل الشرائع وفرض القوانين « فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » والأمر موجه ابتداء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كان فيه من أمر أهل الكتاب

الذين يجيئون إليه متحاكمين . ولكنه ليس خاصاً بهذا السبب . بل هو عام . وإلى آخر الزمان . طالما أنه ليس هناك رسول جديد ، ولا رسالة جديدة ، لتعديل شيء ما في هذا المرجع الأخير !

لقد كَمُل هذا الدين ، وتمت به نعمة الله على المسلمين ، ورضيه الله لهم منهجَ حياةٍ للناس أجمعين . ولم يعد هنالك من سبيل لتعديل شيء فيه أو تبديله ، ولا لترك شيء من حكمه إلى حكم آخر ، ولا لشيء من شريعته إلى شريعة أخرى ، وقد علم الله حين رضيه للناس أنه يَسع الناس جميعاً ، وعلم الله حين رضيه مرجعاً أخيراً أنه يحقق الخير للناس جميعاً ، وأنه يسع حياة الناس جميعاً ، إلى يوم الدين . وأي تعديل في المنهج — ودَعْك من العدول عنه — هو إنكار لهذا المعلوم من الدين بالضرورة يخرج صاحبه من هذا الدين . ولو قال باللسان ألف مرة : إنه من المسلمين ! وماذا يكون الكفر إن لم يكن هو هذا وذاك ؟ وما قيمة دعوى الإيمان أو الإسلام باللسان ، والعمل — وهو أقوى تعبيراً من الكلام — ينطق بالكفر أفصح من اللسان ؟ !

إن المماحكة في هذا الحكم الصارم الجازم العام الشامل، لا تعني إلاّ محاولة التهرب من مواجهة الحقيقة. والتأويل والتأول في مثل هذا الحكم لا يعني إلاّ محاولة تحريف الكَلِم عن مواضعه .. وليس لهذه المماحكة من قيمة ولا أثر في صرف حكم الله عمن ينطبق عليهم بالنص الصريح والواضح الأكيد . . « فأولئك هم الكافرون » . . « الظالمون » . . « الفاسقون » . .

وقد علم الله أن معاذير كثيرة يمكن أن تقوم ، وأن يبرر بها العدول عن شيء مما أنزل الله واتباع المحكومين والمتحاكمين ، وان هواجس قد تتسرب في ضرورة الحكم بما أنزل الله كله بلا عدول عن شيء فيه ، في بعض الملابسات والظروف . فحذّر الله نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآيات من اتباع أهواء المتحاكمين ، ومن فتنتهم له عن بعض ما أنزل الله

إليه . . « فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » .

وأول هذه الهواجس : الرغبة البشرية الخفية في تأليف القلوب بين الطوائف المتعددة ؛ والاتجاهات والعقائد المتجمعة في بلد واحد ، ومسايرة بعض رغباتهم عندما تصطدم ببعض أحكام الشريعة ، والميل إلى التساهل في الأمور الطفيفة ، أو التي يبدو أنها ليست من أساسيات الشريعة .

وهل يجرؤ إنسان أن يقول : إنه أعلم بالناس من خالق الناس ؟ أيستطيع أن يقول : إنه أرحم بالناس من ربّ الناس ؟ أيستطيع أن يقول : إنه أعرف بمصالح الناس من إله الناس ؟ أيستطيع أن يقول : ان الله سبحانه وهو يشرع شريعته الأخيرة ويرسلَ رسوله الأخير ، ويجعل رسوله خاتم النبين ، ويجعل رسالته خاتمة الرسالات ، ويجعل شريعته شريعة الأبد . . كان الله — سبحانه — يجهل أن أحوالاً ستطرأ ، وأن حاجات ستتجدد ، وأن ملابسات ستقع ، فلم يحسب حسابها في شريعته لأنها كانت خافية عليه حتى انكشفت للناس في آخر الزمان ؟ !

ما الذي يستطيع أن يقوله من يُنَحّي شريعة الله عن حكم الحياة ويستبدل بها شريعة الجاهلية ، وحكم الجاهلية ، ويجعل هواه هو ، أو هوى شعب من الشعوب ، أو هوى جيل من أجيال البشر ، فوق حكم الله ، وفوق شريعة الله ؟ !

ما الذي يستطيع أن يقوله . . وبخاصة إذا كان يدعي أنه من المسلمين ؟ !
الظروف ؟ الملابسات ؟ عدم رغبة الناس ؟ الخوف من الأعداء ؟ ألم يكن هذا كله في علم الله ، وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته ، وأن يسيروا على منهجه ، وألا يُفتنوا عن بعض ما أنزله ؟ قصور شريعة الله عن استيعاب الحاجات الطارئة ، والأوضاع المتجددة ، والأحوال المتقلبة ؟ ألم يكن ذلك في علم الله وهو شدد هذا التشديد ، ويحذر هذا التحذير ؟

يستطيع غير المسلم أن يقول ما يشاء . . ولكن المسلم . . أومن يدَّعون الإسلام ما الذي يقولونه من هذا كله ، ثم يبقون على شيء من الإسلام ، أو يبقى لهم شيء من الإسلام ؟ إنه مفرق الطريق الذي لا جدوى عنده من الاختيار ؛ ولا فائدة في المماحكة عنده ولا الجدال . . اما إسلام وإما جاهلية ، إما إيمان واما كفر ، إما حكم الله وإما حكم الجاهلية . والذين لا يحكمون بما أنزل الله هم الكافرون والظالمون والفاسقون ، والذين لا يقبلون حكم الله من المحكومين ما هم بمؤمنين .

إن هذه القضية يجب أن تكون واضحة وحاسمة في ضمير المسلم ، وألاّ يتردد في تطبيقها على واقع الناس في زمانه ، والتسليم بمقتضى هذه الحقيقة ، ونتيجة هذا التطبيق على الأعداء والأصدقاء ! « أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » . .

وما لم يحسم ضمير المسلم في هذه القضية ، فلن يستقيم له ميزان ؛ ولن يتضح له منهج ، ولن يُفرق في ضميره بين الحق والباطل ؛ ولن يخطو خطوة واحدة في الطريق الصحيح . . وإذا جاز أن تبقى هذه القضية غامضة أو مائعة في نفوس الجماهير من الناس ؛ فما يجوز أن تبقى غامضة ولا مائعة في نفوس من يريدون أن يكونوا « المسلمين » وأن يحققوا لأنفسهم هذا الوصف العظيم . .

فأما حين يحكم الناس في الأرض بشريعة غير شريعة الله ؛ فعلام يحاسبون في الآخرة ؟ أيحاسبون وفق شريعة الأرض البشرية التي يُحكمون بها ؛ ويتحاكمون إليها ، أم يحاسبون وفق شريعة الله السماوية التي لم يكونوا يحكمون بها ؛ ولا يتحاكمون إليها ؟

إنه لا بد أن يستيقن الناس أن الله محاسبهم على أساس شريعته هو لا شريعة

العباد ، وأنهم إن لم ينظموا حياتهم ، ويقيموا معاملاتهم – كما يقيمون شعائرهم وعباداتهم – وفق شريعة الله في الدنيا ، فإن هذا سيكون أول ما يحاسبون عليه بين يدي الله. وانهم يومئذ سيحاسبون على أنهم لم يتخذوا الله – سبحانه – إلهاً في الأرض ولكنهم اتخذوا من دونه أرباباً متفرقة ، وانهم محاسبون إذن على الكفر بألوهية الله – أو الشرك به – باتباعهم شريعته في جانب العبادات والشعائر ، واتباعهم شريعة غيره في النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، وفي المعاملات والارتباطات – والله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء : « إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » . . فهو وحده – سبحانه – يحكم وهو وحده يحاسب. وهو لا يُبطىء في الحكم ، ولا يُهمل في الجزاء : « ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين » . .

الباب الرابع

طريق التوحيد

١ - « عناد ومقاومة لعقيدة التوحيد »

إن دعوة الرسل على مدار الزمان إنما كانت تقوم على توحيد الله وتنحية الأرباب الزائفة ، وإخلاص الدين لله — أي إخلاص الدينونة لله ، وإفراده سبحانه بالربوبية ، أي الحاكمية والسلطان — ومن ثم تصطدم اصطداماً مباشراً بالقاعدة التي تقوم عليها الجاهلية ، وتصبح بذاتها خطراً على وجود الجاهلية ، وبخاصة حين تتمثل دعوة الإسلام في تجمع خاص ، يؤخذ أفراده من التجمع الجاهلي ، وينفصل بهم عن الجاهلية من ناحية الاعتقاد ، ومن ناحية القيادة ومن ناحية الولاء . . الأمر الذي لا بدّ منه للدعوة الإسلامية في كل مكان وفي كل زمان . .

وعندما يشعر التجمع الجاهلي — بوصفه كياناً عضوياً واحداً متسانداً — بالخطر الذي يتهدد قاعدة وجوده من الناحية الاعتقادية ، كما يتهدد وجوده بتمثل الاعتقاد الإسلامي في تجمع آخر منفصل عنه ومواجه له . . فعندئذ يسفر التجمع الجاهلي عن حقيقة موقفه تجاه دعوة الإسلام !

إنها المعركة بين وجودين لا يمكن أن يكون بينهما تعايش أو سلام ! المعركة بين تجمعين عضويين ، كل منهما يقوم على قاعدة مناقضة تماماً للقاعدة التي يقوم عليها التجمع الآخر . فالتجمع الجاهلي يقوم على قاعدة تعدد الآلهة ، أو تعدد الأرباب ، ومن ثم يدين فيه العباد للعباد . والتجمع الإسلامي يقوم على قاعدة وحدانية الألوهية ووحدانية الربوبية ، ومن ثم لا يمكن فيه دينونة العباد للعباد .

إن عقيدة التوحيد خطر على سلطان الطواغيت ومصالحهم في كل زمان . لا في زمن الجاهلية الأولى ، ولكن في زمن كل جاهلية ينحرف الناس فيها عن التوحيد المطلق ، في أية صورة من صور الانحراف ، فيسلمون قيادهم إلى كبرائهم ، ويتنزلون لهم عن حرياتهم وشخصياتهم ، ويخضعون لأهوائهم ونزواتهم ، ويتلقون شريعتهم من أهواء هؤلاء الكبراء لا من وحي الله . . عندئذ تصبح الدعوة إلى توحيد الله خطراً على الكبراء يتقونه بكل وسيلة .

إن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان في الأرض وجود ممثل في جماعة من الناس لا تدين للطاغوت . . إن وجود جماعة مسلمة في الأرض ، لا تدين إلاّ لله ، ولا تعترف بسلطان إلاّ سلطانه ، ولا تحكم في حياتها شرعاً إلاّ شرعه ، ولا تتبع في حياتها منهجاً إلاّ منهجه . . إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت – حتى لو انعزلت هذه الجماعة في نفسها ، وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتي موعده .

إن الطاغوت يفرض المعركة فرضاً على الجماعة المسلمة . . حتى لو آثرت هي ألا تخوض معه المعركة . . إن وجود الحق في ذاته يزعج الباطل . وهذا الوجود ذاته هو الذي يفرض عليه المعركة مع الباطل . . إنها سنّة الله لا بد أن تجري . . « قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أو لتعودنّ في ملتنا » . .

إن دعوة الإسلام إلى التوحيد ، وعبادة الله الواحد ، لم تكن قضية كلامية. أو عقيدة لاهوتية فحسب ، شأن غيره من النحل والملل ، بل الأمر أنها كانت دعوة إلى انقلاب اجتماعي أرادت في أول ما أرادت أن تقطع دابر الذين تسنموا ذروة الألوهية ، واستعبدوا الناس بحيلهم ومكايدهم المختلفة . فمنهم من تبوأ مناصب السدنة والكهانة ، ومنهم من استأثر بالملك والامرة ، وتحكم في رقاب الناس ، ومنهم من استبدّ بمنابع الثروة وخيرات الأرض ؛

وجعله الناس كإله عليهم يتكففون ولا يجدون ما يتبلغون به، فأرادت دعوة الإسلام أن تقطع دابرهم جميعاً وتستأصل شأفتهم استئصالاً . . وهؤلاء تارة تسنموا قمة الألوهية جهراً وعلانية ، وأرادوا أن يقهروا من حولهم من الناس على أن يذعنوا لأمرهم ؛ وينقادوا لجبروتهم ، مستندين إلى حقوقهم التي ورثوها من آبائهم ؛ أو استأثرت بها الطبقة التي ينتمون إليها فقالوا : « ما علمتُ لكم من إله غيري » و « أنا ربكم الأعلى » . . « وأنا أحيي وأميت » . . و « من أشد منا قوة » . . إلى غيرها من كلمات الاستكبار ودعاوى الألوهية التي تفوهوا بها وتجاسروا عليها بغياً وعدواناً . وطوراً استغلوا جهل الدهماء وسفههم ، فاتخذوا من الأصنام والتماثيل والهياكل آلهة ، يدعون الناس ويريدونهم على أداء مظاهر العبودية أمام هذه التماثيل والهياكل متوارين بأنفسهم من ورائها يلعبون بعقول الناس ويستعبدونهم لأغراضهم ، وشهواتهم وهم لا يشعرون !

فيتبين من ذلك أن دعوة الإسلام إلى التوحيد ، وإخلاص العبادة لله الواحد الأحد ، وتنديده بالكفر والشرك بالله ، واجتناب الأوثان والطواغيت . . كل ذلك يتنافى ويتعارض مع الحكومة والعاملين عليها المتصرفين في أمورها ، والذين يجدون فيها سنداً لهم ، وعوناً على قضاء حاجاتهم وأغراضهم . . ومن ثم ترى أنه كلما قام نبي من الأنبياء يجاهر الناس بالدعوة ، وخاطبهم قائلاً : « يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » . . قامت في وجهه الحكومات المتمكنة في عصره ، وثار عليه جميع من كانوا يستغلون خيرات البلاد ويستثمرونها ظلماً وعدواناً . . خرجت تقاومه ، وتضع في سبيل الدعوة العقبات .

إن الذي يحول دون تحول هذه المجتمعات إلى النظام الإسلامي هو وجود الطواغيت التي تأبى أن تكون الحاكمية لله ؛ فتأبى أن تكون الربوبية في حياة البشر والألوهية في الأرض لله وحده . وتخرج بذلك من الإسلام خروجاً كاملاً . يعد الحكم عليه من المعلوم من الدين بالضرورة . . ثم هو بعد ذلك

وجود جماهير من البشر تعبد أولئك الطواغيت من دون الله – أي تدين لها وتخضع وتتبع – فتجعلها بذلك أرباباً متفرقة معبودة مطاعة . وتخرج هذه الجماعة بهذه العبادة من التوحيد إلى الشرك .. هذا أخص مدلولات الشرك في الإسلام .

إن معنى اعلان دعوة التوحيد لم يغب عن الطغاة.. فحينما أعلن موسى للطاغية فرعون : « اني رسول من رب العالمين» .. لم يغب عن فرعون وملئه معنى هذا الاعلان .. اعلان ربوبية الله للعالمين . لم يغب عنهم أن هذا الاعلان يحمل في طياته هدم ملك فرعون . وقلب نظام حكمه ؛ وانكار شرعيته ؛ وكشف عدوانه وطغيانه .. ان اعلان ربوبية الله للعالمين هي بذاتها اعلان تحرير الانسان ؛ تحريره من الخضوع والطاعة والتبعية والعبودية لغير الله . تحريره من شرع البشر ؛ ومن هوى البشر ؛ ومن تقاليد لبشر ؛ ومن حكم البشر .. واعلان ربوبية الله للعالمين لا يجتمع مع خضوع أحد من العالمين لغير الله ؛ ولا يجتمع مع حاكمية أحد بشريعة من عنده للناس .. والذين يظنون أنهم مسلمون بينما هم خاضعون لشريعة من صنع البشر – أي لربوبية غير ربوبية الله – واهمون إذا ظنوا لحظة واحدة أنهم مسلمون ! انهم لا يكونون في دين الله لحظة واحدة وحاكمهم غير الله، وقانونهم غير شريعة الله . انهم في دين حاكمهم ذاك ، في دين الملك لا في دين الله .. وكذلك لم يغب عن الطاغية فرعون دعوى اعلان التوحيد والربوبية لله رب العالمين .. ولكن هل يستسلم فرعون وملؤه لهذه الدعوى الخطيرة ؟ هل يستسلمون لربوبية رب العالمين ؟ وعلام إذن يقوم عرش فرعون وتاجه وملكه وحكمه ؟ وعلام يقوم الملأ من قومه ومراكزهم التي هي من عطاء فرعون ورسمه وحكمه ؟ علام يقوم هذا إن كان الله هو « رب العالمين » ؟ إنه إن كان الله هو « ربّ العالمين » فلا حكم إلاّ لشريعة الله ، ولا طاعة إلاّ لأمر الله ، فأين يذهب شرع فرعون وأمره إذن ، وهو لا يقوم على شريعة الله ولا يرتكن إلى أمره ؟ إن الناس لا يكون لهم « ربّ » آخر يعبدهم لحكمه

وشرعه وأمره ، إن كان الله هو ربّهم ، إنما يخضع الناس لشرع فرعون وأمره حين يكون ربهم فرعون ، فالحاكم – بأمره وشرعه – هو ربّ الناس . وهم في دينه أياً كان .

كلا ! إن الطاغوت لا يستسلم هكذا من قريب . . ولا يسلم ببطلان حكمه وعدم شرعية سلطانه بمثل هذه السهولة !

وفرعون وملؤه لا يخطئون فَهْم مدلول هذه الحقيقة الهائلة التي يعلنها موسى . بل إنهم ليعلنونها صريحة . . ولكن مع تحويل الأنظار عن دلالتها الخطيرة ، باتّهام موسى بأنه ساحر عليم . . « وقال الملأ من قوم فرعون : إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم . فماذا تأمرون ؟ » . .

إنهم يصرحون بالنتيجة الهائلة التي تتقرر من اعلان تلك الحقيقة . . انها الخروج من الأرض . . إنها ذهاب السلطان . . إنها إبطال شرعية الحكم . . أو . . محاولة قلب نظام الحكم بالتعبير العصري الحديث ! . .

إن الأرض لله . والعباد لله . فإذا رُدّت الحاكمية في أرض لله ، فقد خرج منها الطغاة ، الحاكمون بغير شرع الله ! أو خرج منها الأرباب المتألهون الذين يزاولون خصائص الألوهية بتعبيد الناس لشريعتهم وأمرهم . وخرج منها الملأ الذين يوليهم الأرباب المناصب والوظائف الكبرى فيعبّدون الناس لهذه الأرباب .

هكذا أدرك فرعون وملؤه خطورة هذه الدعوة . . وكذلك يدركها الطواغيت في كل مرة . . لقد قال الرجل العربي بفطرته وسليقته – حين سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم – يدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله : « هذا أمر تكرهه الملوك » . . وقال له رجل آخر من العرب بفطرته وسليقته : « إذن تحاربك العرب والعجم » . . لقد كان هذا العربي وذاك يفهم مدلولات لغته . كان يفهم أن شهادة أن لا إله إلاّ الله ثورة على الحاكمين بغير شرع الله عرباً كانوا أم عجماً ! كانت لشهادة أن لا إله إلاّ الله جديتها في حسّ هؤلاء العرب لأنهم كانوا يفهمون مدلول لغتهم

جيداً . فما كان أحد منهم يفهم أنه يمكن أن تجتمع في قلب واحد ، ولا في أرض واحدة ، شهادة أن لا إله إلاّ الله ، مع الحكم بغير شرع الله فيكون هناك آلهة مع الله ! ما كان أحد منهم يفهم شهادة أن لا إله إلاّ الله كما يفهمها اليوم من يدّعون أنفسهم « مسلمين » ذلك الفهم الباهت التافه الهزيل ! وكل ما عرف من طغيان فرعون ، فقد كان في تصرفه هذا أقل طغياناً من طواغيت كثيرة في القرن العشرين ، في مواجهة دعوة الدعاة إلى ربوبية ربّ العالمين ! وتهديد السلطان الباطل بهذه الدعوة الخطيرة .

إن المسألة واضحة المعالم . إن دعوة موسى إلى « رب العالمين » هي التي تزعج وتخيف .. إنه لا بقاء ولا قرار لحكم الطواغيت مع الدعوة إلى رب العالمين . وهم إنما يقوم ملكهم على تنحية ربوبية الله للبشر ، بتنحية شريعته . وإقامة أنفسهم أرباباً من دون الله يشرعون للناس ما يشاؤون ، ويعبّدون الناس لما يشرعون ! . . إنهما منهجان لا يجتمعان . . أو هما دينان لا يجتمعان . . أو هما ربّان لا يجتمعان . وفرعون كان يعرف ، وملؤه كانوا يعرفون . ولقد فزعوا للدعوة من موسى وهارون إل ربّ العالمين .

ونقف بعد ذلك أمام حقيقة يجب أن يدركها المؤمنون . . حقيقة المعركة بينهم وبين الطواغيت . . « وما نقموا منهم إلاّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » « وما تنقم منا إلاّ أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا » . .

بعد أن أشرق نور الإيمان في قلوب سحرة فرعون وجعل لهم فرقاناً في تصورهم . . أدرك السحرة أن المعركة بينهم وبين فرعون وملئه هي معركة العقيدة ، وانه لا ينقم منهم إلاّ إيمانهم برب العالمين . فهذا الإيمان على هذا النحو يهدد عرش فرعون وملكه وسلطانه ، ويهدد مراكز الملأ من قومه وسلطانهم المستمد من سلطان فرعون . أو بتعبير آخر مرادف : من ربوبية فرعون ، ويهدد القيم التي يقوم عليها المجتمع الوثني كله .

وهذا الإدراك لطبيعة المعركة ضروري لكل من يتصدى للدعوة إلى ربوبية الله وحده الذي أهّل هؤلاء المؤمنين للاستهانة بما يلقونه في سبيله . . إنهم

يقدمون على الموت مستهينين ، ليقينهم بأنهم هم المؤمنون برب العالمين ؛ وان عدوهم على دين غير دينهم ؛ لأنه بمزاولته للسلطان وتعبيد الناس لأمره ينكر ربوبية رب العالمين . . فهو إذن من الكافرين . . وما يمكن أن يمضي المؤمنون في طريق الدعوة إلى رب العالمين – على ما ينتظرهم فيها من التعذيب والتنكيل – إلاّ بمثل هذا اليقين بشقيه : أنهم هم المؤمنون ، وأن أعداءهم الكافرون ، وأنهم إنما يحاربونهم على الدين ، وما ينقمون منهم إلاّ الدين .

إن فرعون لم يكن يدعي الألوهية بمعنى أنه هو خالق هذا الكون ومدبره ؛ أو أن له سلطاناً في عالم الأسباب الكونية . . إنما كان يدعي الألوهية على شعبه بمعنى أنه هو حاكم هذا الشعب بشريعته وقانونه ، وانه بإرادته وأمره تمضي الشؤون وتقضى الأمور

« وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك . قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنّا فوقهم قاهرون » . .

وهذا ما يدعيه كل حاكم يحكم بشريعته وقانونه ، وتمضي الشؤون وتقضى الأمور بإرادته وأمره – وهذه هي الربوبية بمعناها اللغوي الواقعي – كذلك لم يكن الناس في مصر يعبدون فرعون بمعنى تقديم الشعائر التعبدية له . . فقد كانت لهم آلهتهم ،وكان لفرعون آلهته التي يعبدها كذلك، كما هو ظاهر من قول الملأ . . « ويذرك وآلهتك » . . وكما يثبت من تاريخ مصر الفرعونية . إنما كانوا يعبدونه بمعنى أنهم خاضعون لما يريده بهم ، لا يعصون له أمراً ، تلقوا التشريع من بشر وأطاعوه فقد عبدوه . وذلك هو تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى عن اليهود والنصارى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » . . عندما سمعه عدي بن حاتم – وكان نصرانياً جاء ليسلم– فقال : يا رسول الله ما عبدوهم.فقال له رسول الله صلى اللهعليه وسلم : « بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم » . . « أخرجه الترمذي » .

وقول فرعون لقومه : « ما علمت لكم من إله غيري » معناه أنه هو الحاكم المسيطر الذي يسيرهم كما يشاء ، والذي يتبعون كلمته بلا معارض ! والحاكمية على هذا النحو ألوهية كما يفيد المدلول اللغوي ! وهي في الواقع ألوهية . فالإله هو الذي يشرع للناس وينفذ حكمه فيهم ! سواء قالها أم لم يقلها.على ضوء هذا البيان نملك أن نفهم مدلول قول ملأ فرعون « أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك » . .

فالإفساد في الأرض — من وجهة نظرهم — هي الدعوة إلى ربوبية الله وحده ، حيث يترتب عليها تلقائياً بطلان شرعية حكم فرعون ونظامه كله . إن هذا النظام قائم على أساس حاكمية فرعون بأمره — أو بتعبير مرادف على أساس ربوبية فرعون لقومه . واذن فهو — بزعمهم — الإفساد في الإرض بقلب نظام الحكم . وتغيير الأوضاع القائمة على ربوبية البشر للبشر ، وإنشاء وضع آخر مخالف تماماً لهذه الأوضاع ، الربوبية فيه لله لا للبشر . ومن ثم قرنوا الإفساد في الأرض بترك موسى وقومه لفرعون وآلهته التي يعبدها هو وقومه . . ومن هنا يجيء التهديد لكل وضع يقوم على ربوبية البشر للبشر من الدعوة إلى ربوبية الله وحده . . أو من شهادة أن لا إله إلاّ الله . . حين تؤخذ بمدلولها الجدي الذي كان الناس يدخلون به في الإسلام لا بمدلولها الباهت الهزيل الذي صار لها في هذه الأيام .

ومن هنا كذلك استثارت هذه الكلمات فرعون وأشعرته بالخطر الحقيقي على نظامه كله فانطلق يعلن عزمه الوحشي البشع . . « قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنّا فوقهم قاهرون » . .

إنه الطغيان في كل مكان وفي كل زمان . لا فرق بين وسائله اليوم ووسائله قبل عشرات القرون والأعوام .

٢ - « تكاليف الشرك »

إن تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والدينونة لله وحده — مهما عظمت وشقت — أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت . إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة — مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق !

إنها تكاليف بطيئة طويلة مديدة ! تكاليف في إنسانية الإنسان ذاته . فهذه « الإنسانية » لا توجد والإنسان عبد للانسان .

وأي عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه له إنسان ؟ . وأي عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان آخر به ، ورضاه أو غضبه عليه ؟

وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيف شاء إنسان ؟ !

على أن الأمر لا يقف عند حد هذه المعاني الرفيعة . . إنه يهبط ويهبط حتى يكلف الناس في حكم الطواغيت أموالهم التي لا يحميها شرع ولا يحوطها سياج . كما يكلفهم أولادهم إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ما شاء من التصورات والأفكار والمفهومات والأخلاق والتقاليد والعادات فوق ما يتحكم في أرواحهم ، فيذبحهم على مذبح هواه ، ويقيم من جماجمهم وأشلائهم أعلام المجد لذاته والجاه ! ثم يكلفهم أعراضهم في النهاية . . حتى لا يملك

أب أن يمنع فتاته من الدعارة التي يريدها بها الطواغيت ، سواء في صورة الغصب المباشر – كما يقع على نطاق واسع على مدار التاريخ – أو في صورة تنشئتهن على تصورات ومفاهيم تجعلهن نهباً مباحاً للشهوات تحت أي شعار . وتمهد لهنّ الدعارة والفجور تحت أي ستار . . والذي يتصور أن ينجو بماله وعرضه وحياته وحياة أبنائه وبناته في حكم الطواغيت من دون الله ، إنما يعيش في وهم ، أو يفقد الإحساس بالواقع !

إن عبادة الطواغيت عظيمة التكاليف في النفس والعرض والمال . . ومهما تكن تكاليف العبودية لله ، فهي أربح وأقوم حتى بميزان هذه الحياة . فضلاً عن وزنها في ميزان الله .

يقول السيد أبو الأعلى المودودي في كتابه الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية :

« . . وكل من له أدنى بصيرة بمسائل الحياة الإنسانية لا يخفى عليه أن المسألة – التي تتوقف عليها قضية صلاح الشؤون البشرية وفسادها – إنما هي مسألة زعامة الشؤون البشرية ومن بيده زمام أمرها . وذلك كما تشاهد في القطار أنه يجري إلى الجهة التي يوجهه إليها سائقه . وانه لا بد للركاب أن يسافروا – طوعاً أو كرهاً – إلى تلك الجهة نفسها . فكذلك لا يجري قطار المدنية الإنسانية إلاّ إلى جهة يوجهه إليها من بأيديهم زمام أمر تلك المدنية . ومن الظاهر البين أن الإنسانية بمجموعها لا تستطيع بحال من الأحوال أن تأبى السير على تلك الخطة التي رسمها لها الذين بأيديهم وسائل الأرض وأسبابها طراً ، ولهم الهيمنة كل الهيمنة على أزمة الأمر ، وبيدهم السلطة المطلقة في تدبير شؤون الإنسانية وتتعلق بأذيالهم نفوس الجماهير وآمالهم ، وهم يملكون أدوات تكوين الأفكار والنظريات وصوغها في قوالب يحبونها ، وإليهم المنشأ في تنشئة الطباع الفردية ، وإنشاء النظام الجماعي وتحديد القيم الخلقية . فإذا

كان هؤلاء الزعماء والقواد ممن يؤمنون بالله ويخافون عذابه فلا بد لنظام الحياة بأسره أن يسير على طريق من الخير والرشد والصلاح ، وأن يعود الخبثاء الأشداء إلى كنف الدين ويصلحوا شؤونهم . وكذلك تنمو الحسنات ويزكو غراسها ، وأقل ما يكون من تأثير المجتمع في السيئات أنها لا تربو إن لم تمحق وتنقرض آثارها .

وأما إذا كانت هذه السلطة – سلطة الزعامة والقيادة والإمامة – بأيدي رجال انحرفوا عن الله ورسوله ، واتبعوا الشهوات ، وانغمسوا في الفجور والطغيان ، فلا محالة أن يسير نظام الحياة بقضه وقضيضه على البغي والعدوان والفحشاء ، ويدب دبيب الفساد والفوضى في الأفكار والنظريات والعلوم والآداب والسياسة والمدنية والثقافة والأخلاق والمعاملات والعدالة والقانون برمتها ، وتنمو السيئات ويستفحل أمرها » . .

. . « والظاهر أن أول ما يطالب به دين الله عباده، أن يدخلوا في عبودية الحق كافة مخلصين له الطاعة والانقياد ، حتى لا يبقى في أعناقهم قلادة من قلائد العبودية لغير الله تعالى . ثم يتطلب منهم ألاّ يكون لحياتهم قانون إلاّ ما أنزله الله تعالى ، وجاء به الرسول الأمي الكريم – صلى الله عليه وسلم – ثم إن الإسلام يطالبهم أن ينعدم من الأرض الفساد ، وتستأصل شأفة السيئات والمنكرات الجالبة على العباد غضب الله تعالى وسخطه . وهذه الغايات السامية ، لا يمكن أن يتحقق منها شيء ما دامت قيادة أبناء البشر وتسيير شؤونهم في الأرض بأيدي أئمة الكفر والضلال ؛ ولا يكون من أمر أتباع الدين الحق وأنصاره إلاّ أن يستسلموا لأمر هؤلاء وينقادوا لجبروتهم ، يذكرون الله قابعين في زواياهم ، منقطعين عن الدنيا وشؤونها مغتنمين ما يتصدق به هؤلاء الجبابرة عليهم من المسامحات والضمانات ! ومن هنا يظهر ما للإمامة الصالحة وإقامة نظام الحق من أهمية خطيرة تجعلها من غايات الدين وأسسه . والحق أن الإنسان

لا يمكنه أن يبلغ رضى الله تعالى بأي عمل من أعماله إذا تناسى هذه الفريضة وتقاعس عن القيام بها .

ألَمْ تروْا ما جاء في الكتاب والسنّة من ذكر الجماعة ولزومها ، والسمع والطاعة ، حتى إن الإنسان ليستوجب القتل إذا خرج من الجماعة — ولو قيد شعرة — وإن صام وصلّى وزعم أنه مسلم . وهل لذلك من سبب سوى أن غرض الدين الحقيقي وهدفه إنما هو إقامة نظام الحق ، والإمامة الراشدة وتوطيد دعائمه في الأرض .

وكل ذلك يتوقف تحققه على القوة الجماعية . والذي يضعضع القوة الجماعية ويفت في عضدها ، يجني على الإسلام وأهله جناية لا يمكن جبرها وتلافيها بالصلاة ، ولا بالاقرار بكلمة التوحيد . ثم انظروا إلى ما كسب « الجهاد » من المنزلة العالية والمكانة الرفيعة في الدين ، حتى إن القرآن الكريم ليحكم « بالنفاق » على الذين ينكلون عنه ويتثاقلون إلى الأرض . ذلك أن « الجهاد » هو السعي المتواصل والكفاح المستمر في سبيل إقامة نظام الحق ، ليس غير . . وهذا الجهاد هو الذي يجعله القرآن ميزاناً يوزن به إيمان الرجل وإخلاصه للدين — وبعبارة أخرى أنه من كان يؤمن بالله ورسوله لا يمكنه أن يرضى بتسلط النظام الباطل ، أو يقعد عن بذل نفسه وماله في سبيل إقامة نظام الحق . . فكل من يبدو في أعماله شيء من الضعف والاستكانة في هذا الباب ، فاعلم أنه مدخول في إيمانه ، مرتاب في أمره . فكيف ينفعه عمل من أعماله بعد ذلك ؟ » .

. . « إن إقامة الإمامة الصالحة في أرض الله لها أهمية جوهرية ، وخطوة بالغة في نظام الإسلام . فكل من يؤمن بالله ورسوله ويدين دين الحق ، لا ينتهي عمله بأن يبذل الجهد المستطاع لإفراغ حياته في قالب الإسلام ، ولا تبرأ ذمته من ذلك فحسب ، بل يلزمه بمقتضى ذلك الإيمان أن يستنفد جميع

قواه ومساعيه في انتزاع زمام الأمر من أيدي الكافرين والفجرة والظالمين حتى يتسلمه رجال ذوو صلاح ممن يتقون الله ، ويرجون حسابه ، ويقوم في الأرض ذلك النظام الحق المرضي عند الله الذي به صلاح أمور الدنيا وقوام شؤونها » . . إن الإسلام حين يدعو الناس إلى انتزاع السلطان من أيدي غاصبيه من البشر ورده كله لله ، إنما يدعوهم لإنقاذ إنسانيتهم وتحرير رقابهم من العبودية للعبيد ، كما يدعوهم إلى إنقاذ أرواحهم – تحت رايته – بكل ما فيها من تضحيات ، ولكنه ينقذهم من تضحيات أكبر وأطول ، كما أنها أذلّ وأحقر . . إنه يدعوهم للكرامة ، وللسلامة في آن واحد . .

إن الحياة لا تستقيم ولا تصلح إلاّ على أساس الإيمان بالله الواحد ، والعبودية لإله واحد . . وان الأرض لتفسد حين لا تتمحض العبوذية لله في حياة الناس . . إن العبودية لله وحده معناها أن يكون للناس سيد واحد ، يتوجهون إليه بالعبادة وبالعبودية كذلك ، ويخضعون لشريعته وحدها فتخلص حياتهم من الخضوع لأهواء البشر المتقلبة ، وشهوات البشر الصغيرة ! . . إن الفساد يصيب تصورات الناس كما يصيب حياتهم الاجتماعية حين يكون هناك أرباب متفرقون يتحكمون في رقاب العباد – من دون الله – وما صلحت الأرض قط ولا استقامت حياة الناس إلاّ أيام كانت عبوديتهم لله وحده – عقيدة وعبادة وشريعة – وما تحرر « الإنسان » قط إلاّ في ظلال الربوبية الواحدة . . إن العقيدة أمر هائل عند الله – سبحانه – وأمر هائل في حساب هذا الكون ، وقدر الله الذي يصرفه ، وأمر هائل في تاريخ الإنسان وحياته في هذه الأرض وفي الدار الآخرة كذلك . . والمنهج الذي تشرعه العقيدة في وحدانية الله – سبحانه – وعبودية البشر لربوبيته وحده ، منهج يُغير أسلوب الحياة البشرية بجملتها ، ويقيم هذه الحياة على أسلوب آخر غير الذي تجري عليه في الجاهلية ، حيث تقوم ربوبية غير ربوبية الله – سبحانه – ذات منهج للحياة كلها غير منهج الله الذي ينبثق من تلك العقيدة .

إن شرك المشركين الحقيقي في الجاهلية الأولى يتمثل ابتداء في تلقي منهج حياتهم وشرائعهم من غير الله ، الذي يعرفونه ويعترفون به . . الأمر الذي يشاركهم فيه اليوم أقوام يظنون أنفسهم مسلمين – على دين محمد – كما كان المشركون يظنون أنهم مهتدون على دين أبيهم إبراهيم ! حتى لقد كان أبو جهل – وهو أبو جهل – يستفتح على الله فيقول : « اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يُعرف – وفي رواية – اللهم أضلّ الفريقين وأقطعهما للرحم – فاقطعه الغداة » ! .

فأما تلك الأصنام التي عرف أنهم يعبدونها ، فما كان ذلك قط لاعتقادهم بألوهية لها كألوهية الله – سبحانه – ولقد صرّح القرآن الكريم بحقيقة تصورهم الاعتقادي فيها وبسبب تقديمهم الشعائر لها في قوله تعالى . . « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى » . . فهذا كان مبلغ تصورهم لها . . مجرد شفعاء عند الله . . وما كان شركهم الحقيقي من هذه الجهة ، ولا كان إسلام من أسلم منهم متمثلاً في مجرد التخلي عن الاستشفاع بهذه الأصنام . وإلاّ فإن الحنفاء ، الذين اعتزلوا عبادة الأصنام هذه وقدموا الشعائر لله وحده ما اعتبروا مسلمين ! إنما تمثل الإسلام في الاعتقاد والشعائر وإفراد الله سبحانه بالحاكمية . والذين لا يفردون الله – سبحانه – بالحاكمية – في أي زمان وفي أي مكان – هم مشركون لا يخرجهم من هذا الشرك أن يكون اعتقادهم أن لا إله إلاّ الله – مجرد اعتقاد – ولا أن يقدموا الشعائر لله وحده . . فإلى هنا يكونون كالحنفاء الذين لم يعتبرهم أحد مسلمين . إنما يعتبر الناس مسلمين حين يتمون حلقات السلسلة ، أي حين يضمون إلى الاعتقاد والشعائر إفراد الله سبحانه بالحاكمية ، ورفضهم الاعتراف بشرعية حكم أو قانون أو وضع أو قيمة أو تقليد لم يصدر عن الله وحده . . وهذا وحده هو الإسلام ، لأنه وحده مدلول شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ، كما عُرف هذا المدلول في الاعتقاد الإسلامي سواء ! ثم أن

يتجمع هؤلاء الذين يشهدون أن لا إله إلا ّ الله على هذا النحو وبهذا المدلول في تجمع حركي بقيادة مسلمة وينسلخوا من التجمع الجاهلي وقيادته الجاهلية ! وهذا ما ينبغي أن يتبينه الذين يريدون أن يكونوا « مسلمين » فلا تخدعهم عن حقيقة ما هم فيه خدعة أنهم مسلمون اعتقاداً وتعبداً . فإن هذا وحده لا يجعل الناس « مسلمين » ما لم يتحقق لهم أن يفردوا الله — سبحانه — بالحاكمية ، ويرفضوا حاكمية العبيد ، ويخلعوا ولاءهم للمجتمع الجاهلي ولقيادته الجاهلية .

وإن كثيراً من الطيبين المخلصين تخدعهم هذه الخدعة . . وهم يريدون لأنفسهم الإسلام ولكنهم يُخدعون عنه . فأوْلى لهم أن يستيقنوا صورة الإسلام الحقيقية والوحيدة . . وان يعرفوا أن المشركين من العرب الذين يحملون اسم « مشركين » لم يكونوا يختلفون عنهم في شيء ! فقد كانوا يعرفون الله بحقيقته — كما تبين — ويقدمون له الشفعاء مع أصنامهم. وكان شركهم الأساسي يتمثل — لا في الاعتقاد — ولكن في الحاكمية ! وإذا كان للطيبين المخلصين الذين يريدون أن يكونوا مسلمين أن يتبينوا هذه الحقيقة؛ فإن العصبة المسلمة التي تجاهد لإعادة نشأة هذا الدين في الأرض في عالم الواقع ، يجب أن تستيقن هذه الحقيقة بوضوح وعمق؛ويجب أن لا تتلجلج فيها ، ويجب أن تعرف الناس بها تعريفاً صحيحاً جازماً . . فهذه هي نقطة البدء والانطلاق . . فإذا انحرفت الحركة عنها — منذ البدء — أدنى انحراف ضلّت طريقها كله وبنت على غير أساس ، مهما توافر لها من الإخلاص ، وذلك الصبر والتصميم على المضي في الطريق .

٣ - « نتائج الشرك »

يقول الله سبحانه « ومن يُشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق » . .

إنها صورة صادقة لحال من يُشرك بالله ، فيهوي من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء . إذ يفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها . . قاعدة التوحيد . . ويفقد المستقر الآمن الذي يثوب إليه ، فتتخطفه الأهواء تخطف الجوارح ، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح . وهو لا يمسك بالعروة الوثقى ، ولا يستقر على القاعدة الثابتة ، التي تربطه بهذا الوجود .

إن العبودية لله وحده هي العاصم من العبودية للهوى ، والعاصم من العبودية للعباد . . وما يرتفع الإنسان إلى أعلى مقام مقدر له ، إلاّ حين يعتصم من العبودية لهواه كما يعتصم من العبودية لسواه .

إن الذين يستنكفون أن يكونوا عبيداً لله وحده ، يقعون من فورهم ضحايا لأحط العبوديات الأخرى . يقعون من فورهم عبيداً لهواهم وشهواتهم ، ونزواتهم ودفعاتهم ، فيفقدون من فورهم إرادتهم الضابطة التي خصّ الله بها نوع « الإنسان » من بين سائر الأنواع ، وينحدرون في سلّم ، فإذا هم شرّ الدواب وإذا هم كالأنعام بل هم أضلّ ، وإذا هم أسفل سافلين بعد أن كانوا — كما خلقهم الله — في أحسن تقويم . كذلك يقع الذين يستنكفون أن يكونوا عبيداً لله في شر العبوديات الأخرى وأحطها . . يقعون في عبودية

العبيد من أمثالهم ، يصرفون حياتهم وفق هواهم ، ووفق ما يبدو لهم من نظريات واتجاهات قصيرة النظر ، مشوبة بحب الاستعلاء ، كما هي مشوبة بالجهل والنقص والهوى .

ويقعون في عبودية « الحتميات » التي يقال لهم : إنه لا قبل لهم بها ، وانه لا بد من أن يخضعوا ولا يناقشوها . . « حتمية التاريخ » . . « وحتمية الاقتصاد » . . « وحتمية التطور » . . وسائر الحتميات المادية التي تمرغ جبين الإنسان في الرغام وهو لا يملك أن يرفعه ، ولا أن يناقش — في عبوديته البائسة الذليلة — هذه الحتميات الجبارة المذلة المخيفة . .

إن توحيد الدينونة لله وحده هو مفرق الطريق بين الفوضى والنظام في عالم العقيدة ، وبين تحرير البشرية من عقال الوهم والخرافة والسلطان الزائف ، أو استعبادها للأرباب المتفرقة ونزواتهم ، وللوسطاء عند الله من خلقه ، وللملوك والرؤساء والحكام الذين يغتصبون أخص خصائص الألوهية — وهي الربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية — فيعبدون الناس لربوبيتهم الزائفة المغتصبة .

وما من نظام اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي أو أخلاقي أو دولي ، يمكن أن يقوم على أسس واضحة فاصلة ثابتة ، لا تخضع للهوى والتأويلات المغرضة ، إلاّ حين تستقر عقيدة التوحيد هكذا بسيطة دقيقة .

وما يمكن أن يتحرر البشر من الذل والخوف والقلق ويستمتعوا بالكرامة الحقيقية ، التي أكرمهم الله بها ، إلاّ حين يتفرد الله سبحانه بالربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية ، ويتجرد منها العبيد في كل صورة من الصور .

والله سبحانه ينهى لذلك عن الشرك « ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً » . .

إنه النهي عن الشرك والتحذير من عاقبته ، والأمر عام ، ولكنه وُجّه إلى المفرد ليحس كل أحد أنه أمر خاص به ، صادر إلى شخصه ، فالاعتقاد مسألة شخصية مسؤول عنها كل فرد بذاته . والعاقبة التي تنتظر كل فرد يحيد عن التوحيد أن يقف مذموماً بالفعلة الذميمة التي أقدم عليها ، مخذولاً لا ناصر له ، ومن لا ينصره الله فهو مخذول وان كثر ناصروه . .

لذلك يأمر الله ــ سبحانه ــ بالتوحيد « وقضى ربك ألا تعبدوا إلاّ إياه ».. فهو أمر بتوحيد المعبود بعد النهي عن الشرك . أمر في صورة قضاء . فهو أمر حتمي حتمية القضاء . . ومن ثم فالله سبحانه يعرض مشهداً لصورة العبد الموحد والعبد المشرك : « ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ، ورجلاً سلماً لرجل . هل يستويان مثلاً . الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » .. يضرب الله المثل للعبد الموحد والعبد المشرك بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضاً فيه ، وهو بينهم موزع ، ولكل منهم فيه توجيه ، ولكل منهم عليه تكليف ، وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق ، ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة التي تمزق اتجاهاته وقواه ! . . وعبد يملكه سيد واحد . وهو يعلم ما يطلبه منه ، ويكلف به ؛ فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح . . إنهما لا يستويان . فالذي يخضع لسيد واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين ، وتجمّع الطاقة ووحدة الاتجاه ، ووضوح الطريق . . والذي يخضع لسادة متشاكسين . . معذب مقلقل ، لا يستقر على حال ، ولا يرضي واحداً منهم فضلاً عن أن يرضي الجميع .

هذه حالة المشرك التخبط على غير هدى . . « أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى . أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم » . . والذي يمشي مكباً على وجهه إما أن يكون هذا الذي يمشي على وجهه فعلاً لا على رجليه في استقامة كما خلقه الله . وإما أن يكون هو الذي يعثر في طريقه فينكب على

وجهه ، ثم ينهض ليعثر من جديد ! وهذه كتلك حال بائسة تعاني المشقة والعسر والتعثر ،ولا تنتهي إلى هدى ولا خير ولا وصول! وأين هي من حال الذي يمشي مستقيماً سوياً على طريق لا عوج فيها ولا عثرات . وهدفه أمامه واضح مرسوم . . إن الحال الأولى هي حال المشرك الشقي المنكود الضال عن طريق الله ، والمحروم من هداه ، الذي يصطدم بنواميسه ومخلوقاته ، لأنه يعترضها في سيره ، ويتخذ له مساراً غير مسارها ، وطريقاً غير طريقها ، فهو أبداً في تعثر ، وأبداً في عناء ، وأبداً في ضلال . والحال الثانية هي حال السعيد المجدود المهتدي إلى الله ، الممتع بهداه والذي يسير وفق نواميسه في الطريق اللاحب المعمور ، الذي يسلكه موكب الإيمان والحمد والتمجيد . وهو موكب هذا الوجود كله بما فيه من أحياء وأشياء . إن حياة الإيمان هي اليسر والاستقامة والقصد . وحياة الشرك هي العسر والتعثر والضلال . .

فأيهما أهدى ؟ وهل الأمر في حاجة إلى جواب ؟ إنما هو سؤال التقرير والإيجاب . .

إن الشرك انقطاع ما بين الله والعباد ، فلا يبقى لهم معه أمل في مغفرة . إذا خرجوا من هذه الدنيا وهم مشركون . مقطوعو الصلة بالله رب العالمين . وما تشرك النفس بالله ، وتبقى على هذا الشرك حتى تخرج من الدنيا — وأمامها دلائل التوحيد في صفحة الكون وفي هداية الرسل — وما تفعل النفس هذا وفيها عنصر من عناصر الخير والصلاحية ، إنما تفعله وقد فسدت فساداً لا رجعة فيه ! وتَلِفَتْ فطرتها التي برأها الله عليها ، وارتدت أسفل سافلين ، وتهيأت بذاتها لحياة الجحيم ! أما ما وراء هذا الاثم المبين الواضح الظاهر ، والظلم العظيم ، الوقح الجائر . . أما ما وراء ذلك من الذنوب — والكبائر — فإن الله يغفره لمن يشاء — فهو داخل في حدود المغفرة — بتوبة أو من غير توبة ، كما تقول بعض الروايات المأثورة الواردة ، ما دام العبد يشعر بالله ؛ ويرجو مغفرته ، ويستيقن أنه قادر على أن يغفر له وان عفوه لا يقصر عن ذنبه . .

وهذا منتهى الأمد في تصوير الرحمة التي لا تنفد ولا تحد ، والمغفرة التي لا يوصد لها باب ، ولا يقف عليها بواب !

أخرج البخاري ومسلم – كلاهما – عن أبي ذر . قال : خرجت ليلة من الليالي فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي وحده ، وليس معه إنسان . قال : فظننت أنه يكره أن يمشي معه أحد . قال : فجعلت أمشي في ظل القمر . فالتفت فرآني . فقال : « من هذا » ؟ فقلت : أبو ذر – جعلني الله فداك – قال : « يا أبا ذر تعال » . قال : فمشيت معه ساعة . فقال لي : إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة ، إلاّ من أعطى الله خيراً فجعل يبثه عن يمينه وشماله وبين يديه ووراءه . وعمل فيه خيراً » . قال : فمشيت معه ساعة . فقال لي : « اجلس هاهنا » فأجلسني في قاع حوله حجارة . فقال لي : «اجلس هاهنا حتى أرجع إليك ». قال: فانطلق في الحرة حتى لا أراه فلبث . فلبث عني حتى إذا طال اللبث . . ثم اني سمعته وهو مقبل يقول : « وان زنى وان سرق » »قال : فلما جاء لم أجد حتى قلت : يا نبي الله – جعلني الله فداك – من تكلمه في جانب الحرة ؟ فإني سمعت أحداً يرجع إليك . قال : ذلك جبريل » ، عرض عليّ جانب الحرة فقال : « بشّر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة » قلتُ : أيا جبريل وإن سرق وإن زنى ؟ قال : نعم . قلت وإن سرق وإن زنى ؟ قال : نعم وإن شرب الخمر » .

– وأخرج ابن أبي حاتم – باسناده – عن ابن عمر قال : كنا أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – لا نشك في قاتل النفس ، وآكل مال اليتيم ، وقاذف المحصنات ، وشاهد الزور حتى نزلت : « إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » . . فأمسك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن الشهادة .

– وروى الطبراني – باسناده – عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن النبي

ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : قال الله عز وجل : « من علم أنني ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالي ما لم يشرك بي شئاً » .

وفي هذا الحديث الأخير لمحة كاشفة . فالمهم هو شعور القلب حقيقته ـ سبحانه ـ ومن وراء هذا الشعور الخير والرجاء . والخوف والحياء . . فإذا وقع الذنب فمن ورائه هذه السمات تؤهل للتقوى وتؤهل للمغفرة .

والشرك بالله يتحقق باتخاذ آلهة مع الله اتخاذاً صريحاً ـ على طريقة الجاهلية العربية وغيرها من الجاهليات القديمة ـ كما يتحقق بعدم إفراد الله بخصائص الألوهية ، والاعتراف لبعض البشر بهذه الخصائص . كإشراك اليهود والنصارى الذي حكاه القرآن الكريم من أنهم . . « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » . ولم يكونوا عبدوهم مع الله . ولكن فقط اعترفوا لهم بحق التشريع لهم من دون الله . فحرموا عليهم وأحلوا لهم . فاتبعوهم في هذا . ومنحوهم خاصية من خصائص الألوهية ! فحق عليهم وصف الشرك وقيل عنهم انهم خالفوا ما أمروا به من التوحيد . . « وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ». . فيقيموا له وحـده الشعائر ، ويتلقوا منـه وحده الشرائع والأوامر . ولا غفران لذنب الشرك ـ متى مات صاحبه عليه ـ بينما باب المغفرة مفتوح لكل ذنب سواه عندما يشاء . . « إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

الشرك الذي يغفر الله كل ما عداه . حتى الكبائر . . « وان زنى وإن سرق وإن شرب الخمر » فردّ الأمر كله إلى إفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية . ومن ثم إفراده بالحاكمية ، فهي أخص خصائص الألوهية . . داخل هذا النطاق ـ يبقى المسلم مسلماً ويبقى المؤمن مؤمناً . ويطمع أن يغفر الله له ذنوبه ومنها كبائره . أما كبائره خارج هذا النطاق فهو الشرك الذي لا يغفره الله أبداً . . إذ هو شرط الإيمان وحدّ الإسلام . . « إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » . .

والسبب في تعظيم جريمة الشرك ، وخروجها من دائرة المغفرة أن من يشرك بالله يخرج من حدود الخير والصلاح تماماً ، وتفسد كل فطرته بحيث لا تصلح أبداً . . « ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً » . . ولو بقي خيط واحد من خيوط الفطرة لشدّه إلى الشعور بوحدانية ربه ، ولو قبل الموت بساعة . . فأما وقد غرغر – وهو على الشرك – فقد انتهى أمره ، وحقّ عليه القول . . « ونصله جهنم وساءت مصيراً » . .

وما الشرك إلاّ تفلت من المعايير الثابتة التي وضعها الله ، واتباع للهوى . . « أرأيت من اتخذ إلهه هواه » . . وهو تعبير عجيب يرسم نموذجاً عميقاً لحالة نفسية بارزة ، حين تنفلت النفس من كل المعايير الثابتة والمقاييس المعلومة ، والموازين المضبوطة ، وتخضع لهواها ولحكم شهواتها وتتعبّد ذاتها ، فلا تخضع لميزان ، ولا تعترف بحدّ ، ولا تقتنع بمنطق ، متى اعترض هواها الطاغي الذي جعلت منه إلهاً يُعبد ويُطاع .

إن الدعوة إلى التوحيد هي دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة وبكل معاني الحياة : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » . .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى عقيدة تحيي القلوب والعقول ، وتطلقها من أوهام الجهل والخرافة ، ومن ضغط الوهم والأسطورة ، ومن الخضوع المذل للأسباب الظاهرة والحتميات القاهرة ، ومن العبودية لغير الله والمذلة للعبيد أو للشهوات سواء . .

ويدعوهم إلى شريعة من عند الله ؛ تعلن تحرر « الإنسان » وتكريمه بصدورها عن الله وحده ، ووقوف البشر كلهم صفاً متساوين في مواجهتها ، لا يتحكم فرد في شعب ، ولا طبقة في أمة ، ولا جنس في جنس ، ولا قوم في قوم . . ولكنهم ينطلقون كلهم أحراراً متساوين في ظل شريعة صاحبها ربّ العالمين . . ويدعوهم إلى منهج للحياة ومنهج للفكر ، ومنهج للتصور ،

يطلقهم من كل قيد إلاّ ضوابط الفطرة ، المتمثلة في الضوابط التي وضعها خالق الإنسان ، العليم بما خلق ؛ هذه الضوابط التي تصون الطاقة البانية من التبدد ، ولا تكبت هذه الطاقة ولا تحطمها ولا تكفها عن النشاط الإيجابي البنّاء . يدعوهم إلى القوة والعزة والاستعلاء بعقيدتهم ومنهجهم ، والثقة بدينهم وبربهم ، والانطلاق في الأرض . . كلها « لتحرير الانسان » بجملته ، وإخراجه من عبودية العباد إلى عبودية الله وحده . وتحقيق إنسانيته العليا التي وهبها له الله ، فاستلبها منه الطغاة !

إن الدعوة إلى التوحيد هي دعوة إلى النور . . وإنها لنعمة أن يخرج القلب من ظلمات الشرك وجهالاته إلى نور الإيمان بالله وتوحيده . فيخرج من التيه والحيرة والضلالة والشرود والطمأنينة إلى المعرفة والاستقرار والهدوء . . ويخرج من الدينونة المذلة لشتى الأرباب ، إلى الدينونة الكريمة العزيزة لرب العباد . . « وهو الذي يُنزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور » . .

٤ - « قيمة الايمان »

إن الإيمان هو كبرى المنن التي ينعم الله بها على عبد من عباده في الأرض. إنه أكبر من منّة الوجود الذي يمنحه الله ابتداء لهذا العبد ؛ وسائر ما يتعلق بالوجود من آلاء الرزق والصحة والحياة والمتاع .

إنها المنّة التي تجعل للوجود الإنساني حقيقة مميزة ؛ وتجعل له في نظام الكون دوراً أصيلاً عظيماً . وأول ما يصنعه الإيمان في الكائن البشري ، حين تستقر حقيقته في قلبه ، هو سعة تصوره لهذا الوجود ، ولارتباطاته هو به ، ولدوره هو فيه ؛ وصحة تصوره للقيم والأشياء والأشخاص والأحداث من حوله ، وطمأنينته في رحلته على هذا الكوكب الأرضي حتى يلقى الله ، وأنسه بكل ما في الوجود حوله ، وأنسه بالله خالقه وخالق هذا الوجود ، وشعوره بقيمته وكرامته ، وإحساسه بأنه يملك أن يقوم بدور مرموق يرضى عنه الله ، ويحقق الخير لهذا الوجود كله بكل ما فيه وكل من فيه .

فمن سعة تصوره أنه يخرج من نطاق ذاته المحدودة في الزمان والمكان ، الصغيرة الكيان ، الضئيلة القوة . إلى محيط هذا الوجود كله ، بما فيه من قوى مذخورة ، وأسرار مكنونة ، وانطلاق لا تقف دونه حدود ولا قيود . في نهاية المطاف .

فهو بالقياس إلى جنسه ، فرد من إنسانية ، ترجع إلى أصل واحد . هذا الأصل اكتسب انسانيته ابتداء من روح الله . من النفخة العلوية التي تصل

هذا الكائن الطيني بالنور الإلهي . النور الطليق الذي لا تحصره سماء ولا أرض ولا بدء ولا انتهاء . فلا حدّ له في المكان ، ولا حدّ له في الزمان . وهذا العنصر الطليق هو الذي جعل من المخلوق البشري هذا الإنسان . . ويكفي أن يستقر هذا التصور في قلب إنسان ليرفعه في نظر نفسه ، وليكرمه في حسّه ، وليشعره بالوضاءة والانطلاق ؛ وقدماه تدبان على الأرض ، وقلبه يرف بأجنحة النور إلى مصدر النور الأول الذي منحه هذا اللون من الحياة .

وهو بالقياس إلى الفئة التي ينتسب إليها ، فرد من الأمة المؤمنة . الأمة الواحدة ، الممتدة في شعاب الزمن ، السائرة في موكب كريم ، يقوده نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد واخوانهم من النبيين ، صلوات الله عليهم أجمعين . . ويكفي أن يستقر هذا التصور في قلب إنسان ، فيشعر أنه فرع من تلك الشجرة الطيبة الباسقة المتطاولة ، العميقة الجذور ، الممتدة الفروع ، المتصلة بالسماء في عمرها المديد . . يكفي أن يشعر الإنسان هذا الشعور ليجد للحياة طعماً آخر ، وليحس بالحياة إحساساً جديداً ، وليضيف إلى حياته هذه حياة كريمة ، مستمدة من هذا النسب العريق .

ثم يتسع تصوره ويتسع حتى يتجاوز ذاته وأمته وجنسهالإنساني ، ويرى هذا الوجود كله . الوجود الصادر عن الله ، الذي عنه صدر ، ومن نفخة روحه صار إنساناً . ويعرف إيمانه أن هذا الوجود كله كائن حي ، مؤلف من كائنات حية ، وان لكل شيء فيه روحاً ، وان لهذا الكون كله روحاً . وأن أرواح الأشياء ، وروح هذا الكون الكبير ، تتوجه إلى بارئها الأعلى – كما تتوجه روحه هو – بالدعاء والتسبيح ، وتستجيب له بالحمد والطاعة ، وتنتهي إليه بالاذعان والاستسلام . فإذا هو في كيان هذا الكون ، جزء من كل ، لا ينفصل ولا ينعزل . صادر عن بارئه ، متجه إليه بروحه ، راجع في النهاية إليه . وإذا هو أكبر من ذاته المحدودة . أكبر بقدر تصوره لضخامة هذا الوجود الهائل . وإذا هو مأنوس بكل ما حوله من أرواح . ومأنوس بعد

ذلك كله بروح الله التي ترعاه . وعندئذ يشعر أنه يملك أن يتصل بهذا الوجود كله ، وان يمتد طولاً وعرضاً فيه ، وأنه يملك أن يصنع أشياء كثيرة ، وان ينشىء أحداثاً ضخمة ، وان يؤثر بكل شيء ويتأثر . ثم يملك أن يستمد مباشرة من تلك القوة الكبرى التي برأته وبرأت كل ما في الوجود من قوى وطاقات. القوة الكبرى التي لا تنحسر ولا تضعف ولا تغيب .

ومن هذا التصور الواسع الرحيب يستمد موازين جديدة حقيقة للأشياء والأحداث والأشخاص والقيم والاهتمامات والغايات . ويرى دوره الحقيقي في هذا الوجود ، ومهمته الحقيقية في هذه الحياة . بوصفه قدراً من أقدار الله في الكون ، يوجهه ليجقق به ويحقق فيه ما يشاء . ويمضي في رحلته على هذا الكوكب ، ثابت الخطو ، مكشوف البصيرة ، مأنوس الضمير .

ومن هذه المعرفة لحقيقة الوجود حوله ، ولحقيقة الدور المقسوم له ، ولحقيقة الطاقة المهيأة له للقيام بهذا الدور . من هذه المعرفة يستمد الطمأنينة والسكينة والارتياح لما يجزي حوله ، ولما يقع له . فهو يعرف من أين جاء ؟ ولماذا جاء ؟ وإلى أين يذهب ؟ وماذا هو واجد هناك ؟ . . وقد علم أنه هنا لأمر ، وأن كل ما يقع له مقدر لتمام هذا الأمر . وعلم أن مزرعته الآخرة ، وأنه مجزي على الصغيرة والكبيرة ، وأنه لم يخلق عبثاً ، ولن يترك سُدى ولن يمضي مفرداً . .

ومن هذه المعرفة تختفي مشاعر القلق والشك والحيرة الناشئة عن عدم معرفة المنشأ والمصير ، وعن عدم رؤية المطوي من الطريق ، وعدم الثقة بالحكمة التي تكمن وراء مجيئه وذهابه ، ووراء رحلته في ذلك الطريق .

فالمؤمن يعرف بقلب مطمئن ، وضمير مستريح ، وروح مستبشرة أنه يلبس ثوب العمر بقدر الله الذي يصرف الوجود كله تصريف الحكيم الخبير . وأن اليد التي ألبسته إياه أحكم منه وأرحم به ، فلا ضرورة لاستشارته لأنه لم يكن ليشير كما يشير صاحب هذه اليد العليم البصير .

وأنه يلبسه لأداء دور معين في هذا الكون ، يتأثر بكل ما فيه ، ويؤثر في كل ما فيه . وان هذا الدور يتناسق مع جميع الأدوار التي يقوم بها كل كائن من الأشياء والأحياء منذ البدء حتى المصير .

وهو يعلم إذن لماذا جاء ، كما يعرف أين المقر ، ولا يحار بين شتى الفكر ، بل يقطع الرحلة ويؤدي الدور في طمأنينة وفي ثقة وفي يقين . وقد يرتقي في المعرفة الإيمانية ، فيقطع الرحلة ويؤدي الدور في فرح وانطلاق واستبشار ، شاعراً بجمال الهبة وجلال العطية . — هبة العمر — الممنوح له من يد الكريم المنان ، الجميل اللطيف ، الودود الرحيم . وهبة الدور الذي يؤديه — كائناً ما كان من المشقة — لينتهي به إلى ربه في اشتياق حبيب !

فأنا أعرف — ولله الحمد والمنّة — أنه ليس هناك جهد غبين ، فكل جهد مجزي وليس هناك تعب ضائع فكل تعب مثمر ، وأن المصير مُرض ، وأنه بين يدي عادل رحيم . وأنا أشعر اليوم — ولله الحمد والمنّة — أن الكون لا يقف تلك الوقفة البائسة أبداً ؛ فروح الكون تؤمن بربها ، وتتجه إليه ، وتسبح بحمده . والكون يمضي وفق ناموسه الذي اختاره الله له ، في طاعة وفي رضى وفي تسليم !

وهذا كسب ضخم في عالم الشعور وعالم التفكير ، كما أنه كسب ضخم في عالم الجسد والأعصاب ، فوق ما هو كسب ضخم في جمال العمل والنشاط والتأثر والتأثير .

والإيمان — بعد — قوة دافعة وطاقة مجمعة . فما تكاد حقيقته تستقر في القلب حتى تتحرك لتعمل ، ولتحقق ذاتها في الواقع ، ولتوائم بين صورتها المضمرة وصورتها الظاهرة . كما أنها تستولي على مصادر الحركة في الكائن البشري كلها ، وتدفعها في الطريق . ذلك سر قوة العقيدة في النفس ، وسر قوة النفس بالعقيدة . سر تلك الخوارق التي صنعتها العقيدة في الأرض وما

تزال في كل يوم تصنعها . الخوارق التي تغير وجه الحياة من يوم إلى يوم ، وتدفع بالفرد وتدفع بالجماعة إلى التضحية بالعمر الفاني المحدود في سبيل الحياة الكبرى التي لا تفنى ، وتقف بالفرد القليل الضئيل أمام قوى السلطان وقوى المال وقوى الحديد والنار ، فإذا هي كلها تنهزم أمام العقيدة الدافعة في روح فرد مؤمن . . وما هو الفرد الفاني المحدود الذي هزم تلك القوى جميعاً ، ولكنها القوة الكبرى الهائلة التي استمدت منها تلك الروح ، والينبوع المتفجر الذي لا ينضب ولا ينحسر ولا يضعف .

تلك الخوارق التي تأتي بها العقيدة الدينية في حياة الأفراد وفي حياة الجماعات لا تقوم على خرافة غامضة ، ولا تعتمد على التهاويل والرؤى . انها تقوم على أسباب مدروكة وعلى قواعد ثابتة . ان العقيدة الدينية فكرة كلية تربط الإنسان بقوى الكون الظاهرة والخفية ، وتثبّت روحه بالثقة والطمأنينة ، وتمنحه القدرة على مواجهة القوى الزائلة والأوضاع الباطلة ، بقوة اليقين في النصر ، وقوة الثقة في الله . وهي تفسر للفرد علاقاته بما حوله من الناس والأحداث والأشياء ، وتوضح له غايته واتجاهه وطريقه ، وتجمع طاقاته وقواه كلها ، وتدفعها في اتجاه . ومن هنا كذلك قوتها . قوة تجميع القوى والطاقات حول محور واحد ، وتوجيهها في اتجاه واحد ، تمضي إليه مستنيرة الهدف ، في قوة ، وفي ثقة ، وفي يقين . ويضاعف قوتها أنها تمضي مع الخط الثابت الذي يمضي في الكون كله ظاهره وخافيه . وان كل ما في الكون من قوى مكنونة تتجه اتجاهاً إيمانياً . فيلتقي بها المؤمن في طريقه ، وينضم إلى زحفها الهائل لتغليب الحق على الباطل . مهما يكن للباطل من قوة ظاهرة لها في العيون بريق ! وصدق الله العظيم : « يَمنّون عليك أن أسلموا . قل لا تمنوا عليّ إسلامكم ، بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » . فهي المنّة الكبرى التي لا يملكها ولا يهبها إلاّ الله الكريم لمن يعلم منه أنه يستحق هذا الفضل العظيم ، وصدق الله العظيم .

فماذا فَقَدَ من وَجَدَ الأنس بتلك الحقائق والمدركات وتلك المعاني والمشاعر ؟ وعاش بها ومعها ، وقطع رحلته على هذا الكوكب في ظلالها وعلى هداها ؟ وماذا وَجَدَ مَنْ فقدها ولو تقلّب في أعطاف النعيم . وهو يتمتع ويأكل كما تأكل الأنعام . والأنعام أهدى لأنها تعرف بفطرتها الإيمان ، وتهتدي به إلى بارئها الكريم .

٥ _ نور الايمان

إن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم جاءت تعرض الإسلام في صورته النهائية الأخيرة ليكون دين البشرية كلها ؛ ولتكون شريعته هي شريعة الناس جميعاً ، ولتهيمن على كل ما كان قبلها لتكون هي المرجع النهائي ، ولتقيم منهج الله للحياة البشرية حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

المنهج الذي تقوم عليه الحياة في شتى شعبها ونشاطها ، والشريعة التي تعيش الحياة في إطارها وتدور حول محورها . وتستمد منه تصورها الاعتقادي. ونظامها الاجتماعي ، وآداب سلوكها الفردي والجماعي . وقد جاءت كذلك ليُحكم بها ، لا لتُعرف وتُدرس،وتتحول إلى ثقافة في الكتب والدفاتر ! وقد جاءت لتتبع بكل دقة ولا يترك شيء منها ويستبدل به حكم آخر في صغيرة من شؤون الحياة أو كبيرة . . فاما هذا وإما الجاهلية والهوى . ولا يشفع في هذه المخالفة أن يقول أحد انه يجمع بين الناس بالتساهل في الدين . فلو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ، إنما يريد الله أن تحكم شريعته ، ثم يكون من أمر الناس ما يكون . . « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومُهيمناً عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة . ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وان احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك . فإن تولوا فاعلم انما يريد

الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم . وان كثيراً من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » .

ويقف الإنسان أمام هذه النصاعة في التعبير ، وهذا الحسم في التقرير ، وهذا الاحتياط البالغ لكل ما قد يهجس في الخاطر من مبررات لترك شيء – ولو قليل – من هذه الشريعة في بعض الملابسات والظروف . . يقف الإنسان أمام هذا كله ، فيعجب كيف ساغ لمسلم – يدعي الإسلام – أن يترك شريعة الله كلها ، بدعوى الملابسات والظروف ! وكيف ساغ له أن يظل يدعي الإسلام بعد هذا الترك الكلي لشريعة الله ! وكيف لا يزال الناس يسمون أنفسهم « مسلمين » ؟ وقد خلعوا ربقة الإسلام من رقابهم ، وهم يخلعون شريعة الله كلها ، ويرفضون الإقرار له بالألوهية ، في صورة رفضهم الإقرار بشريعته ، وبصلاحية هذه الشريعة في جميع الملابسات والظروف ؛ وبضرورة تطبيقها كلها في جميع الملابسات والظروف . . إنه الظلم والافتراء على الله . . « ومن أظلم من افترى على الله كذباً أو كذّب بآياته » . . كالذي يزعمه من يدّعون اليوم أنهم على دين الله الذي جاء به محمد – صلى الله عليه وسلم – ويقولون عن أنفسهم انهم « مسلمون » ! وهو من الكذب المفترى على الله . ذلك أنهم يصدرون أحكاماً وينشئون أوضاعاً ، ويبتدعون قيماً من عند أنفسهم يغتصبون فيها سلطان الله ويدّعونه لأنفسهم ، ويزعمون أنها هي دين الله ؛ ويزعم لهم بعض من باعوا دينهم ليشتروا به مثوىً في دركات الجحيم ، أنه هو دين الله ، باستنكار تكذيبهم كذلك بآيات الله ، التي جاءهم بها النبي صلى الله عليه وسلم فردّوها وعارضوها وجحدوها . وقالوا : إنها ليست من عند الله . بينما هم يزعمون أن ما يزاولونه في جاهليتهم هو الذي من عند الله ! وذلك كالذي يحدث من أهل الجاهلية اليوم . . حذو النعل بالنعل . . إن الله – سبحانه وتعالى – يواجههم باستنكار هذا كله ووصفه بأنه أظلم الظلم . . « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذّب بآياته ! » . .

والظلم هنا كناية عن الشرك في صورة التفظيع له والتقبيح ، وهو التعبير الغالب في السياق القرآني عن الشرك . وذلك حين يريد أن يبشع الشرك وينفر منه ، ذلك أن الشرك ظلم للحق ، وظلم للنفس ، وظلم للناس . هو اعتداء على حق الله — سبحانه — . . في أن يُوحد ويُعبد بلا شريك واعتداء على النفس بإيرادها موارد الخسار والبوار . . واعتداء على الناس بتعبيدهم لغير ربهم الحق . وإفساد حياتهم بالأحكام والأوضاع التي تقوم على أساس هذا الاعتداء . . ومن ثم فالشرك ظلم عظيم كما يقول عنه ربُّ العالمين ، ولن يُفلح الشرك ولا المشركون : « إنه لا يَفلح الظالمون » . .

إن الذي يعود إلى ملة الطاغوت والجاهلية ، التي لا يخلص فيها الناس الدينونة والطاعة لله وحده ، والتي يتخذ الناس فيها أرباباً من دون الله يقرون لهم بسلطان الله . . إن الذي يعود إلى هذه الملة —بعد إذ قسم الله له الخير وكشف له الطريق ، وهداه إلى الحق ، وأنقذه من العبودية للعبيد — إنما يؤدي شهادة كاذبة على الله ودينه . . « قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها » . . شهادة مؤداها أنه لم يجد في ملة الله خيراً فتركها وعاد إلى ملة الطاغوت . أو مؤداها على الأقل أن لملة الطاغوت حقاً في الوجود ، وشرعية في السلطان ؛ وان وجودها لا يتنافى مع الإيمان بالله . فهو يعود إليها ويعترف بها بعد أن آمن بالله . . وهي شهادة خطيرة أخطر من شهادة من لم يعرف الهدى ، ولم يرفع راية الإسلام . شهادة الاعتراف براية الطغيان . ولا طغيان وراء اغتصاب سلطان الله في الحياة .

إن دعوة التوحيد تنصر أول ما تُصر على التحرر من الدينونة لغير الله ، والتمرد على سلطان الأرباب الطغاة . وتعد إلغاء الشخصية والتنازل عن الحرية واتباع الجبارين المتكبرين جريمة شرك وكفر يستحق عليها الخانعون الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة .

لقد خلق الله الناس ليكونوا أحراراً لا يدينون بالعبودية لأحد من خلقه ، ولا يتنزلون عن حريتهم هذه لطاغية ولا رئيس ولا زعيم . فهذا مناط تكريمهم فإن لم يصونوه فلا كرامة لهم عند الله ولا نجاة . . وما يمكن لجماعة من البشر أن تدعي الكرامة وتدعي الإنسانية ، وهي تدين لغير الله من عباده . والذين يقبلون الدينونة لربوبية العبيد ليسوا بمعذورين أن يكونوا على أمرهم مغلوبين. فهم كثرة والمتجبرون قلة . ولو أرادوا التحرر لضحوا في سبيله بعض ما يضحونه مرغمين للأرباب المتسلطين من ضرائب الذل في النفس والعرض والمال .

والقرآن الكريم يلمس الضمير البشري لمسة توقظه ، وتشوقه إلى الهدى . وتهديه إلى الطريق ، وتبين حقيقة الإيمان . . «قد تبين الرشدمن الغي » . . فالإيمان هو الرشد الذي ينبغي للإنسان أن يتوخاه ويحرص عليه . والكفر هو الغي الذي ينبغي للإنسان أن ينفر منه ويتقي أن يوصم به .

والأمر كذلك فعلاً . فما يتدبر الإنسان نعمة الإيمان وما تمنحه للإدراك البشري من تصور ناصع واضح ، وما تمنحه للقلب البشري من طمأنينة وسلام ، وما تثيره في النفس البشرية من اهتمامات رفيعة ومشاعر نظيفة ، وما تحققه في المجتمع الإنساني من نظام سليمقويم دافع إلى تنمية الحياة وترقية الحياة . . ما يتدبر الإنسان نعمة الإيمان على هذا النحو حتى يجد فيها الرشد الذي لا يرفضه إلاّ سفيه يترك الرشد إلى الغي ، ويدع الهدى إلى الضلال ، ويؤثر التخبط والقلق والهبوط والضآلة على الطمأنينة والسلام والرفعة والاستعلاء .

ثم يزيد القرآن حقيقة الإيمان إيضاحاً وتحديداً وبياناً : « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها » . .

إن الكفر ينبغي أن يُوجه إلى ما يستحق الكفر ، وهو « الطاغوت » وان الإيمان يجب أن يتجه إلى من يجدر الإيمان به وهو « الله » . والطاغوت صيغة

من الطغيان ، تفيد كل ما يطغى على الوعي ، ويجور على الحق ، ويتجاوز الحدود التي رسمها الله للعباد ، ولا يكون له ضابط من العقيدة في الله ، ومن الشريعة التي يسنّها الله ، ومنه كل منهج غير مستمد من الله ، وكل تصور أو وضع أو أدب أو تقليد لا يستمد من الله . فمن يكفر بهذا كله في كل صورة من صوره ويؤمن بالله وحده . ويستمد من الله وحده فقد نجا . وتتمثل نجاته في استمساكه بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها .

وهنا تجدنا أمام صورة حسية لحقيقة شعورية ، ولحقيقة معنوية .. إن الإيمان بالله عروة وثيقة لا تنفصم أبداً .. انها متينة لا تنقطع .. ولا يضل الممسك بها طريق النجاة .. إنها موصولة بمالك الهلاك والنجاة .. والإيمان في حقيقته اهتداء إلى الحقيقة الأولى التي تقوم بها سائر الحقائق في هذا الوجود .. حقيقة الله .. واهتداء إلى حقيقة الناموس الذي سنّهُ الله لهذا الوجود ، وقام به هذا الوجود . والذي يمسك بعروته يمضي على هدى إلى ربه ، فلا يرتطم ولا يتخلف ولا تتفرق به السّبل ولا يذهب به الشرود والضلال .

إن الإيمان نور .. نور واحد في طبيعته وحقيقته .. وان الكفر ظلمات .. ظلمات . وما من حقيقة أصدق ولا أدق من التعبير عن الإيمان بالنور ، والتعبير عن الكفر بالظلمة .. « الله ولي الذين آمنوا يُخرجهم من الظلمات إلى النور . والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ».

إن الإيمان نور يشرق به كيان المؤمن أول ما ينبثق في ضميره . تشرق به روحه فتشف وتصفو وتشع من حولها نوراً ووضاءة ووضوحاً .. نور يكشف حقائق الأشياء وحقائق القيم وحقائق التصورات ، فيراها قلب المؤمن واضحة بغير غبش ، بينة بغير لبس ، مستقرة في مواضعها بغير أرجحة ؛ فيأخذ منها ما يأخذ ويدع منها ما يدع في هدوء وطمأنينة وثقة وقرار لا أرجحة فيه . نور يكشف الطريق إلى الناموس الكوني فيطابق المؤمن بين

حركته وحركة الناموس الكوني من حوله ومن خـــلاله ، ويمضي في طريقه إلى الله هيناً ليناً لا يعتسف ولا يصطدم بالنتوءات هنا وهناك . فالطريق في فطرته مكشوف معروف .

وهو نور واحد يهدي إلى طريق واحد : فأما ضلال الكفر فظلمات شتى منوعة . . ظلمة الهوى والشهوة . وظلمة الشرود والتيه . وظلمة الكبر والطغيان، وظلمة الضعف والذلة . وظلمة الرياء والنفاق . وظلمة الطمع والسعر . وظلمة الشك والقلق . . وظلمات شتى لا يأخذها الحصر تتجمع كلها عند الشرود عن طريق الله . والتلقي من غير الله ، والاحتكام لغير منهج الله . وما يترك الإنسان نور الله الواحد الذي لا يتعدد . نور الحق الواحد الذي لا يتلبس . حتى يدخل في الظلمات من شتى الأنواع وشتى الأصناف . . وكلها ظلمات !..

والنار هي والعاقبة اللائقة بأصحاب الظلمات. . « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . . وإذا لم يهتدوا بالنور ، فليخلدوا إذن في النار !

إن الحق واحد لا يتعدد والضلال ألوان وأنماط . . فماذا بعد الحق إلاّ الضلال ؟

الفهرس

مقدمة ٥

الباب الاول : وحدة الديـن ١٣

١ ــ التوحيد المطلق ١٥
٢ ــ طبيعة الرسالة وطبيعة الرسل ١٩
٣ ــ النظرية الاسلامية فـي خط سير الاديان ٣٠
٤ ــ وحدة الرسل ٣٤
٥ ــ الرسل مصدر الهدى ٣٩

الباب الثاني : منهج التوحيد ٤٧

١ ــ امر خطير ٤٩
٢ ــ مصدر التلقي ٥٤
٣ ــ معنى الايمان بالله ٦٠
٤ ــ شهادة الله ٦٦
٥ ــ التوحيد فطرة في الكيان البشري ٧٢

الباب الثالث : معنى التوحيد ٧٧

١ ــ لا خالق الا الله ٧٩
٢ ــ لا مالك الا الله ٩٣
٣ ــ لا رازق الا الله ٩٨
٤ ــ لا ضار ولا نافع الا باذن الله ١٠٦
٥ ــ لا اله الا هو يحيي ويميت ١١٤

٦ ـ لا مجيب الا الله ١٢٩
٧ ـ الفطرة والالتجاء الى الله ١٣٧
٨ ـ لا حول ولا قوة الا بالله ١٤٥
٩ ـ لا خشية ولا خوف الا من الله ١٥٠
١٠ ـ لا توكل الا على الله ١٥٨
١١ ـ لا مشرع الا الله ١٦٧
١٢ ـ النظرية الدستورية الاسلامية ١٧٧
١٣ ـ لا حاكم الا الله ١٨٧

الباب الرابع : طريق التوحيد ١٩٩

١ ـ عناد ومقاومة لطريق التوحيد ٢٠١
٢ ـ تكاليف الشرك ٢٠٩
٣ ـ نتائج الشرك ٢١٦
٤ ـ قيمة الايمان ٢٢٤
٥ ـ نور الايمان ٢٣٠

لا اله الا الله

لا اله الا الله ... انها تسبيحة التوحيد الندية الرضية

لا اله الا الله ... هو الذي خلقني وخلق كل شيء في هذا الوجود .. «وخلق كل شيء فقدره تقديرا » .. « ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه » .. « قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » .. فهذا الكون كله في قبضته ، وكل هذا الكون في حكمته .

لا اله الا الله ... فهو مالك الملك .. ومالك كل شيء . «والله ملك السموات والارض وهو على كل شيء قدير » .. «ذلكم الله ربكم له الملك لا اله الا هو فاني تصرفون »

لا اله الاالله ... لاحول ولا قوة الا بالله

لا اله الا الله ... لا خوف ولا خشية الا من الله .. ممن اخاف .. وممن يخاف المؤمن . فلا حساب لأحد ولا لشيء سواه ولا خوف ولا تطلع الا اليه .

تطلب جميع منشوراتنا من :

• الشركة المتحدة للتوزيع
بيروت - شارع سورية - بناية صمدي وصالحة
ص.ب ٧٤٦٠ هاتف ٢٩٥٥٠١

الثمن : ١٠ ل. ل.